هذا هو زوجي

بقلم
عصام محمد الشريف
رحمه الله

دار الإيمان
الإسكندرية

مركز المرأة للدراسات والاستشارات
ت : ٢٤٤٦٠٢٢
ت.ف: ٢٤٤٦٠٣٣
ترخيص رقم :(٧١)

هذا هو زوجي

بقلم
عصام محمد الشريف
رحمه الله

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
تليفون: ٥٤٥٧٢٦٩ – فاكس: ٥٤٤٦٤٩٦

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت: ٥٤٥٧٢٦٩

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

جميع الحقوق محفوظة

رقم الإيداع
٩٥٧٨ / ٢٠٠٥
الترقيم الدولي
977-331-410-3

هذا هو زوجي

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

إهـداء

إلى ولدي الحبيب .. أحمد

هكذا فليكن الأزواج مع زوجاتهم؛ لذا أهدي لك هذا الجهد المتواضع عسى أن تكون - إن شاء الله - زوجاً صالحاً وعبداً تقياً وداعيةً متواضعاً، ومن رجال الإسلام العاملين لهذا الدين حتى يأتيك اليقين.

ولا تنساني وكل من ينتفع بهذا الكتاب من خالص دعائكم لي بالعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

كتبه

عصام محمد الشريف

رحمه الله

تقديم

الحمد لله رب العالمين . . العزيز الغفار . . مكور الليل على النهار، تذكرة لأولي القلوب والأبصار، وتبصرة لأولي الألباب والاعتبار.

أحمده أبلغ حمدٍ وأذكاه، وأشمله وأنماه.

وأشهد أن لا إله إلا الله، البر الكريم، الرءوف الرحيم.

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. . وحبيبه وخليله. . أما بعد،

كنت قد كتبت من قبل كتاب (هذه هي زوجتي) ثم شرعت في كتابة قسيمة (هذا هو زوجي)، فصدر الأول، وجاء أوان صدور الثاني بفضل الله وكرمه.

إن من سعادة المرأة المسلمة أن يمن الله تعالى عليها بحسن اختيار الزوج الصالح، الذي يتقي الله تعالى فيها ويحسن عشرتها، ويعاملها بالحسنى، ويعينها على أمر الدين والدنيا، ونحن الآن في زمن استحكمت فيه الغربة واختلطت فيه أمور كثيرة في الدين على كثير من الناس نتيجة الجهل بهذا الدين، وقلة العلماء العاملين، والدعاة المصلحين، ومن هذه الأمور: اختيار المرأة لشريك حياتها، مع أن النبي ﷺ قد بيَّن ذلك منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا فقال: **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»**[1].

فدلَّ ذلك على أن الدين هو المعيار الحقيقي الأول في اختيار المرأة لزوجها، وهذا بخلاف ما عليه كثير من النساء اليوم للأسف من النظر إلى: المال والجاه، والشهادة العلمية، والنسب والحسب . . إلى غير ذلك من الأوصاف التي لو كانت

---

(١) رواه الترمذي، وحسنه الألباني في «صحيح الترمذي» (١/ ٣١٤).

مع الدين فلا بأس، لكن أن يبقى الدين مغيبًا عن واقعنا وحركة حياتنا، وواقع المجتمع الذي نعيشه هو الذي يُسير الدفة، فلا رأي إلا رأي المجتمع، ولا واقع صحيح إلا واقع المجتمع، فهذا بالطبع هو المنزلق الخطير نحو الابتعاد عن عظمة هذا الدين الذي أرسل الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ به الرسل ليَحكم لا ليُحكم، لذا كان هذا الكتاب الذي بين يدي القارئ ليوضح الصفات الحقيقية للزوج المسلم الملتزم بدين الله تعالى ظاهرًا، وباطنًا، يرجو رحمة ربه ويخشى عذابه.

وهذه إحدى الداعيات تخاطب كل زوج فتقول له: «أعلى الإسلام من منزلة المرأة واعتبرها أختًا للرجل وشريكة له في حياته، هي منه وهو منها ﴿بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ﴾، وقد أوصى الرسول ﷺ بها: «**استوصوا بالنساء خيرًا**» وقال أيضًا: «**رفقًا بالقوارير**» فيا أخي الزوج: زوجتك التي بين يديك أمانة، رباها أبوان وأوقفا حياتهما وآمالهما لتكون لك زوجة، فهما لا يطمعان منك في غير إكرامها وحسن عشرتها، فهي تركت بيتها وأهلها وأحبابها وجيرانها وجاءت إليك ترغب في الصحبة والسكن والاستقرار، فكن لها الفارس النبيل، وحقق الخيال ولا تخيب الآمال، وافتح لها القلب لتسكن فيه، ودعها ترى الترحاب في عينيك وفي امتداد ذراعيك وفي تمتمة شفتيك، وقل لها أهلاً وسهلاً في القلب قبل البيت.

أخي الزوج ... عاملها باحترام وتقدير كما تعامل الصديق الحميم؛ إذا دنت منك هششت لها، وإذا تحدثت أصغيت إليها، وإذا جلست أوسعت لها، أخبرها بكل مشاعرك الجميلة نحوها، وقل لها ما في قلبك، إنها في تلهف دائم لتسمع منك ذلك. عوِّد زوجتك واعتد معها على الاحترام المتبادل ومراعاة الشعور وإدخال السرور والحرص على تبادل الهدايا الرمزية وعبارات الشكر والإقبال عند الحديث.

أخي الزوج الوفي... لا تحوج زوجتك لأن تشحذ منك الثناء، وأعلن للجميع أنك تحب زوجتك، ولا تخجل من أن تقول إنها أحب الناس إلى قلبك، أعط لزوجتك ما كنت تحرص على بذله مع من تتعامل معهم خارج البيت، تكلف التبسم، فابتسامتك تزيل همومها وتعيد حيويتها، وسلم عليها يكن ذلك بركة عليك وعلى أهل بيتك.

أخي الزوج العاقل... المنزل ليس (لوكاندة) للنوم وتقديم الوجبات فاحرص ـ يا أخي ـ أن تكون لك جلسة مع الزوجة والأولاد يشعرون فيها بودك معهم ويرون حبك بعيونهم أهم من كثير مما توفره لهم، واعلم ـ يا أخي ـ أن ملاعبة ومداعبة الزوجة فعل الأنبياء، وأدعوك كذلك أن تشارك ـ برضا نفس ـ مع زوجتك ولو بقليل من العمل المنزلي، تلطف في تعريف زوجتك بالعادات التي لا تروق لك، وذلك كأن تحكي لها حكاية تفهم منها ذلك أو أن تضحك بحب، وأنت تحدثها عن عاداتها التي قد لا تعلم أنها تؤذيك وتطلب منها أن تهدي إليك ما لا يعجبها من عاداتك.

أخي الزوج الفاضل ... إياك أن تقول ولو مازحًا عندما تضع زوجتك الطعام(الله يرحمك يا أمي) فإن هذه الكلمة وأمثالها تجرح مشاعرها.

أخي الزوج الكريم... اجعل نفقتك على أهلك تتناسب مع دخلك وأطلع زوجتك على أموالك فإن ذلك يريحها ويزيد الثقة عندها، روِّح عن زوجتك بنزهة خارج البيت تسير على الأقدام وجلسة حالمة، كما كنت تفعل في بداية الزواج، وما أجمل أداء زيارة لأهلها أو أهلك، لا تتدخل في كل كبيرة وصغيرة، اترك لزوجتك مجالاً تشعر فيه أن لها دورها وشخصيتها وحريتها ولا تكثر الاعتراض على آرائها ورغباتها وطلباتها.

أخي الزوج الرحيم . . لا تكلف زوجتك ما يشق عليـها ولا تشعرها بأنك مرتفع عليها أو أنها دونك. أخي الزوج . . تغافل وتناوم عن مجريات الأحداث التي تقع حـولك، وترفَّع عن سفـاسف الأمور فإن ذلك من حـسن الخلق وهذا بالطبع في غيـر المعاصي ومغاضب الله. لا تكثـر من معاتبة زوجـتك فإن ذلك يورث البغـضاء؛ لأن المعـاتبة تضطرها إلى التـبرير والكذب للخـروج مما تعاتب عليه ويفـتح باب اللجج والخصـومة، وإن كان لابد من الـعتاب لا تعـاتب أمام الغـير وخـاصـة الأهل والأولاد، كمـا أطلب منك ألا تطلع أحـدًا على عـيب زوجتك وما كان منها فإن ذلك ليس من المروءة.

أخي الزوج العاقل . . . إياك والغيرة فإنها مـفتاح الخلاف وأنصحك بالغيرة المعتـدلة فإن زوجـتك تحبهـا منك، لا تجرح مشـاعرها ولا تخـدش إحساسـها وإياك . . إياك أن تذكر أمام زوجـتك موضوع الزواج بأخرى ولو كـانت مزحًا، وإذا سألتك زوجتك عمن سوف تتزوجـها إن ماتت هي فلا تخبرها، والحذر أن تسمي لها امرأة في هذا الشأن. عندمـا يتقدم بكما السن فاعلم أن المرأة لا تحب أن يقال أنها عجوز فأعطها الإحساس بأنهـا ما زالت في شبابها وأنها تبدو أصغر من عمـرها الحقـيقي. إياك والغـضب ولكن كظم الغيظ والعـفو هو من كـمال الخلق . . وإذا غضبت هي فسارع في إخماد نار غضبها بالكلمة الطيبة.

أخي الزوج . . . زوجتك شديدة الحـساسية في الأمور التـي تتصل بأهلها، وفي نفس الوقت شديدة التأثر والعـرفان لأي جميل يصنع معـهم فاحرص على إكرامهم في بيتك وأشعرهم أن البيت بيتهم وجالسهم ورحِّب بهم وتكلف لهم، واذكر أهلها دائمًا بالخير أمامها ومن ورائها.

أخي الزوج . . من أسباب توطيد الصلة والعلاقات بأهل الزوجة وخاصة والدتها أن تمدح الزوجة أمامهم وتمدح ما يقدم لك من طعام وتخبرهم بأنك تحب هذا الطعام الذي تعلمته زوجتك من أمها وتشكرها على ذلك وأنها كانت السبب في سعادتك.

أخي الزوج . . . الخلافات الزوجية إن وجدت من المفيد جداً أن تظل بينك وبين زوجتك ولا تلجأ إلى أهلها وأهلك، ومن المفيد كذلك أن تثق زوجتك في أن الخلافات لا يعلم بها أهلك أو غيرهم(١).

وهذه زوجة تثني على زوجها فتقول: إنه لي نعم الزوج، بل والأب والأخ والصديق، معه الإحساس بالأمن والأمان، وعدم الخوف من تقلبات الزمان، يعلم من أمور دينه ما يعينني على عبادتي؛ فقد علَّمني كثيراً حتى أصبحت أعبد الله ـ سبحانه وتعالى ـ على علم وليس على جهل كما كنت من قبل، دائمًا يذكرني عند غفلاتي، ويستر عوراتي، ويوجهني دائمًا لفعل الخير، يحرص حرصًا شديداً على أن أتفقه في أمور ديني، وأن أضرب بسهم في كل فروعه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً دون ملل وبأسلوب طيب محببًا لي ذلك، يخشى الله سبحانه ويتقيه، فيضرب المثل في الورع والعدل والسماحة، طيب القلب، عف اللسان، سهل الطباع، لا يغضب إلا لله، منضبط في حياته كلها في مواعيده، وفي سلوكياته وتصرفاته، منظم ومرتب في كل شئون حياته، حريص على نظافته في كل الأوقات، كريم لا يبخل عليَّ بشيء أريده ولا على أولاده، بل يشعر بالسعادة عندما يلبي لنا رغباتنا في غير إسراف ولا مبخلة، أرى فيه العقل

---

(١) «آفاق عربية» العدد (٥٧٢) بتاريخ ٢٩/٨/٢٠٠٢م.

والحكمة والاتزان والوسطية في كل أمور حياته، وكذلك أرى فيه أيضًا المرح والسرور والبهجة، وكذلك أرى الحنان والعطف والتعاون معي لا سيما عندما أشعر بالتعب أو بالإرهاق.

فهل عقلت أخي الزوج ماذا تريد منك زوجتك؟ وماذا تريد أن ترى منك؟ فهيا نقلب سويًا صفحات هذا الكتاب لنتعلم ونعمل والله المستعان.

إلهي..

حاسبت نفسي فلم أجد لي صالحًا ... إلا رجائي رحمة الرحمن
وزنت أعمالي عليَّ فلم أجد في ... الأمر إلا خفةَ الميزان
وظلمت نفسي في أموري كلها ... وويحي إذن من وقفة الديَّان
يا أيها الإخوان إني سائل مهما ... يطول عمري فإني فان
يارب إن لم ترض إلا ذا تقى ... فمن للمسيء المذنب الحيران

أسأل الله أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفع به كل من قرأه، وأن يقرَّ به عيني يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

هذا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه

عصام محمد الشريف

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الصفة الأولى

مستقيم على طاعة الله تعالى، استقامة جادة، يهتم فيها بالمظهر والمخبر، لا كمن يهتم بالمظهر دون المخبر، لا مساومة عنده على طاعة الله، شعاره: لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ثابت على طريق الهداية، ملتزم بمقتضيات هذا الطريق والمداومة على الخير.

وهذه الصفة هي أهم صفة للزوج المسلم على الإطلاق، في وقت أصبح الدين على هامش كثير من المسلمين للأسف، بدليل أن الزوج المتدين ليس هو السلعة الرابحة في كثير من بيوت المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ولقد حض الإسلام نساء المسلمين وأولياءهم على حسن اختيار الزوج، وأن يكون التزامه بالدين، وفهمه الصحيح للإسلام هو الأساس في الاختيار، وذلك لقوله ﷺ : **«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوِّجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»**[(١)].

إن الزوج الصالح هو الرجل الذي يجب على كل فتاة مسلمة تؤمن بالله واليوم الآخر إيمانًا حقيقيًا أن تبحث عنه، ولا تقبل له بديلاً، وذلك للأسباب الآتية:

---

(١) رواه الترمذي (١٠٨٤)، وابن ماجة (١٩٦٧)، والحاكم (١٦٤١٢)، وحسنه الألباني في «صحيح

١ ـ أنهـا ستـتزوج بأكـرم الناس عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، قـال تعـالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ (الحجرات:١٣).

٢ ـ تمنع حدوث فتنة في الأرض، لقوله ﷺ: «**إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض**»(١).

٣ ـ تضـمن عدم الظلم إذا كـرههـا، وتنعم بكرمـه إذا أجلَّها. قـال رجل للحسن بن علي: إنَّ لي بنتًا فمن ترى أن أزوجهـا؟ قال: «زوجها لمن يتقي الله، فإن أحبها أكرمها، وإن كرهها لم يظلمها».

٤ ـ ضمان السعادة الزوجية الغائبة عن بيوت كثيرة؛ فإن الفتاة المسلمة إذا ما تزوجت بأحد الصـالحين، فإن حياتهـا تصفو معه فـي أسرة واحدة، وذلك لأن الصلاح والتقوى طريق إلى السعـادة كما قال تعالى: ﴿ **وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾ (الطلاق:٢، ٣)، فنجـد دائمًا الاحـترام المتبـادل بين الزوجين والمودة والمحـبة بينهـما، النابعـة من تقوى الله ـ عـزَّ وجلَّ ـ والتي إذا غابت عن البـيوت كـانت هذه الأمور كلهـا على شفا جـرف هار، سرعـان ما تعصف بها ريح الاختلاف والشقاق، ولكن في ظل زوجين كل منهما يسعى إلى إرضاء الآخر في ذات الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يبقى البيت المسلم هادئًا مطمئنًا سعيدًا.

وإن من المصائب التي نعيشها الآن أن يستحوذ السؤال عن الزواج عن المكانة والوظيفـة والمال والمنصب والحسب والنسب والإمكانيـات على ذهن الولي وكذا الفتاة، ويتناسى الجميع الدين الذي لا يجب التنازل عنه البتَّة، وليس معنى ذلك أن الاهتمام بالأمور الأخرى مرفوضة مطلقـًا، لكن لا مانع أبدًا من اجتماعها مع الدين، ولكن إذا حدث تعارض فلا يقدم شيء على الدين مهما كان.

الترمذي» (١/ ٣١٤).

---

(١) رواه الترمذي وغيره، وحسنه الألباني لشواهده (إرواء الغليل- ١٨٦٨)

يقول الدكتور وهبة الزحيلي: (والإسلام إذ يقيم الوزن الأرجح للكفاءة في الدين لا يحول ـ إذا أمكن ـ دون ابتغاء ما دونها من كفاءات أخرى، معنوية أم مادية، أما إذا فقدت الكفاءة في الدين، فلا تعوضها أي كفاءة أخرى، في حين أن الدين عِوَضٌ عن كل ما عداه.

عليك بتقوى الله في كل حالة ○■○ ولا تترك التقوى اتكالاً على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ ○■○ وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

ومن ثَمَّ فإنه يجوز للفقير أن يتزوج الغنية، وللمولى أن يتزوج الشريفة القرشية، وللرجل الكبير أن يتزوج الصغيرة الصبية،لكن لا يجوز للفاسق ومفقود العدالة أن يتزوج الصالحة التقية، مهما توفرت له مقومات الكفاءة في الحسب والنسب والجاه والمال، لأنه يؤثر عليها في دينها وخلقها[1].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «والذي يقتضيه الحكم اعتبار الدين في الكفاءة أصلاً وكمالاً، فلا تُزوج عفيفة لفاجر، ولم يعتد القرآن والسنة في الكفاءة أمرًا وراء ذلك»[2].

«فليتق الله أناس هان عليهم دينهم، فلا يبالون بتزويج بناتهم الصالحات ممن هم عن الدين معرضون، وللصلاة مضيعون، وبالمنكر آمرون، وعن المعروف ناهون، إيثارًا لأعراض الدنيا ومتاعها الزائل، وليعلموا أنهم بين يدي ربهم موقوفون، وعن فتنتهم بناتهم مسئولون، ﴿**وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ**﴾ (الشعراء: ٢٢٧)».

---

(١) «الفقه الإسلامي وأدلته» (٧/ ٢٤٧).
(٢) «زاد المعاد» (٥/ ١٥٩).

مستقيم على طاعة الله تعالى، استقامة جادة، يهتم فيها بالمظهر والمخبر، لا كمن يهتم بالمظهر دون المخبر.

إن الاستقامة روح تحيا به الأحوال، وزكاة تربو عليها الأعمال، فلا زكاء للعمل، ولا صحَّة للحال بدونها.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (فصلت: ٣٠)، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأحقاف: ١٣- ١٤)، وقال الله تعالى لرسوله ﷺ: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هود: ١١٢)، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ (فصلت: ٦)، وقال تعالى: ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (الجن: ١٦).

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله رضي الله عنه، قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً، لا أسأل عنه أحدًا غيرك، قال: «**قل: آمنت بالله ثم استقِم**»، وفيه عن ثوبان رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**استقيموا ولن تُحْصُوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**».

والمطلوب من العبد الاستقامة، وهي السَّداد، فإن لم يقدر عليها، فالمقاربة، فإن نزل عنها فالتفريط والإضاعة. كما في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سدِّدوا وقاربوا، واعلموا انه لن ينجو أحد منكم بعمله**»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟! قال: «**ولا انا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل**»، فجمع في هذا الحديث مقامات الدين كلها؛ فأمر بالاستقامة، وهي السداد والإصابة في النيات، والأقوال، والأعمال، وأخبر في حديث ثوبان:

أنهم لا يطيقونها، فنقلهم إلى المقاربة، وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم؛ كذلك يرمي إلى الغرض، فإن لم يُصبه يُقاربه، ومع هذا أخبرهم أن الاستقامة والمقاربة لا تنجي يوم القيامة؛ فلا يركن أحد إلى عمله، ولا يعجب به، ولا يرى أن نجاته به، بل إنما نجاته برحمة الله وعفوه وفضله، فالاستقامة كلمة جامعة، آخذة بمجامع الدين، وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد[1].

نماذج شامخة من أئمة السلف في الاستقامة:

▪ **الربيع بن خيثم:** جاءته ابنته، فقالت: يا أبتاه، أذهب ألعب، قال: اذهبي فقولي خيراً. قال ذلك تنزهًا عن النطق بكلمة اللعب.

وقال بعضهم: صحبت الربيع عشرين عامًا، ما سمعت منه كلمة تُعاب.

▪ **وهب بن منبه:** لبث أربعين سنة لم يَسُب شيئًا فيه الروح، ولبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءاً.

▪ **الإمام عبد الله بن عون عالم البصرة:**

قال خارجة بن مصعب: صحبت ابن عون أربعًا وعشرين سنة، فما أعلم أن الملائكة كتبت عليه خطيئة.

وعن سلام بن أبي مطيع قال: كان ابن عون أملكهم للسانه.

وعن ابن المبارك قال: قيل لابن عون: ألا تتكلم فتؤجر؟ فقال: أما يرضى المتكلم بالكفاف.

---

(١) «صلاح الأمة في علو الهمة» ـ دكتور سيد العفاني (٥/ ٥-٦)، وانظر «تهذيب مدارج السالكين» لعبد المنعم صالح العلي (٢/ ٥٢٧).

■ **وهيب بن الورد المكي:**

قال وهيب ـ رحـمه الله ـ: إن استطعت أن لا يشغلك عن الله تعـالى أحد، فافعل.

وعن عـبد الله بن المبـارك: قـيل لوهيب بن الورد: أيجـد طعم العبـادة من يعصي الله؟ قال: لا، ولا من همَّ بمعصية.

■ **بشر بن الحارث الحافي:**

قال عنه تلميذه إبراهيم الحربي: مـا أخرجت بغداد أتمَّ عقلاً منه، ولا أحفظ للسانه من بشر، ما عرف له غيبة لمسلم.

■ **أبو حفص النيسابوري:**

قال ـ رحمه الله ـ: من لم يَزِن أحـواله كل وقت بالكتاب والسنة، ولم يتهم خواطره، فلا تعُدَّه. وما أعلى استقامته حيث يقول: حرست قلبي عشرين سنة، ثم حرسني عشرين سنة، ثم وردت علي وعليه حالة صرنا محروسين جميعًا.

■ **الإمام ابن دقيق العيد:**

قال ـ رحمه الله ـ: ما تعلمت كلمـة، ولا فعلت فعلاً، إلاَّ أعددت له جوابًا بين يدي الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

■ **شيخ الإسلام ابن تيمية:**

يقول ـ رحمه الله ـ: إني إلى الآن أجدد إسلامي كل وقت.

ويقول أيضًا: أعظم الكرامة لزوم الاستقامة.

حقيقة الاستقامة:

المحافـظة على الطاعات الظاهرات والبـاطنات في جمـيع الأماكـن والأوقات، وترك المخـالفات الظاهـرات والباطنات في جـمـيع الأماكن والأوقـات، وهذه هي

الاستقامة الجادة على دين الله تعالى أن يستقيم الإنسان على شرع الله ـ جلَّ وعلا ـ في كل مكان وفي كل زمان ولا يخرج عن ذلك قيد أنملة ولا مقدار شعرة.

أو هي بمعنى آخر: الوقوف على قاعدة السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ.

وهي باختصار: المثابرة والمواظبة على التقوى، فالتقوى إذن جزء من الاستقامة.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أي أخلَصوا العمل لله وعملوا بطاعة الله تعالى على ما شرع الله لهم[1]، وذلك في تفسيره لمعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة ٦٣).

قوله تعالى لبني إسرائيل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ أي: خذوا ما أعطيناكم بجدٍّ واجتهاد، قاله ابن عباس وقتادة والسدي. وقيل: بنية وإخلاص. وقال مجاهد: القوة في العمل بما فيه. وقيل: القوة، بكثرة درس.

وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ أي: تدبروه واحفظوا أوامره، ولا تنسوه، ولا تضيعوه.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ (الزمر:٥٥)، فأمرنا باتباع كتابه والعمل بمقتضاه، لكن تركنا ذلك، كما تركت اليهود والنصارى، وبقيت أشخاص الكتب والمصاحف لا تفيد شيئًا، لغلبة الجهل وطلب الرياسة واتباع الأهواء[2].

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٠)، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ﴾ أي: بالتوراة، أي:

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٤/٩٨).

(٢) «تفسير القرطبي» (١/٤٠٨) المجلد الأول.

بالعمل بها، وفي ذلك معنى التكرير والتكثير للتمسك بكتاب الله تعالى وبدينه، فبذلك يمدحون، فالتمسك بكتاب الله والدين يحتاج إلى الملازمة والتكرير لفعل ذلك[١].

إن جدية الأخذ من الكتاب والسنة هي لازم من لوازم الوجود الإسلامى، وما دام الالتزام بما أنزل الله ركنًا من أركان العقيدة لا تقوم في الحقيقة بدونه، فقد أصبحت جدية الأخذ من الكتاب والسنة هى المقتضى المباشر للإسلام.

ولقد كان جيل الصحابة نموذجًا فريدًا ومبهرًا للدلالة على ذلك، فلم تكن هناك قراءة لكتاب الله لمجرد التأمل الفكري، ولا للاستمتاع الفني ببلاغة القرآن، ولا لاستخراج نظريات فلسفية أو عقلية ونحو ذلك، إنما كانت هناك جدية للالتزام الفوري بما أنزل الله تعالى.

لذا ورد عنهم: لم يكن أحدنا يستكثر من القرآن، إنما كنا نتعلم عشر آيات لا نزيد عليهن حتى نعمل بما فيهن، فتعلمنا القرآن والعمل جميعًا.

لذا ما كان أحدهم يتقدم بعمل شيء حتى يعلم أن فيه رضًى لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، وأنه بهذا العمل ينال الجنة.

لذلك لا نعجب بعد ذلك ممن كان في ليلة عرسه فسمع الهيعة فقام يطلب الجنة، فلما استشهد غسَّلته الملائكة!

ولا نعجب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين رأى العجوز تُلهِّي أبناءها ليناموا فيذهب بنفسه فيحمل الدقيق على ظهره ويعود، ويصنع للأطفال الطعام بنفسه، ولا ينصرف حتى يعلم أنهم قد شبعوا وناموا!

---

(١) «تفسير القرطبي» (٧/ ٢٨٠) المجلد الرابع.

ولا نعجب من أحدهم يقول: ما نظرت ببصري ولا نطقت بلساني ولا نهضت على قدمي ولا بطشت بيدي حتى أنظر على طاعة الله أم على معصيته، فإن كان على طاعته تقدمت وإن كان على معصيته تأخرت.

جزاء المستقيمين على دين الله تعالى:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ (فصلت: ٣٠-٣٢).

﴿ أَلاَّ تَخَافُوا ﴾أي: مما تقدمون عليه من عمل الآخرة، ﴿ وَلا تَحْزَنُوا ﴾: على ما خلَّفتموه من أمر الدنيا من ولد وأهل ومال ودين فإنا نخلفكم فيه، وقيل أن الملائكة تتنزل عليهم عند الموت، وقيل: عند خروجهم من قبورهم، ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ قال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته وفي قبره وحين يبعث.

﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ﴾ أي: تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار، نحن أولياؤكم أي: قرناؤكم في الحياة الدنيا نسدوكم ونوفقكم بأمر الله، وكذلك نكون معكم في الآخرة نؤنس فيكم الوحشة في القبور، وعند النفخة في الصور، ونؤمنكم يوم البعث والنشور، ونجاوزكم الصراط المستقيم، ونوصلكم إلى جنات النعيم.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ ﴾ أي: الجنة من جميع ما تختارون مما تشتهيه الأنفس وتقرّ به العيون.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي: مهما طلبتم وجدتم، وحضر بين أيديكم.

﴿نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾ أي: ضيافةً وعطاءً وإنعامًا من غفـور لذنوبكم، رحيم بكم رؤوف، حيث غفر وستر ورحم ولطف[1].

مظاهر نقص الاستقامة:

التقـصيـر في الاستـقامة على الديـن وارد لأننا بشر، ولكن من كـان سره كعلانيته، وقالبه كقلبـه، وظاهره كباطنه، ثم مالت نفسه وانحرفت عن الطريق، فهو سرعان ما يؤوب إلى الله تعالى ويستغفر ويصلح، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ**﴾ (فصلت:٦).

قال ابن رجب ـ رحمه الله ـ: «إشارة إلى أنه لابد من تقصـير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة»[2].

وليس معنى ذلك أن نعلق تقصيرنا دائمًا وتفريطنا على شماعة «أننا بشر»، بل نسدد ونـقارب ونتقي الله تعـالى ما اسـتطعنا، لاسيـما إن كان ظـاهرنا أمام الناس قد اتسم بالتدين والاستقامة على الدين.

قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ**﴾ (الصف:٦)، فإن استواء الظاهر والباطن وتناسقهما هو مقصود الاستقامة الحـقيقية على الدين ومظهرها . فدعوة الناس إلـى الخير تقتضي أن يكون المسلم ـ الملتزم بصفـة خاصة ـ سباقًا إلى الخيـر، ومطالبة الناس بتطبيق أحكام الشريعة، يستوجب أن يكون الناهـي ملتزمًا بذلك النهى فلا يُرى حيث نهاه الشرع.

---

(١) انظر «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (٧/ ١٧٧)، بتحقيق سامي السلامة، دار طيبة.

(٢) «جامع العلوم والحكم» (ص٢٤٨).

عن أسامة بن زيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق**[١] **أقتاب بطنه**[٢] **، فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون: يا فلان! ما لك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى، كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه»**[٣] .

فالمصيبة كل المصيبة أن تأمر الناس بالمعروف وتتخلى عنه، وتنهاهم عن المنكر وتقع فيه.

أما المؤمن صادق الإيمان الذي إذا أخطأ أو أذنب لبشريته وضعف نفسه في بعض الأحيان؛ فإنه سرعان ما يؤوب إلى ربه ويخبت إليه نادمًا على فعله تائبًا توبة نصوحًا.

وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ** ﴾ (الأعراف: ٢٠١)، فهذه الآية الكريمة فيها دلالتان:

الأولى ـ أن المتقين إذا انحرفوا عن طريق الاستقامة، يكون هذا الانحراف بسيطًا يسيراً، وليس انغماساً في الذنوب والمعاصي.

الثانية ـ أنهم سرعان ما يعودون إلى الله تعالى إذا تذكروا الله، فتذكروا عقابه على المعصية، وثوابه على الطاعة.

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «يخبر تعالى عن المتقين من عباده الذين أطاعوه فيما أمر، وتركوا ما عنه زجر، أنهم إذا أصابهم مس من الشيطان، أو همٌّ بالذنب

---

(١) تندلق: تخرج.　　(٢) أقتاب بطنه: أمعاؤه.

(٣) متفق عليه.

أو إصابة الذنب، تذكروا عقاب الله وجزيل ثوابه، ووعده ووعيده، فتابوا وأنابوا، واستعاذوا بالله، ورجعوا إليه من قريب، فإذا هم مبصرون قد استقاموا أو صحوا مما كانوا فيه»[١].

فالقضية إذن ليست في الانحراف عن طريق الاستقامة، وإنما فيما يفعل المسلم إذا انحرف أو كان في بداية الانحراف، هل يعود مسرعًا إلى الله تعالى تائبًا نادمًا، أم يواصل السير في طريق الشيطان؟ وحتى تتضح الصورة أكثر وأكثر نبين هنا أهم مظاهر نقص الاستقامة، وهي قسمان:

الأول ـ مظاهر عامة في استقامة المسلم على دينه[٢].

الثاني ـ مظاهر خاصة بالزوج مع أهل بيته، وهي التي تعنينا هنا.

واهم هذه المظاهر هي:

١ ـ عدم الاهتمام بالعلم:

ويتجلى ذلك في عدم وضع منهج علمي تربوي للزوجة والأولاد يتم من خلاله حفظ القرآن أو بعض أجزائه، كذلك حفظ الأوراد والأذكار، وغير ذلك من العلوم الشرعية من تفسير وحديث وغيرهما، كل حسب طاقته واستيعابه.

٢ ـ سوء الأخلاق والمعاملة:

فمن الأزواج من لا يجد سبيلاً إلى الإقناع إلا بالضرب أو الشتم أو الإيذاء ونحو ذلك، فنجد الكثير لا يتدرج من الوعظ إلى الهجر في المضجع إلى

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» ـ النسخة المحققة (٣/ ٥٣٤).

(٢) أنصح بسماع محاضرة مسجلة للشيخ عبد الرحمن الطحان بعنوان «الاستقامة»، وأخرى للشيخ محمد المنجد بعنوان« مظاهر الاستقامة».

الضرب بقيوده الشرعيـة، وإنما حسب هواه فربما بدأ بالضرب أو الشتم بما يُصدع صرح السعادة داخل البيت.

ومن الأزواج من يتعلل بسرعة غـضبه أو ضيق خلقه وطبعه بتـصرفات غير لائقة أو غير شرعية مع أهله عند الخلاف، كمن يضرب الوجه أو يقبح.

٣ - الاهتمام بالمظاهر اهتمامًا فوق المعتاد من ملبس أو مركب أو أثاث ونحو ذلك:

فالبعض ممن وسَّع الله تعالى عليهم في الدنيـا يبدأ في المبالغة في تأثيث بيته مبالغة لا معنى لها إلا حبًا في الدنيا، ثم يظهر ذلك أيضًا في سلوكه وفي حديثه وفي أفكاره بصورة ربما هو لا ينتبه إليها لأنه في الظاهر - بزعمه - ملتزم.

٤ - عدم إنكار المنكر:

من الأمـور الملاحظة عند الكثيـر هو الحمـاس الفائر في بداية الالتـزام، ثم بمرور الوقت سـرعان ما يـفتر هذا الحـماس، وذلك بسـبب عدم تعـاهد النفس بالتزكـية والتربية، ومن ذلـك إنكار المنكر، فنجد حمـاسًا شديدًا في إنكاره في بداية الالتزام، ثم بعد ذلك يصبح الأمر عاديًا أو شـبه عادي، فيجالس هذا ولا ينكر عليه سلوكًا أو مـوقفًا معينًا مثـلاً، ويمشي مع هذا ويضاحكه وهو لا ينكر عليه مثلاً شيئًا آخر.

٥ - انعدام المجاهدة وإيثار الراحة:

فنجد البعض مثلاً في بداية الالتزام حـريصًا على صلاة الفجر في الصفوف الأولى والمداومة على حـضور دروس العلم وغيرها من دروب الخـير، ثم بمرور الوقت أيضًا تضعف الهمة وتفتـر العزيمة، وتقل مجاهدة النفس، وتصبح الراحة هي أقصر الطرق لاتباع الهوى.

٦ . قطع الرحم بمنع الزوجة خاصة من زيارة أهلها لسبب غير شرعي:

ينبغي على الزوج أن يصل رحمه سواء من جـهته أو من جهة الزوجة، ومما يتصل بذلك عدم منع زوجته من زيارة أهلها لاسيما والديها، ما لم يترتب على ذلك ضياع حق مـن حقوق الزوج مثلاً، لذا فـمن الخطأ منع الزوجة من زيارة أهلها لسبب غير شرعي.

٧ . عدم التوفيق بين زحمة العمل وحق أهل البيت عليه:

وهذه الصورة تكاد تكون منتشرة انتشاراً كبيرًا، وذلك لسبب عدم إعطاء كل ذي حق حقه، وعدم الموازنة بين الحقوق.

إن من الأزواج من يطيل المكث خـارج المنزل، فلا يكاد يجد وقـتًا يجلس فيه مـع أهله، حتى وإن لم يكن هناك عمل، وذلك بسـبب مصاحبـة الأصدقاء والجلوس مع زملاء العمل وغير ذلك، أمـا من يشتغل بكسب المال، فهذا يكدح نهاره وزلفًا من الليل فلا يعود الى منزله إلا وهو مكدود الجسم، منهك القوى، قد استنفـذ طاقته، فلم يعد له بعـد ذلك أي استعداد لمحادثة أو مـؤانسة؛ يخطأ خطأ عظيمًا في تجاهله لأهله وأولاده، وهم أولى الناس بالحقوق عليه.

٨ . عدم العدل إن كان معددًا:

بعض الأزواج يقبل على التعدد بلا نية شرعـية، وإنما اتباعًا لهوى أو قضاءً لشهوة، أو تحـقيقًا لرغبة خـاصة عنده لسبب أو لآخر، فيـترتب على ذلك عدم العدل بين الزوجتـين، وهذا منزلق خطير يدفع الزوج ثمنه غاليًا في الدنـيا بكثرة المشاكل، وفي الآخرة عندما يأتي يوم القيامة وأحَدُ شقيه مائل.

٩ ـ الترخص والتساهل:

فبعض الأزواج ـ الملتزمين ـ بدأ في شراء جهاز التلفاز لمشاهدة المباريات والبرامج الدينية والعلمية والإخبارية ـ بزعمه ـ رغم أنه كان يرفض ذلك في بداية التزامه، ولكن بمرور الوقت وضعف الوازع الديني عنده بدأ يتساهل، ويلتقط الرخص من هنا وهناك.

أذكر أحدهم الذي استعار جهاز التلفاز من أخيه، وآخر اشتراه بالفعل لكي يشاهد الأولاد مباريات كأس العالم، بدلاً من الذهاب إلى الجيران، وما أدراك ماذا حدث بعد ذلك؟!!.

وبعض الأزواج بسبب قلة العلم الشرعي عنده، بدأ يرى اختلاف العلماء في مسائل كان يلتزم بها التزامًا جادًا، وكان هذا سببًا عنده لتلقُّط الرخص والتساهل لاسيما وأن حركة الحياة الآن بفتنها وخيلائها بدأت تأخذ منحنى، يودي بأحبائها إلى التهلكة إن لم يثبته الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

أعرف أحدهم حلق لحيته، وخلعت زوجته النقاب، وانسحب من طريق الالتزام تمامًا وسلك طريق الحياة العادية تمامًا، وذلك لأنه عاش فترة وجد فيها تراشق بعض الدعاة، واختلاف بعض العلماء، فلم يصبر على ما رآه من فتنة وارتد على أدباره، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

كذلك البعض يريد أن يأخذ أهله وأولاده في الصيف إلى أي مكان لقضاء بعض الأوقات، فيذهب إلى النوادي والشواطئ، ويحاول في البداية أن يتحرَّى الأوقات غير المزدحمة بالناس، ثم نجده بعد ذلك يخالطهم ويجالسهم بدعوى أهمية الترفيه عن النفس، وتلبية رغبات الأهل والأولاد، ثم يقع في النهاية في المحظور، ثم نجده في النهاية يحاول التأول والتذرع بأي سببٍ واهٍ.

إن مثل هؤلاء كلت نفوسهم، وفترت هممهم، واكتفوا ببعض المظاهر، فأين الثبات على الدين . . إننا نعني بالثبات: الاستمرار في طريق الهداية، والالتزام بمقتضيات هذا الطريق، والمداومة على الخير، والسعي الدائم للاستزادة، مهما فتر المرء، فهنالك مستوى معين لا يقبل التنازل عنه أو التقصير فيه، وإن زلت قدمه فلا يلبث أن يتوب، وربما كان بعد التوبة خيراً مما كان قبلها، ذلك هو المتصف بخلق الثبات.

ولأن مسألة الثبات على الدين قضية تشغل فكر المسلم فإنه يكثر من الدعاء بها، فقد كان رسول الله ﷺ يكثر من قول: **«يا مقلِّب القلوب ثبت قلبي على دينك»**[1]، والثبات مظهر بارز للاستقامة، لأن المذبذب المتقلب لا يقدر على الثبات، ولا يقوى على الاستقامة[2].

وفي الختام تنبيه هام:

هل المستقيم على طاعة الله تعالى لا يغفل ولا يعصي؟

إن المسلم الملتزم لا يعدو كونه بشراً يخطئ ويصيب، ولكنه إن أخطأ أسرع إلى الله تعالى فتاب وندم على ما فعل، ولا يصر على ارتكاب المعصية، ولا تكون هذه المعصية في دائرة الكبائر، بل من الصغائر.

لذلك قال الله تعالى عن المتقين: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ (الأعراف: ٢٠١)، أي إن الذين اتصفوا بتقوى الله تعالى إذا مسهم لمة أو وسوسة من الشيطان ـ تذكروا ما أمر الله تعالى به ونهى

---

(١) رواه البخاري.

(٢) «هذه أخلاقنا» محمود الخزندار ـ (ص٣٠٩) بتصرف.

عنه، وتذكروا الالتجاء إليه ـ سبحانه وتعالى ـ، فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ومناهج الرشد، فيحترزون عما يخالف أمر الله تعالى ويتنحَّون عما لا يرضيه ـ سبحانه وتعالى ـ[1].

وكما قال تعالى أيضًا: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾(فصلت:٦)، فقوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ إشارة إلى أنه لابد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك الاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة، فهو كقوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: «اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»[2].

---

(١) «روح المعاني»، للألوسي (٦/ ٢١٥) بتصرف.

(٢) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب الحنبلي (ص٢٤٨).

الصفة الثانية

حسن الخلق،

هين لين قريب

سهل، حديثه عذب،

كلامه حلو، لا يعرف السب ولا الشتم ولا الألفاظ النابية ولا الوجه المكفهر.

إن المهمة العظمى التي بعث الله عبده ورسوله محمداً ﷺ من أجلها هي: **توحيد الله تبارك وتعالى، وتتميم مكارم الأخلاق.**

وتوحيد الله وإفراده بالعبادة، وما يترتب على هذا التوحيد يمثل العقيدة الصالحة التي لا تقوم الحياة الإنسانية على الوجه الأفضل إلا بها.

ومكارم الأخلاق تمثل الطريقة المثلى في السلوك والمعاملة الكريمة التي بها يحيا الناس سعداء طيبين.

ولو نظرنا إلى العبادات كلها لوجدنا أنها تسهم في تزكية الخُلُق، وترتفع بمن يؤديها على وجهها إلى أسمى مستوى(١).

والخلق الحسن صفة سيد المرسلين، وأفضل أعمال الصِّدِّيقين، وهو على التحقيق شطر الدين، وغرة مجاهدة المتقين، ورياضة المتعبدين.

والأخلاق السيئة هي السموم القاتلة، والمهلكات الدافعة، والمخازي الفاضحة والرذائل الواضحة، والخبائث المبعدة عن جوار رب العالمين، المنخرطة بصاحبها في سلك الشياطين، وهي الأبواب المفتوحة إلى نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة.

---

(١) «نظرات في الأسرة المسلمة»، للدكتور محمد الصباغ (ص٧٤).

كما أن الأخـلاق الجميلة هي الأبواب المفتوحـة من القلب إلى نعيم الجنان، وجوار الرحمن.

والأخلاق الخـبيثة أمـراض القلوب، وأسقام النفوس، إلا أنه مـرض يفوِّت حيـاة الأبد، وأين منه المرض الذي لا يفوِّت إلا حيـاة الجسد! و مـهما اشـتدَّت عناية الأطباء بضـبط قوانين العلاج للأبدان، وليس في مـرضها إلا فوْت الحـياة الفانية، فالعناية بضبط قوانين العلاج لأمـراض القلوب ـ وفي مرضها فوْت حياة باقية ـ أولى، وهذا النوع من الطب واجب تعلمه على كل ذي لُبٍّ، إذ لا يخلو قلب من القلوب من أسـقام، لو أهملت تراكـمت، وترادفت العلل وتظاهرت، فيحتـاج العبد إلى تأنق في معرفة علمـها وأسبابها، ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحهـا، فمعالجتهـا هو المراد بقوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ (الشمس:٩)، وإهمالها هو المراد بقوله: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (الشمس:١٠)[1].

ولقد أعلى الإسـلام من شأن حـسن الخلق، وكان ﷺ نهايـة العالم في حسن الخلق، ولذا قال الله تعالى في حقه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم:٤).

▪ قال الشـيخُ سيِّـد قطب ـ رحمـه الله ـ في قوله تعـالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾: **إن لهذه اللَّفـتةِ دلالتَهـا على تمجيـد العنصر الأخلاقي في مـيزان الله، وأصالة هذا العنصر في الحقيقة الإسـلامية. والناظر في هذه العقيدة كالناظر في سيـرة رسولها ﷺ، يجـد العنصر الأخلاقـي بارزًا أصيلاً فـيها، تقـوم عليه أصولها التشريعية وأصولها التهذيبيَّة على السَّوَاء؛ الدعوة الكبرى في هذه العقيدة إلى الطهارة والنظافة، والأمانة والصدق، والعدل والرحمة، والبرِّ وحفْظ العهد، ومطابقـة القول للفعل، ومـطابقتهـما مـعًا للنيـة والضـمير، والنـهي عن الجور**

(١) «الإحيـاء» (٣/ ٥٣).

والظلم، والخداع والغشِّ، وأكل أموال الناس بالباطل والاعتداء على الحرمات والأعراض، وإشاعةِ الفاحشة بأيِّة صورة من الصور، والتشريعاتُ في هذه العقيدة لحماية هذه الأسس وصيانة العنصر الأخلاقي؛ في الشعور والسلوك، وفي أعماق الضمير، وفي واقع المجتمع، وفي العلاقات الفردية والجماعية والدولية على السواء.

والرسول الكريم ﷺ يقول: «**إنما بُعثتُ لأتمِّم مكارم الأخلاق**» فيلخِّص رسالته في هذا الهدَف النبيل، وتتوارد أحاديثه تترى في الحضِّ على كلِّ خلُقٍ كريم، وتقوم سيرته الشخصية مثالاً حيًا وصفحة نقية، وصورة رفيعة تستحقُّ من الله أن يقول عنها في كتابه الخالد: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ فيمجِّد بهذا الثناء نبيَّه ﷺ كما يمجِّد به العنصر الأخلاقي في منهجه، الذي جاء به هذا النبي الكريم ﷺ، ويشدُّ به الأرض إلى السماء، ويعلِّق به قلوب الراغبين إليه سبحانه، وهو يدلُّهم على ما يحب ويرضى من الخلُق القويم.

وهذا الاعتبار هو الاعتبار الفذ في أخلاقية الإسلام، فهي أخلاقية لم تنبع من البيئة، ولا من اعتبارات أرضية إطلاقًا، وهي لا تُستمد ولا تعتمد على اعتبار من اعتبارات العُرف أو المصلحة أو الارتباطات التي كانت قائمة في الجيل، إنما تُستمد من السماء وتعتمد على السماء.. تستمد من هُتاف السماء للأرض لكي تتطلَّع إلى الأفق، وتستمد من صفات الله المطلقة ليحققها البشر في حدود الطاقة، كي يحققوا إنسانيتهم العليا، وكي يصبحوا أهلاً لتكريم الله لهم واستخلافهم في الأرض، وكي يتأهلوا للحياة الرفيعة الأخرى في مقعد صِدق عند مليكٍ مُقتدر، ومن ثمَّ فهي غير مقيدة، ولا محدودة بحدود من اعتبارات قائمة في الأرض، إنما هي طليقة ترتفع إلى أقصى ما يُطيقه البشر؛ لأنها تتطلَّع

إلى تحقيق وظهور آثار صفات الله الطليقة من كل حد ومن كل قيد. ثم إنها ليست فضائل مفردة؛ صدق وأمانة وعدل ورحمة وبر، إنما هي منهج متكامل تتعاون فيه التربية التهذيبيَّة مع الشرائع التنظيميَّة، وتقوم على فكرة الحياة كلها واتجاهاتها جميعًا، وتنتهي في خاتمة المطاف إلى الله، لا إلى أي اعتبار آخر من اعتبارات هذه الحياة.

ولقد تمثلت هذه الأخلاقيات الإسلامية ـ بكمالها وجمالها، وتوازنها واستقامتها، واطرادها وثباتها ـ في محمد ﷺ، وتمثلت في ثناء الله العظيم، وقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[(١)].

ولقد جعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تتميم مكارم الأخلاق كما ذكرنا أحد المقاصد الرئيسية لبعثة النبي ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»**، وفي رواية: **«مكارم الأخلاق»**[(٢)].

▪ وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«اتق الله حيثما كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»**[(٣)].

▪ وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أراد سفرًا، فقال: يا رسول الله، أوصني، فكان من وصيته ﷺ: **«استقم، وليحسن خُلقك للناس»**[(٤)].

(١) في «ظلال القرآن» (٦/ ٣٦٥٧، ٣٦٥٨).
(٢) رواه البخاري في «الأدب المفرد»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(٢٣٤٥)، «الصحيحة» برقم(٤٥).
(٣) رواه الترمذي وحسنه، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(٩٦).
(٤) أخرجه ابن حبان، والحاكم، وحسنه الألباني في «الصحيحة» برقم(١٢٢٨)، و«صحيح الجامع» برقم(٩٦٢).

▪ عن أسامة بن شريك رضي الله عنه مرفوعًا: **«أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا»**[(١)].

▪ وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: **«إن أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوؤكم أخلاقًا، الثرثارون، المتفيقهون، المتشدقون»**[(٢)].

▪ وعن أبي الدرداء رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق يبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة»**[(٣)].

▪ وعن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»**[(٤)].

▪ وروى ابن حبان ـ رحمه الله ـ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال ﷺ: **«أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن»**[(٥)].

▪ وعن ابن عمر رضي الله عنه قال ﷺ: **«أفضل المؤمنين أحسنهم خلقًا»**[(٦)].

▪ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: **«إن أقربكم مني نزلاً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا في الدنيا»**[(٧)].

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم(٤٣٣)، و«صحيح الجامع» برقم(١٧٧).
(٢) أخرجه الترمذي رقم(٢٠١٩)، «الصحيحة» (٧٩١).
(٣) أخرجه الترمذي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(٥٦٠٢).
(٤) أخرجه الترمذي، وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم(٢٨٤).
(٥) صححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(١٥٦٩).
(٦) رواه ابن ماجه، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(١١٣٩).
(٧) رواه ابن عساكر، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(١٥٦٩).

■ وعن عائشة رضي الله عنها قال ﷺ: **«إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار»**(١).

■ وعن أبي عنبسة رضي الله عنه قال ﷺ: **«إن لله تعالى آنية من أهل الأرض، وآنية ربكم قلوب عباده الصالحين، وأحبها إليه ألينها وأرقها»**(٢).

■ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: **«من كان سهلاً هينًا لينًا، حرَّمه الله على النار»**(٣).

هذا هو فضل حسن الخلق ومكانته في الإسلام حتى يكون دافعًا لكل مسلم، ولكل زوج بصفة خاصة أن يتعامل مع زوجته به.

وإذا حسن خلق الزوج مع زوجته رفرفت السعادة الزوجية داخل أرجاء البيت المسلم كله، وكان حديث الزوج عذبًا، وكلامه طيبًا، لا يعرف السوء للسانه سبيلاً.

■ احرص - يا أخي - على أن تكون الكلمة الحلوة في لسانك والابتسامة الجميلة على ثغرك دائمًا، لا تتركها مهما كانت الظروف، فإن كثيرًا من الناس يَحْيَوْن حياة سعيدة بهذه الكلمة الطيبة، وتلك الابتسامة الرقيقة.

واعلم - يا أخي - أن الكلمة القاسية النابية، والعبوس المكفهر لا يغير ما تكره، ولإن حسب بعض الناس لكلمتك وعبوسك حسابًا في يوم من الأيام، إنهم لن يحسبوا لها مثل ذلك في الأيام المقبلة إذا تكرر ذلك منك.

---

(١) رواه أحمد، والحاكم في «المستدرك»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(١٦١٧).
(٢) رواه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(٢١٥٩).
(٣) رواه الحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم(٦٣٦٠).

إن الكلمة الطيبة صدقة، وإن الابتسامة لون من المعروف كما قال ذلك سيدنا رسول الله ﷺ: **«والكلمة الطيبة صدقة، ولا تحقر من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق»**[١].

ومَنْ أحق من الزوجة بهذه الصدقة وذاك المعروف؟

نعم: ما أجدرنا أن نعوِّد ألسنتنا على الكلام الطيب في أول حياتنا الزوجية ومما يتصل بالكلمة الطيبة طريقة إلقائها، فقد تزيد هذه الطريقة ـ إن كانت حلوة عذبة ـ من تأثيرها، وما أجدرنا أن نعوِّد عبرات وجوهنا الابتسامة التي تبسط أكثر المسائل تركيبًا وتعقيدًا، وتمنحنا قوة في التغلب على المصاعب، وقد أعجبني كلام سمعته من أستاذ من أساتذتي قاله لشاب يعظه، ولم أنسه أبدًا. قال له: إذا أردت أن تعرف ما يفعله العبوس فانظر إلى وجهك في المرآة عندما تكون غضبان عابسًا . . انظر وجهك كم هو منفِّر وقبيح!

وانظر . . كم يجلب مثل هذا الوجه على صاحبه من السخط والأذى[٢].

(فصل) أمور تُعين على حسن الخلق مع الزوجة:

١ ـ معرفة فضل حسن الخلق ومكانته في الإسلام، وقد مرَّ ذلك.

٢ ـ تقوى الله سبحانه وتعالى:

فالزوجة أمانة ووديعة يسلمها وليُّها لمن يحافظ عليها ويتقي الله فيها، ويحسن صحبتها، فعن حجر بن قيس قال: خطب علي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها، فقال: **«هي لك على أن تحسن صحبتها»**[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم(٢٨٤).

(٢) «نظرات في الأسرة المسلمة» (ص٩٠).

(٣) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم(١٦٦).

٣ـ تذكر الموت:

فإنه قد يأتي بغتة، ويحاسب المرء على ما قدمت يداه، وأهله بصفة خاصة حيث كانوا من رعيته التي سيُسأل عنها يوم القيامة، قال الحسن: «**ابدأ أهلك بمكارم الأخلاق، فإن الثواء فيهم قليل**»(١)، فتذكُّر فراق الأهل وهم أحب الناس إلى القلب يحملك ذلك على حسن معاشرتهم، والصبر عليهم، وكف الأذى عنهم.

لقد تأثر المسلمون الأوئل بهذه التوجيهات الإلهية، والإرشادات النبوية إلى حسن الخلق مع أهليتهم، وانفعلوا بها أصدق الانفعال، فحفل تاريخهم بمواقف مشرفة يضرب بها المثل، في الفتوة والصبر والتجمل مع وجود داعي النفرة، وهاك بعض حديثهم في ذلك:

قال أحمد بن عنبر: لما ماتت أم صالح بن أحمد بن حنبل قال أحمد لامرأة تكون عندهم: «اذهبي إلى فلانة بنت عمها، فاخطبيها لي من نفسها، فأجابته»، فلما رجعت إليه قال: «أختها كانت تسمع كلامك؟»، قال: وكانت بعين واحدة، فقالت له: «نعم»، قال: «فاذهبي فاخطبي التي بفرد عين»، فأتتها، فأجابته، وهي أم عبد الله ابنه، فأقام معها سبعًا، ثم قالت له: «كيف رأيت يا ابن عمي؟ أنكرت شيئًا؟» قال: «لا، إلا نعلك هذه تَصِرُّ».

وقال خطاب بن بشر: قالت امرأة أحمد بن حنبل لأحمد، بعد ما دخلت عليه بأيام: «هل تنكر مني شيئًا؟»، فقال: «لا، إلا هذا النعل الذي تلبسينه، لم يكن على عهد رسول الله ﷺ»، قال: فباعته واشترت مقطوعًا فكانت تلبسه، وهي ريحانة بنت عمر عَمِّ الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ(٢).

---

(١) الثواء: الإقامة.

(٢) «طبقات الحنابلة» (١/ ٤٢٩).

(قيل: تزوج رجل بامرأة، فلما دخلت عليه رأى بها الجدرى، فقال: «اشتكيت عيني»، ثم قال: «عميت»، فبعد عشرين سنة ماتت، ولم تعلم أنه بصير، فقيل له في ذلك، فقال: «كرهت أن يحزنها رؤيتي لما بها»، فقيل له: «سبقت الفتيان»)[1].

(وعن محمد بن نعيم الضبي قال: سمعت أمي تقول: سمعت مريم امرأة أبي عثمان تقول: صادفت من أبي عثمان خلوة فاغتنمتها، فقلت: «يا أبا عثمان أي عملك أرجى عندك» فقال: يا مريم لما ترعرعت وأنا بالري، وكانوا يريدونني على الزواج فأمتنع، جاءتني امرأة فقالت: «يا أبا عثمان قد أحببتك حبًا أذهب نومي وقراري، وأنا أسألك بمقلب القلوب وأتوسل إليك أن تتزوج بي»!

فقلت: «ألكِ والد؟ قالت: «نعم، فلان الخياط في موضع كذا وكذا»، فراسلتُ أباها أن يزوجها مني، ففرح بذلك، وأحضرت الشهود فتزوجت بها، فلما دخلت وجدتها عوراء عرجاء مشوهة الخلق، فقلت: «اللهم لك الحمد على ما قدَّرته لي!».

وكان أهل بيتي يلومونني على ذلك فأزيدها بِراً وإكرامًا، إلى أن صارت بحيث لا تدعني أخرج من عندها فتركت حضور المجالس إيثاراً لرضاها، وحفظًا لقلبها، ثم بقيت معها على هذه الحال خمس عشرة سنة، وكأني في

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣٤٢)، وقريب من هذه الصورة من الفتوة ما حكاه الحافظ ابن القيم ـ رحمه الله ـ عن أبي عليّ الدقاق قال:

«(جاءت امرأة، فسألت حاتمًا عن مسألة، فاتفق أنه خرج منه صوت في تلك الحالة، فخجلت، فقال حاتم: «ارفعي صوتك» فأوهمها أنه أصم، فَسُرَّت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فلقب بحاتم الأصم) وهذا التغافل هو نصف الفتوة» اهـ. من «مدارج السالكين» (٢/ ٣٤٤).

بعض أوقاتي على الجمر، وأنا لا أبدي لها شيئًا من ذلك إلى أن ماتت! فما شيء أرجى عندي من حفظي عليها ما كان في قلبها من جهتي[1] اهـ.

فسبحان الله.. على هذا الجيل الشامخ الذي نفتضح أمامه ونحن نظن أننا نحسن صنعًا! فكل واحد ممن سبق ذكرهم تحمل بنفسٍ راضية وحسن خلق زوجته حتى لا يجرحها أو يؤلمها أو يهينها! ومن الرجال اليوم من يعيب على زوجته ويقبحها ويذكر لها عيوبها الخَلْقية، وهو الذي رآها أكثر من مرة قبل زواجهما. ولكن للأسف بعد أن أنجبت له الأولاد وكثر لحمها أصبحت عنده كمتاع البيت ألا فليتق الله تعالى الرجال!.

قيل للأحنف بن قيس: من أين تعلمت الحلم؟ فقال: من قيس بن عاصم. قيل: وما بلغ حلمه؟ قال: بينما هو جالس في داره، إذ أتته جاريته تفور عليه شواء، فسقط من يدها، فوقع على ابن له صغير فمات، فدهشت جاريته، فقال لها: لا روع عليك، أنت حرة لوجه الله.

فسبحان الله! إذا كان هذا هو الخلق مع جاريته، فأين أخلاقنا مع زوجاتنا؟ لو كسر كوب زجاجي في البيت مثلاً، لاجتمع الحكم من العائلتين لفض الاشتباك!!.

(فصل) أين كلام الحب والإطراء؟

شكت لي إحدى الأخوات زوجها الطيب الهادئ المستقيم الكريم، ولكنه للأسف يفتقد إلى كلمة الحب إليها مع نظرة حانية، وإلى كلمة الإطراء والثناء يرسلها إليها مع حنان دافئ.

---

(١) «المنتظم» (٦/ ١٠٧).

كانت تتزين له وتتصنع له كل شيء في الملبس والطِّيب والطعام وغير ذلك، إلا أنه يدخل البيت فيأكل ويشرب ثم يدخل لينام كعادته، لا تسمع منه كلمة ثناء على حسن هندامها، أو حلاوة طبخها، أو جمال شعرها، أو رائحتها الذكية، مما أتعبها نفسيًا وآلمها ألمًا شديدًا مع ما به من صفات حميدة تتمناها كل امرأة في زوجها.

الكلمة الطيبة غذاء للروح.. وشفاء لأمراض النفس. والكلمة الحلوة لها فعل السحر.. ولها تأثير قد يغير حياة إنسان أو أمة!! من أجل ذلك كان قرن القول الحسن مع هذه الأمور الأساسية في العقيدة والعبادة والسلوك.. فتوحيد الله وإقامة الصلاة وبرّ الوالدين من أهم ما دعت الشريعة إلى تحقيقه وإقامته، وها نحن أولاء نجد في الآية قرنًا للقول الحسن بهذه الأمور. ونود أن نعيش لحظات في ظلال قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة:٨٣)، نطل من خلالها على حياتنا الاجتماعية والأسرية (العائلية).

كم نضيع علينا في حياتنا (العائلية) والاجتماعية فرص سعادة وغنى وأنس كنا على مقربة منها لو قلنا كلمة حلوة.. ولكنَّا أضعناها عندما لم نلق بالكلمة الطيبة.

إن كلمة واحدة تستطيع أن تفعل شيئًا كبيرًا.. فبسبب كلمة قامت حروب، وبسبب كلمة تآلفت قلوب.

إن الكلمة الطيبة أساس متين تبنى عليه علاقات الحب والمودة والرحمة والانتاج والتربية. إن الكلمة الطيبة تهيىء المناخ المناسب لنمو هذه العلاقات ولتثمر الثمرة المرجوة سعادة وفرحًا وابتهاجًا وانطلاقًا وتحقيقًا لكثير من معاني الخير.

إننا نستطيع بالكلمة الطيبة أن نأسوا جراح المصابين، وأن نخفف كثيرًا من آلام البائسين، فإن كانوا أقارب كان عملنا عائدا علينا بالنفع القريب في الدنيا،

إذ يحول جو البيت إلى جو تعشش فـي أركانه وزواياه أسباب السعادة والهناء، ولَثَواب الآخرة أعظم.

إننا لا نستطيع أن نحـقق آمال الناس وأمنياتهم، ولا أن نستـجيب إلى كل مطالبـهم ورغباتـهم، ولكننا قادرون على أن نوجـه إليهم الكلمـة الحلوة التى ترضيهم وتملأ نفوسهم بالأمل والرضى.

وفى نطاق الأسرة قـد يهمل الزوجان هذه الناحيـة إهمالاً شنيعًا، بـحجة زوال الكلفة بين الزوجين وقيام الانسجام الكامل بينهما.

كـلا.. إن الزوجين من أشد الناس حـاجة إلى سـماع كل واحـد منهمـا الكلمة الطيـبة من صاحـبه، إن كلمة عـذبة تقولهـا - يا عزيزي الزوج - وأنت مبتسم مشرق الوجه، تدفع عنك متاعب جمة في حياتك الزوجية.

وإن كلمة حلوة تقولينهـا - يا عزيزتي الزوجة - تحقق لك سعـادة زوجية، وحياة كريمة وادعة هانئة، إن الكلمة الطيبة أهم عند الزوج من الرغيف السخن اللذيذ، والطعام الشهي الطيب.

وإن الكلمـة الطيبـة أغلى عند الزوجـة في كثـيـر من الأحيـان من الحلي الثمين، والثوب الفـاخر الجديد، وذلك لأن العاطفـة المحببة التي تبثـها الكلمة الطيبة غـذاء الروح، فكما أنه لا حياة لبدن بلا طعـام، فكذلك لا حياة لروح بلا كلام حلو لطيف.

لماذا نهمل الكلمة الطيبة في نطاق الأسـرة وهي لا تكلفنا شيئًا؟ إن السعادة كلها ربما كـانت كامنة في كلمة فـيها مجـاملة ومؤانسـة يقولهـا أحد الزوجين لصاحبه أو الوالد لابنه.

أجل.. إن علينا أن تكون ألسنتنا رطبة بذكر الله وبالكلام المعسول الجميل لاسيما عندما نخاطب أزواجنا.. إن المرأة الشرقية عاطفية إلى أبعد الحدود.

إن الخطأ الذي يقوم في حياتنا الزوجية مبني على فهم خاطئ لفكرة رفع الكلفة.. حتى إن كثيراً من الناس في الأغلاط المدمرة لحياته الأسرية بحجة رفع الكلفة. يقول أحدهم: إن زوجتي ولدت ولدين أو ثلاثة أو أربعة.. فلم نعد عروسين نحتاج إلى الملاطفة والمجاملة أو الكلمة المأنوسة.. قد مضى وقت ذلك. إن هذا خطأ فادح يجر ذيول التعاسة والشقاء على عش الزوجية، وقد يدمر بناء الأسرة ويقضي على نفسية الأولاد.

لماذا لا تكون الملاطفة مع من نعايش؟ لماذا لا تكون الكلمة الطيبة مع الأزواج والأولاد؟ ألسنا بشراً سواء أكنا عرساناً أم تقدمت بنا الأيام والسنون، وسواء أنجبنا أو لم ننجب؟ ولو أننا نظرنا إلى حياة رسول الله ﷺ مع أزواجه لرأينا أنها مثال الملاطفة والمؤانسة. فلقد كان يؤانسهن ويمازحهن ويعمر نفوسهن بالكلمة الحلوة، والنظرة الحانية، والتصرف الودود، ويحتمل منهن أخطاءهن.

ويحسب فريق من الناس أن انتظام الحياة الزوجية هي أن الفرد منا يأكل ويشرب، ويغدو إلى عمله ويروح، وينجب أطفالاً، ويزور الناس ويزورونه، وأن يسمع الإذاعة ويقرأ الصحف ويشاهد التلفزيون، وإن كان من رجال الفكر أن يكتب ويقرأ. ثم لا شيء بعد ذلك.. إنه ينسى تماماً الجانب العاطفي من حياته الزوجية. وربما قال: وهل ينقص زوجتي شيء؟ ماذا تريد بعد البيت الواسع، والخدم والسيارة وأدوات الرفاهية المنزلية؟ ألا تأكل وتشرب وتنجب؟ ألا تشتري الثياب التي تحلو لها؟ ألا تركب السيارة تتنزه وتروح وتجيء، وتزور

وتزار؟ ثم ماذا بعد هذا؟ كلا.. مرة أخرى.. هناك العاطفة العذبة المتجددة التي تحتاج إليها المرأة والرجل أيضًا.. إنها تحتاج هاتيك العاطفة ولو حُرِمت كثيراً مما ذكرت.

إن هناك زوجات ينغمسن في السعادة ولم يتح لهنّ إلا قليل من وسائل الرفاهية في العيش.

إن تجاهل حاجة الزوجة إلى العاطفة العذبة التي تفيض بها الكلمة الطيبة، يجعلها تحمل بين جوانبها حجراً مكان القلب... مما يعكر على الزوج حياته.. لأننا نعيش بالمعاني لا بالأجساد فقط، وليس في الحجارة من المعاني شيء.

إن رتبة كتف حانية من الزوج مع ابتسامة مشرقة مقرونة بكلمة طيبة تذيب تعب الزوجة، وتنعش فؤادها المشرئب للعطف والحنان. فهل لك - يا أخي - أن تنتبه إلى نفسك وتتأسى بسيدنا رسول الله ﷺ الذي يقول الله - تبارك وتعالى - فيه: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

اشكر زوجتك على صحن الطعام اللذيذ الذي قد أعدته لك بيديها.. اشكر بابتسامة ونظرة عطف وحنان.. أثنِ عليها وتحدث عن محاسنها وجمالها، والنساء يعجبهن الثناء ويؤثر فيهن.. وإذا كان الكذب محظوراً فقد أباح لك الإسلام طرفًا منه في علاقتنا الزوجية عندما يكون ذلك سببًا لتعمق المودة وتحقيق التفاهم.

اذكر لها - يا أخي - امتنانك لرعايتها وخدماتها لك ولبيتك وأولادك، وإن كان هذا من اختصاصاتها، وإن كانت لا تقدم إلا ما تقدمه النساء عادة.. لكنّ ذلك من قبيل الكلمة الطيبة التي تؤكد أسباب المودة والرحمة.. قل لها الكلمة الطيبة ولو نقصتها شيئًا من الطعام والمال والكساء.. إنها حينئذ ستسعد وستحس

بدفء الحنان والعطف والمودة في أعماق قلبها.. وإذا أصبح قلبها مترعًا بهذه المعاني دفع دماءها حارة مغردة في عروقها.. وستندفع في خدمتك وتعيش معك العمر آمنة مطمئنة، وسوف ترى أنت بريقًا يتراقص في عينيها، وابتسامة على شفتيها، وسينطلق لسانها بالحديث عنك وإليك بالكلمة الطيبة(١).

يا أيها الزوج الحبيب .. قال تعالى: ﴿ **وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا** ﴾ (البقرة: ٨٣)، وقال تعالى: ﴿ **وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ** ﴾ (الإسراء: ٥٣)، وقال تعالى لموسى وهارون عندما أمرهما بالذهاب إلى دعوة فرعون ﴿ **فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا** ﴾ (طه: ٤٤)، قال القرطبي: فالقائل ليس بأفضل من موسى وهارون، والفاجر ليس بأخبث من فرعون وقد أمرهما الله تعالى باللين معه(٢).

وعن أنس قال: قال رجل للنبي ﷺ: علِّمني عملاً يدخلني الجنة، قال ﷺ: **«أطعم الطعام، وأفشِ السلام، وأطب الكلام، وصلِّ بالليل والناس نيام»**(٣)، وعن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: **«إن في الجنة غرفًا يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها»**، فقال أبو مالك الأشعري: لمن هي يا رسول الله؟ قال رسول الله ﷺ: **«لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائمًا والناس نيام»**(٤).

فلين الجانب، ورقة المعاملة، وخفض الجناح، وبساطة العلاقة بينك وبين زوجتك، أساس لاجتماع قلبيكما، وليس هناك وسيلة تحقق ذلك أهم من الكلمة الطيبة، فهي ترضي الله وتدخل صاحبها الجنة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

---

(١) «نظرات في الأسرة المسلمة» (ص ١١٦- ١١٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (١٦١٢).

(٣) رواه البيهقي وابن حبان، انظر «صحيح الجامع» (١٠١٩).

(٤) أخرجه الإمام أحمد والحاكم وغيرهما وهو صحيح «مشكاة المصابيح» للألباني، برقم (١٢٣٢).

(إن القول الحسن: سحر العقول والقلوب، به تستمال القلوب المتخاصمة وتؤلف، وبه تسل الضغائن فلا تختلف، وبه يحسن التعامل بين الناس فتصطلح أمورهم وتستقيم أحوالهم.

كما أنه ـ أي القول الحسن ـ دليل على رجاحة العقل ، وكمال المروءة، واكتمال الدين، وفي المقابل فإن القول الخبيث: دليل الخفة، وعنوان الحماقة، فلا يدفع الشمن إلا بالكلمة الطيبة، ولا يثير العداوة والخصومة إلا بالكلمة الخبيثة[١].

إن (من حسنت كلمته، وعذب منطقه، ولان جانبه، فإنه يصفي النفوس من الأحقاد ويزرع الفضيلة بين العباد، ويكون أداة بناء، ولم شمل، ورأب صدع، فيعظم خيره، ويكثر نفعه، وهذه غاية كل مسلم ينشدها ويطلبها فيقوم بالعبادات ليصل إلى هذا الخلق النبيل، فيفوز برضوان الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ويتقي به نار جهنم والعياذ بالله)[٢].

(فصل) هل المسلم فاحش أو بذيء؟

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : **«ليس المؤمن بالطَّعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء»**[٣].

فقد نفى رسول الله ﷺ كمال الإيمان عن كل من كان طعانًا أو لعانًا أو فاحشًا أو بذيئًا، والفاحش البذيء هو الذي يخرج من لسانه الكلمات المستقبحة التي لا تليق بدينه وإسلامه. ومن العجب أن يُرى ذلك من الزوج المسلم «الملتزم»!!

---

(١) «الإسلام وفقه الحياة» د. إبراهيم الديك ص(٥٨٣) بتصرف.

(٢) «الكلمة الطيبة وأثرها في النفوس» أحمد عمر النعمة ص(١٥).

(٣) أخرجه الترمذي بإسناد صحيح ،«الصحيحة» برقم (٣٢٠) «المشكاة» برقم (٤٨٤٧).

فبعض الإخوة ـ هداهم الله ـ بحجة الغضب أو «أنني لا أستطيع أن أضبط نفسي» ونحو ذلك من الأعذار الواهية، تجده يسب زوجته وأولاده ويشتمهم بألفاظ بذيئة ـ لا تتفق أبدًا وتدينه تحت أي مسمى أو عذر يزينه له الشيطان.

- عن أبي الدرداء قال ﷺ: «**أثقل شيء في ميزان المؤمن خلق حسن، إن الله يبغض الفاحش المتفحش البذيء**»[(١)].

- وعن جابر رضي الله عنه قال ﷺ: «**إن الله تعالى جميل يحب الجمال، ويحب معالي الأخلاق، ويكره سفاسفها**»[(٢)].

قال الإمام الغزالي: «اعلم أن أحسن أحوالك أن تحفظ ألفاظك من جميع الآفات، من الغيبة والنميمة والكذب والمراء والجدال وغيرها، وتتكلم فيما هو مباح لا ضرر عليك فيه ولا على مسلم أصلاً، إلا أنك تتكلم بما أنت مستغن عنه ولا حاجة بك إليه فإنك مضيع به زمانك، ومحاسب على عمل لسانك، وتستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، لأنك لو صرفت زمان الكلام إلى الفكر ربما يتضح لك من نفحات رحمة الله عند الفكر ما يعظم جدواه، لو هللت الله سبحانه وذكرته وسبحته خير لك، فكم من كلمة يبنى بها قصر في الجنة، وكم من كلمة تؤدي إلى البوار وتوقع صاحبها في النار»[(٣)].

(فائدة) هل يمكن اكتساب الخُلُق؟

قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: فإن قلت: هل يمكن أن يقع الخلق كسبيًا، أو هو أمر خارج عن الكسب؟.

---

(١) رواه البيهقي في «السنة»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٣٤).

(٢) رواه الطبراني في «الأوسط»، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٧٣٩).

سفاسفها: أي رديئها وحقيرها.

(٣) «الإحياء» (٣/ ٩٦).

قلت: يمكن أن يقع كسبيًا بالتخلق والتكلف، حتى يصير له سجية وملكة، وقد قال النبي ﷺ لأشجِّ عبد القيس: «**إن فيك لخُلُقين يحبهما الله: الحلم والأناة**»، فقال: أخلقين خلقت بهما، أم جبلني الله عليهما؟ فقال: «**بل جبلك الله عليهما**»، فقال: الحمد لله الذي جبلني خلقين يحبهما الله ورسوله. (متفق عليه).

قد دل على أن من الخلق ما هو طبيعة وجبلة، وما هو مكتسب.

وكان النبي ﷺ يقول في دعاء الاستفتاح: «**اللهم اهدني لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلا أنت**»، و «**اصرف عني سيئها، لا يصرف عني سيئها إلا أنت**»

فذكر الكسب والقدر. والله أعلم[(١)].

قال الغزالي ـ رحمه الله ـ في بيان السبب الذي ينال به حسن الخلق:

أحدهما ـ جود إلهي وكمال فطرى، بحيث يخلق الإنسان ويولد كامل العقل حسن الخلق، قد كُفي سلطان الشهوة والغضب، فيصير مؤدبًا بغير تأديب.

والثاني ـ اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب[(٢)].

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٣١٥).

(٢) «إحياء علوم الدين» (٣/ ٦٣-٦٤).

الصفة الثالثة

مجتهد في طلب العلم الشرعي، يعلمني ويأخذ بيدي، ويحببني فيه، يود لو أن الملائكة تصلي عليَّ وعليه.

مجتهدٌ في طلب العلم الشرعى... وذلك انطلاقًا من معرفته بقدر العلم وفضله ودعم أهميته:

فضل العلم:

أولاً ـ من الكتاب العزيز:

١ ـ قال تعالى: ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (آل عمران: ١٨).

▪ قال القرطبي ـ رحمه الله ـ في تفسيره: هذه الآية دليل على فضل العلم وشرف العلماء، فإنه لو كان أحد أشرف من العلماء لقرنهم الله باسمه واسم ملائكته كما قرن العلماء، وقال في شرف العلم لنبيه ﷺ: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا** ﴾ (طه: ١١٤)، فلو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله تعالى نبيه أن يسأله المزيد كما أمر أن يستزيده من العلم[(١)].

(١) «تفسير القرطبي» (٢/ ٣٩).

ـ لم أذكر هنا العلم الدنيوي، لا لعدم أهميته، وإنما اهتممت بالتركيز على العلم الشرعي، نظرًا لغلبة الجهل به، وإعراض الكثير عنه، رغم أنه أفضل العلم لأنه العلم الذي يعرفك بالله، وأركان الإيمان، والحلال والحرام في الإسلام.

٢ ـ قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر: ٩).

▪ قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: قال الزجاج: أي كما لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون كذلك لا يستوي المطيع والعاصي. وقال غيره: الذين يعلمون هم الذين ينتفعون بعلمهم ويعملون به، فأما من لم ينتفع بعلمه ولم يعمل به فهو بمنزلة من لم يعلم[١].

٣ ـ قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادلة: ١١).

▪ قال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «أي: في الثواب في الآخرة، وفي الكرامة في الدنيا. فيرفع المؤمن على مَنْ ليس بمؤمن والعالم على مَنْ ليس بعالم.

وقال ابن مسعود ﷺ: مدح الله العلماء في هذه الآية، والمعنى أنه يرفع الله الذين أوتوا العلم على الذين آمنوا ولم يؤتوا العلم «درجات» أى درجات في دينهم إذا فعلوا ما أمروا به»[٢].

٤ ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

▪ قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى، وكلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل كانت الخشية له أعظم وأكثر»[٣].

▪ ـ قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٩).

---

(١) «تفسير القرطبى» (٨/ ٢١٤).
(٢) «تفسير القرطبى» (٩/ ١٦٨).
(٣) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٥٥٤).

■ .قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «مدح سبحانه أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم بأن جعل كتابه آيات بينات في صدورهم، وهذه خاصية ومنقبة لهم دون غيرهم»[(١)].

■ وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: «أي: ليس هذا القرآن كما يقول المبطلون من أنه سحر أو شعر، ولكنه علامات ودلائل يُعرف بها دين الله وأحكامه، وهي كذلك في صدور الذين أوتوا العلم وهم أصحاب محمد ﷺ والمؤمنون به يحفظونه ويقرؤنه، ووصفهم بالعلم لأنهم ميزوا بأفهامهم بين كلام الله وكلام البشر والشياطين»[(٢)].

٦ ـ قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٢).

■ قال القرطبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم، لأن المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا كافة والنبي ﷺ مقيم لا ينفر فيتركوه وحده ﴿فَلَوْلا نَفَرَ﴾ بعدما علموا أن النفير لا يسع جميعهم ﴿ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ وتبقى بقيتها مع النبي ﷺ ليتحملوا عنه الدين ويتفقهوا، فإذا رجع النافرون إليهم أخبروهم بما سمعوا وعلموا، وفي هذا إيجاب التفقه في الكتاب والسنة وأنه على الكفاية دون الأعيان»[(٣)].

٧ ـ قال تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ (طه: ١١٤).

■ قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: أي زدني منك علمًا. قال ابن عيينة ـ رحمه الله ـ: ولم يزل ﷺ في زيادة حتى توفاه الله عزَّ وجَل[(٤)].

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٠).

(٢) «تفسير القرطبي» (٧/ ٣٢٦).

(٣) «تفسير القرطبي» (٤/ ٢١٠).

(٤) «تفسير ابن كثير» (٣/ ١٦٧).

٨ ـ قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ٨٣).

■ قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ﴾ أي: بالعلم والفهم والإمامة والملك[(١)].

٩ ـ قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء: ١١٣).

■ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: عدَّد سبحانه نعمه وفضله على الرسول ﷺ وجعل من أجلِّها أن آتاه الكتاب والحكمة وعلَّمه ما لم يكن يعلم[(٢)].

ثانيًا ـ من السُّنة الشريفة:

١ ـ روى البخاري ومسلم عن معاوية قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي، ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله**».

■ قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: ومفهوم الحديث: أن من لم يتفقه في الدين ـ أي: يتعلم قواعد الإسلام وما يتصل لها من الفروع ـ فقد حُرِم الخير[(٣)].

---

(١) «تفسير القرطبي» (٤/ ٢٨).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٢).
(٣) «فتح الباري» (١/ ١٩٧).

▪ قال النووي ـ رحمه الله ـ: قوله ﷺ: **«من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين»** فيه فضيلة العلم والتفقه في الدين والحث عليه وسببه أنه قائد إلى تقوى الله تعالى[١].

٢ ـ عن أبي الدراء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتانُ في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر»**[٢].

▪ قال في (مختصر منهاج القاصدين): قال الخطابي في معنى وضعها أجنحتها ثلاثة أقوال:

أحدها ـ أنه بسط الأجنحة.

الثاني ـ أنه بمعنى التواضع تعظيمًا لطالب العلم.

الثالث ـ أنه المراد به النزول عند مجالس العلم وترك الطيران[٣].

▪ قال الشيخ أبو بكر الجزائري: فإن هذا دليل قويٌّ وشاهد عظيم على ما للعلم الشرعي من فضيلة عظيمة، وكيف لا؟!، والعلم قائد إلى الجنة، وهاد إلى صراط مستقيم. إن العبد المسلم إذا وفق لطلب العلم والحصول عليه ففقه

---

(١) «شرح النووى على مسلم» (٧/ ١٢٨).

(٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وابن حبان في «صحيحه» والبيهقي وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٣).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» ص (٥-٦).

في دين الله فقد تأهل للخير وكان من أهله، وحَسْبُ العلم فضلاً وشرفًا أن يكون قائدًا للخير وهاديًا إليه»[(١)].

٣ ـ عن أبي أُمامة الباهلي قال: ذكر لرسول الله ﷺ رجلان: أحدهما عابد والآخر عالم فقال ـ عليه أفضل الصلاة والسلام ـ: **«فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»**، ثم قال رسول الله ﷺ: **«إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلُّون على معلمي الناس الخير»**[(٢)].

٤ ـ عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«فضل العلم خير من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»**[(٣)].

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»**[(٤)].

٦ ـ عن سهل بن معاذ عن أنس عن أبيه عن النبي ﷺ قال: **«من علَّم علمًا فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل شيء»**[(٥)].

٧ ـ عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لعليٍّ رضي الله عنه: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحدًا خير لك من حُمر النَّعَم»**[(٦)].

■ قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: وهذا يدل على فضل العلم والتعليم وشرف منزلة أهله بحيث إذا اهتدى رجل واحد بالعالم كان ذلك خيرًا له من حمر

(١) «العلم والعلماء» ص (١٨-١٩).
(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٧).
(٣) رواه الطبراني في «الأوسط»، والبزار بإسناد حسن، وانظر «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣١).
(٤) رواه مسلم وغيره.
(٥) رواه ابن ماجه، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٣٠٧).
(٦) رواه البخاري ومسلم.

النعم وهي خيارها وأشرفهـا عند أهلها، فما الظن بمن يهدي به كل يوم طوائف من الناس[(١)].

٨ ـ عن أبي أمامـة عن النبي ﷺ قال: «**من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيرًا أو يعلمه كان له كأجر حاج تامًا حجته**»[(٢)].

ثالثًا ـ من آثار السلف الصالحين:

١ ـ **قال الشافعي ـ رحمه الله ـ:** من أراد الدنيا فعليـه بالعلم، ومن أراد الآخرة فعليـه بالعلم، وقال: مـا تُقرب إلى الله تعـالى بشيء بعد الفـرائض أفضل من طلب العلم.

٢ ـ **وقال سفيان الثوري:** إنما يتُعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يتُقى به الله.

٣ ـ **وعن أبي الدرداء:** مذاكرة العلم ساعة خير من قيام ليلة.

٤ ـ **وقال علي بن أبي طالب ﷺ:** جميع الـناس محتاجون إلى العـالم في أمور دينهم، ولا يحتاجون إلى صاحب المال.

٥ ـ **وروي عن مصعب بن الزبير ﷺ أنه قال لابنه:** يا بني تعلم العلم فإنه إن يكن لك مال كان لك العلم جمالاً، وإن لم يكن لك مال كان لك العلم مالاً.

٦ ـ **وقال معاذ بن جبل ﷺ:** تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسـته تسبـيح، والبحث عنه جهـاد، وتعلمه لمن لا يعلمه صـدقة، وبذله لأهله قربة.

---

(١) «مفتاح دار السعادة» (١/ ٦٢).

(٢) رواه الطبراني في «الكبير»، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٣٨).

قال الشاعر:

والجهل قبل الموت موتٌ لأهله ▫▪▫ وأجسامهم قبل القبور قبور
وإن امرؤ لم يحي بالعلم ميتٌ ▫▪▫ وليس له حتى النشور نشور

وقال آخر:

علمي معي حيث يممت يتبعني ▫▪▫ قلبي وعاء له لا بطن صندوق
إن كنت في البيت كان العلم فيه معي ▫▪▫ أو كنت في السوق كان العلم في السوق

آداب طالب العلم[1]:

١ - *إخلاص النية*:

لما كان من مقررات الشرع ومن مسلمات الدين أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يقبل من العمل إلاَّ ما كان خالصًا وأريد به وجهه، فقد نبه النبي ﷺ على عظيم شأن النية، ووجوب تخليصها مما يشوبها من شوائب تفسد القصد وتفسد العمل.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه**»[2].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف: ١١٠).

---

(١) انظر «آداب طالب العلم» للشيخ محمد سعيد رسلان ـ حفظه الله ـ.

(٢) متفق عليه.

فعلى طالب العلم أن يحسن نيته في طلبه، وحسن النية في طلب العلم بأن يقصد وجه الله تعالى، والعمل به، وإحياء الشريعة، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه وعظيم فضله.

ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من تحصيل الرياسة والجاه والمال، ومباهاة الأقران وتعظيم الناس له، وتصديره في المجالس ونحو ذلك، فيستبدل به الأدنى بالذي هو خير.

٢ـ الاشتغال بتطهير الظاهر والباطن من شوائب المخالفات:

يجب على طالب العلم أن يطهر ظاهره بمجانبة البدعة، والتحلي بسنة رسول الله ﷺ في أحواله كلها، والمحافظة على الوضوء ونظافة الجسم والمظهر من غير تكلف، وعلى قدر الطاقة والوسْع.

▪ قال عبد الملك الميموني: ما أعلم أني رأيت أحدًا أنظف ثوبًا ولا أشد تعاهدًا لنفسه في شاربه وشعر رأسه وشعر بدنه، ولا أنقى ثوبًا وشدة بياض من أحمد بن حنبل.

ولا يفهمن من ذلك الدعوة إلى المغالاة والترفع في الثياب، وإنما هي شيء وراء ذلك، كيف وقد قال ﷺ: «**البذاذة من الإيمان**»[(١)].

▪ وقال الخطيب ـ رحمه الله ـ: يجب على طالب العلم أن يتجنب اللعب والتبذل في المجالس، بالسخف والضحك والقهقهة وكثرة التنادر وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يُستجاز من الضحك يسيره ونادره وطريفه الذي لا يخرج عن

(١) «السلسلة الصحيحة» برقم (٣٤١) والبذاذة: التقشف.

حد الأدب وطريقة العلم، فأما متصله وفاحشه وسخيفه، وما أوغر منه الصدر، وجلب الشر، فإنه مذموم. وكثرة المزاح والضحك تضع من القدر وتزيل المروءة.

وأما طهارة الباطن: فعلى طالب العلم تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق، ومذموم الصفات، إذ العلم عبادة القلب، وصلاة السر وقربة الباطن إلى الله تعالى.

٣ - *تفريغ القلب للعلم، وقطع العلائق، وهجر العوائد:*

فعلى طالب العلم أن يكون عظيم الرغبة في الآخرة وما عند الله، شديد التعلق بالمطلب الأعلى والمقصد الأسنى، فإن في العلم شغلاً عن متاع الحياة وزخرفها، وإنها أيام قلائل.

▪ **قال ابن القيم** - رحمه الله -: «الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد، وقطع العلائق».

فالعوائد: السكون إلى الدِّعة والراحة، وما ألفه الناس واعتادوه من الرسوم والأوضاع التي جعلوها بمنزلة الشرع، بل هي عندهم أعظم من الشرع.

والعوائق: فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب في سيره إلى الله، وتقطع عليه طريقه، وهي ثلاثة أمور: شرك وبدعة ومعصية، فيزول عائق الشرك بتجربة التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة»[١].

---

(١) «الفوائد» بتصرف واختصار (ص٢٠٤).

٤ . أكل القدر اليسير من الحلال، والأخذ بالورع، وإدامة الذكر:

فعلى طالب العلم أن يأخذ نفسه بالورع في جميع شأنه، ويتحرى الحلال في طعامه وشرابه ولباسه ومسكنه، وفي جميع ما يحتاج إليه هو وعياله، ليستنير قلبه، ويصلح لقبول العلم ونوره والنفع به. وأهم ما يلزم طالب العلم من أمر: إدمان ذكر الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ في كل حال وحين، فإن الذكر هو باب الفتح الأعظم، وسبيل الوصول الأقوم، ومن صرف عنه فقد حُرم الخير كله وسار على غير سبيل، ومن وفق إليه فقد هدي إلى الرشد وقاده خير دليل.

٥ . تقليل الطعام والشراب والمنام ما أمكن:

فعلى طالب العلم أن يقلل منه ما لم يلحقه ضرر في بدنه وذهنه، ولا يزيد في نومه في اليوم والليلة على ثماني ساعات، وهو ثلث الزمان، فإن احتمل حاله أقل منها فعل.

▪ وأما تقليل الكلام فقد قال النبي ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**»[١].

٦ . ترك العشرة ما أمكن، واختيار الصاحب والرفيق:

فعلى طالب العلم أن يترك العشرة، فإن تركها من أهم ما ينبغي لطالب العلم ولا سيما لغير الجنس، وخصوصًا لمن كثر لعبه وقلت فكرته، فإن الطباع سراقة.

وآفة العشرة ضياع العمر بغير فائدة، وذهاب المال والعرض إن كانت لغير أهل وذهاب الدين إن كانت لغير أهله.

---

(١) متفق عليه.

وينبغي لطالب العلم أن لا يخالط إلا من يفيده أو يستفيد منه، وإن تعرض لصحبته من يُضيع عمره معه، ولا يفيده، ولا يستفيد منه، ولا يعينه على ما هو بصدده، فليتلطف في قطع عشرته من أول الأمر قبل تمكنها، لأن الأمور إذا تمكنت عسُرت إزالتها، ومن الجاري على ألسنة الفقهاء: الدفع أسهل من الرفع.

فإن احتاج إلى من يصحبه، فليكن صاحبًا صالحًا دينًّا تقيًا ورعًا ذكيًا، كثير الخير قليل الشر، حسن المداراة قليل المماراة، إن نسي ذكَّره وإن ذكر أعانه، وإن احتاج واساه، وإن ضجر صبَّره[1].

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسدُ
عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرمال فيخمدُ

٧ ـ اختيار العلم والشيخ:

فينبغي لطالب العلم أن يختار البدء بالذي هو في أمس الحاجة إليه في عاجل أمره وآجله ـ أعني العلم بالله عزَّ وجَلَّ: بأسمائه وصفاته وأفعاله ـ فإذا انضبط له هذا المقدار من علم بالله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ، كان عليه الأخذ بعلمي الكتاب والسنة على نهج صدر الأمة الأُوَّل رضي الله عنهم حتى يصح له التلقي عن رسول صلى الله عليه وسلم.

■ ورحم الله الشافعي إذ يقول:

كل العلوم سوى القرآن مشغلة ... إلا الحديث وإلا الفقه في الدين
العلم ما كان فيه قال حدثنا ... وما سوى ذلك وسواس الشياطين

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» لابن جُماعة الكناني (ص٨٣).

وعلى طالب العلم أن يجتهد في اختيار الشيخ «فينبغي أن يختار الأعلم والأورع والأسن كما اختار أبو حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ حمَّاد بن سليمان ـ رحمه الله ـ بعد التأمل والتفكر، وقال: وجدته شيخًا وقورًا حليمًا صبورًا»[١].

وقد أخرج مسلم ـ رحمه الله ـ في مقدمة صحيحه عن محمد بن سيرين قال: «إن هذا العلم دين، فانظروا عمن تأخذون دينكم»[٢].

٨ ـ التزام الأدب التام مع شيخه وقدوته:

لقد كان السلف ﵏ يعظمون من يتعلمون منهم تعظيمًا شديدًا، وآثارهم في ذلك شاهدة على آدابهم في مجالس التعليم، وعلى توقيرهم لمعلميهم.

عن مغيرة قال: كنا نهاب إبراهيم النخعي كما نهاب الأمير.

وعن عبد الرحمن بن حَرْملة الأسلمي قال: ما كان إنسان يجترئ على سعيد بن المسيب يسأله عن شيء حتى يستأذنه كما يُستأذن الأمير.

وقال أحمد بن حنبل ﵁ لخلف الأحمر ـ رحمه الله ـ: لا أقعد إلا بين يديك، أُمرنا أن نتواضع لمن نتعلم منه.

قال ابن جماعة: «فعلى طالب العلم أن ينقاد لشيخه في أموره، ولا يخرج عن رأيه وتدبره، بل يكون معه كالمريض مع الطبيب الماهر فيشاوره فيما يقصده، ويتحدى رضاه فيما يتعمده، ويبالغ في حرمته، ويتقرب إلى الله تعالى بخدمته، ويعلم أنَّ ذله لشيخه عزّ، وخضوعه له فخر، وتواضعه له رفعة.

(١) «تعليم المتعلم طريق التعلم» للزرنوجي ص (١٢).
(٢) شرح النووي على مسلم (١/ ٨٤).

وعلى طالب العلم أن ينظر إلى شيخه بعين الإجلال، فإن ذلك أقرب إلى نفعه به، وكان بعض السلف إذا ذهب إلى شيخه تصدق بشيء وقال: «اللهم استر عيب شيخي عني، ولا تذهب بركة علمه مني»[(١)].

٩ . مراعاة الآداب مع الكتب:

«وينبغي لطالب العلم أن يعتني بتحصيل الكتب المحتاج إليها ما أمكن شراءً وإلاَّ فإجارة أو عارية، لأنها آلة التحصيل، ولا يجعل تحصيلها وتحديثها حظه من العلم، وجمعها حظه من الفهم، كما يفعله كثير من المنتحلين للفقه والحديث.

وقد أحسن القائل:

إذا لم تكن حافظًا واعيًا ... فجمعُك للكتب لا ينفع[(٢)]

(فصل) كيف نتحمس لطلب العلم؟

١ ـ تجريد النية لله تعالى.

٢ ـ معرفة أهمية العلم وفضله ومكانة أهله عند الله.

٣ ـ قراءة سير الصالحين من طلبة العلم.

٤ ـ مراجعة العلم مع الإخوان.

٥ ـ حضور مجالس العلم والعلماء.

٦ ـ طلب النصيحة من أهل العلم والصلاح.

٧ ـ معالجة أي قصور قبل أن يفضحك.

٨ ـ التيقن بأن الدعوة بلا علم وبال على الدعوة والداعية.

---

(١) «تذكرة السامع والمتكلم» ص (٨٨).

(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» ص (١٦٤).

آفات العلم:

إذا كان الشرع يحضنا على طلب العلم، فإنه أيضًا يحذرنا من آفاته، حتى لا يفسد الشيطان علينا قصدنا وإرادتنا، ونتفع بالعلم الانتفاع المرجو منه.

وما هي أهم تلك الآفات:

أ - تعلم العلم لغير وجه الله تعالى:

فقد ذمَّ الله - عزَّ وجلَّ - في أكثر من موضع في كتابه العزيز كل من أراد بعلمه غير وجه الله - سبحانه وتعالى -، فقال - عزَّ وجلَّ -: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ (الشورى: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٨-١٩).

ووردت أيضًا أحاديث عن النبي ﷺ تحض على الإخلاص لله تعالى في طلب العلم.

▪ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم علمًا مما يبتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلاَّ ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة»**[(١)].

▪ وعنه رضي الله عنه أيضًا قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم العلم ليباهي به العلماء، ويماري به السفهاء، ويصرف به وجوه الناس أدخله الله جهنم»**[(٢)].

---

(١) عرف الجنة: ريحها - رواه ابن ماجة وأبو داود وغيرهما وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» ص (٤٦).

(٢) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «المصدر السابق» ص (٤٧).

فليحذر طالب العلم بطلبه هذه العبادة الشريفة غير وجه الله تعالى، فلا ينال ما يريده من الدنيا، ثم يكون وبالاً عليه يوم القيامة.

٢ ـ كتم العلم:

▪ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من سُئل عن علم فكتمه أُلجم يوم القيامة بلجام من نار»[١].

▪ قال ابن القاسم: «كنا إذا ودعنا مالكًا يقول لنا: اتقوا الله وانشروا هذا العلم وعلموه ولا تكتموه».

▪ وروى أحمد والترمذي وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نضَّر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلَّغه كما سمعه، فربَّ مبلغ أوعى من سامع»[٢] من ذلك يتبين لنا جميعًا وجوب نشر العلم وتبليغه بين أهله ولمن يستحقه، وعدم كتم شيء منه.

٣ ـ القول على الله بغير علم:

وهذا أمر منتشر للأسف لاسيما بين عوام الناس، وأعني بهم من نالوا حظًا من التعليم العالي، ولكنهم يجهلون في دينهم الكثير والكثير، ويحسبون بأنهم بهذا القدر من التعليم على مقدرة من فهم أمور الشريعة ومعرفة الحلال من الحرام، بدعوى أنهم أصحاب عقول وعلم دنيوي ويستطيعون بهما القول في الدين.

▪ قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف: ٣٣).

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وصححه الألباني «المصدر السابق» (١/ ٥٢).

(٢) حديث صحيح «صحيح الجامع» (٦٧٦٤).

■ يقول الإمـام ابن القيم ـ رحمـه الله ـ في كلامه على قـوله تعالى: ﴿وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾: «فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثمًا.

فـإنه يتضـمن الكذب على الله ونسـبتـه إلى مـا لا يليق به، وتغـييـر دينه وتبديله، ونفي مـا أثبته وإثـبات ما نفـاه، وتحقيق مـا أبطله وإبطال ما حقـقه، وعداوة مَنْ والاه وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضـه وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله»[(١)].

٤ ـ فقد الخشية في العلم:

فما فـائدة العلم إن لم يكسب صاحبـه السكينة والخشية والإخـبات إلى الله تعالى؟! وما فائدة العلم إن كان على اللسان فقط؟!!

■ قال الحسن ـ رحمـه الله ـ: العلم علمان: علم باللسـان وعلم بالقلب، فعلم القلب هو العلم النافع، وعلم اللسان حجة الله على ابن آدم.

■ وقال سفـيان الثوري ـ رحمـه الله ـ: إنما يُتعلم العـلم ليتَّقى به الله، وإنما فضل العلم على غيره لأنه يُتقى به الله.

(فعلى طالب العلم التـحلي بالسكينة والخشية، فـذلك رداء الوقار، ولباس الوداعة، وأنها إذا نزلت على القلب اطمأن بها، وسكنت إليها الجوارح وخشعت واكتسبت الوقارة وأنطقت اللسان بالصواب والحكمة، وحالت بينه وبين قول الخنا والفحش، واللغو والهجر، وكل باطل)[(٢)].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٧٢).

(٢) انظر «إيقاظ الهمة لبيان فضل العلم وآدابه وآفاته وطرق تحصيله المهمة» لحلمي محمد إسماعيل.

٥ ـ الكبر والعجب:

عن أبي مسلم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «تعلموا العلم وعلموه الناس وتعلموا له الوقار والسكينة، وتواضعوا لمن تعلمتم منهم ولمن علمتموه، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم جهلكم بعلمكم».

وقال صلى الله عليه وسلم: **«ألا أخبركم بأهل النار، كل عتل جواظ مستكبر»**[١]؛ لذا فإن كل مسلم مطالب بترك الخصال الذميمة كالكبر والعجب، فكيف بمن يطلب العلم، أو يعلمه للناس، أو يدعو إليه، ويريد أن ينال منه الحظ الأوفر، فهو ولا شك أولى بالترك.

فطالب العلم مطالب بالتواضع على كل حال، وبترك الكبر في كل الأحوال، وإلا فلن يجتمع الكبر والعلم في صدر واحد.

٦ ـ المراء والمجادلة والمخاصمة:

وهذه الأخلاق ليست من أخلاق طلبة العلم المخلصين لله ـ تعالى ـ، لذلك رغبنا النبي صلى الله عليه وسلم في تركه فقال: **«من ترك المراء وهو مبطلٌ بُني له بيت في ربض الجنة، ومن تركه وهو محق بني له في وسطها، ومن حسَّن خلقه بُني له في أعلاها»**[٢].

وقال صلى الله عليه وسلم أيضًا: **«ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»**، ثم قرأ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً﴾ (الزخرف:٥٨)[٣].

---

(١) رواه مسلم وأحمد وغيرهما.

(٢) رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٦٠).
وربض الجنة: ما حولها.

(٣) حسن: رواه أحمد والترمذي وغيرهما، انظر «صحيح الجامع» (٥٦٣٣).

▪ وقال الأوزاعي: بلغني أن الله إذا أراد بقوم شراً ألزمهم الجدل، ومنعهم العمل. فعلى طالب العلم الحذر من هذه الآفات الثلاث الخطرة، فإنها من أسرع الطرق لانهيار طلب العلم، بل ويساعدون المتصف بها على حمل لواء الشر والدفاع عنه، فضلاً عن طمس البصر والبصيرة.

٧ ـ النسيان:

قال الحسن: غائلة العلم: النسيان وترك المذاكرة، لذا فإن على طالب العلم المدارسة والمراجعة لاسيما مع غيره حتى لا ينس ما يحفظ من العلم.

▪ وعن أبي نضرة قال: كان أبو سعيد الخدري يقول: «تحدثوا فإن الحديث يُذكِّر الحديث».

▪ وقال عليّ بن أبي طالب: «تزاوروا وتذكروا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يدرس علمكم».

▪ وقال صاحب الحلية: على طالب العلم أن يتعهد علمه وما حفظه حتى لا ينسى ما جمعه؛ فإن عدم التعهد عنوان الذهاب للعلم مهما كان.

٨ ـ التعصب بالهوى:

فاتباع الهوى والتقليد الأعمى واتباع آراء أهل العلم مع وجود ما هو أصح منها عن البعض الآخر، آفات تذهب بالعلم وصاحبه إلى طريق البدعة والجهل وترك السنة والشيطان، لذا فالواجب على كل مسلم لاسيما طالب العلم أن يأخذ الحق بدليله، وأن يدع التعصب والتقليد جانبًا، فالخير كل الخير في الاتباع والشر كل الشر فيما أحدث الأتباع.

فهذا الإمام الجليل أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ يقول: إذا صح الحديث فهو مذهبي، فلماذا إذن اتباع رأيه في مسألة ما مثلاً لم يصح فيها الحديث الذي صح عند غيره.

وهذا الإمام مالك ـ رحـمه الله ـ يؤصل هذه القاعدة المهمة فـيقول: إنما أنا بشر أخطئ وأصـيب، فانظروا في رأيي، فكل مـا وافق الكتاب والسنة فـخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه.

لذا فإن التعصب للمذاهب أو لقول شيخ أو عالم مع ترك الأرجح في مسألة ما مثلاً يعين الشيطان على حمل العبد على البغض والحقد للآخرين.

٩ ـ التسرع في الفتوى:

وهذه آفة نسأل الله ـ تعالى ـ السلامة منها لنا ولجميع المسلمين، فإن خطرها عظيم وخطبها جسيم.

فهؤلاء الصـحابة كان كل واحد فيهـم يود لو أن صاحبه كفاه الفـتوى، أما نحن اليوم فالحاذق والمجتهد هو من يكون أسرع من أخيه في الافتاء!!

▪ عن البراء قال: لقـد رأيت ثمانية من أهل بدر ما فـيهم من أحد إلا وهو يحب أن يكفيه صاحبه الفتوى.

▪ وقال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: ما رأيت أحدًا جمع الله فيه من آية الفتيا ما جمع في ابن عيينة أسكت من الفتيا منه.

▪ قال إسـحاق بن راهويه: قـال ابن عيينـة: أعلم الناس بالفتـوى أسكتهم فيها، وأجهل الناس بالفتوى أنطقهم فيها.

▪ وقال عطاء بن السـائب: أدركت أقوامًا إن كان أحدهم ليـسأل عن الشيء فيتكلم وأنه ليرعد.

▪ وقال بشر بن الحارث: من أحب أن يسأل فليس بأهل أن يسأل.

ثمرة العلم العمل به:

إن ثمرة العلم: العــمل به، وكل علم لم يثمر عمــلاً في القلب والجوارح، فإنما هو علم يلزم صاحبه الحجة أمام الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

وما فائدة العلم، وما فائــدة الكتب والمراجع في مكتبة المسلم وهو لا يعمل بما يعلم؟!!.

إن أناسًــا أخطاوا طريق العلم الصحـيح فـجمـعوا الكتب ونسـقوها ورتبـوها وزينوها، وجهلوا ما فيها، فكان بينهم وبين العمل الصالح بون شاسع، فإذا ما ابتلوا في دينهم ضعفوا، وإذا ما ابتلوا في دنياهم سقطوا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عن أسامة بن زيد ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتابه فيدور بها كما يدور الحمار برحاه فتجتمع أهل النار عليه، فيقولون: يا فلان! ما شأنك؟ ألست كنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن الشر وآتيه»**[1].

* وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«مررت ليلة أسري بي بأقوام تقرض شفاههم بمقاريض من نار. قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: خطباء أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون»**، وفي رواية: **««يقرءون كتاب الله ولا يعملون به»**[2].

وعن أبي بن كعب قال: تعلموا العلم واعملوا به ولا تتعلموه لتتجملوا به، فإنه يوشك إن طال بكم زمانه أن يتجمل بالعلم كما يتجمل الرجل بثوبه.

وقال أيوب السختياني: قال لي أبو قلابة: يا أيوب إذا أحدث الله لك علمًا فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به.

(١) رواه البخارى ومسلم واللفظ له.
(٢) رواه ابن أبي الدنيا وابن حبان والبيهقي ،وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٥٤).

وقال سفيان الثوري: إنما يُتعلم العلم ليتقى به الله، وإنما فَضل العلم على غيره لأنه يتقى الله به.

وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فلن يأجركم الله بعلمه حتى تعملوا».

• ولسابق البربري:

إذا العلم لم تعمل به كان حجة ... عليك ولم تُعذر بما أنت جاهله

فإن كنت قد أوتيت علمًا فإنما ... يصدق قول المرء ما هو فاعله

ويروى أن عيسى عليه السلام قال للحواريين: «لست أُعلِّمكم لتعجبوا؛ إنما أُعلِّمكم لتعملوا، ليست الحكمة القول بها؛ إنما الحكمة العمل بها».

من أجل ما تقدم كان العمل بالعلم أمرًا حتمًا على كل من علم حتى يخرج من دائرة الوعيد لمن علم ولم يعمل، ثم تأتي الوصية لطالب العلم أن يقرن عمله بعلمه.

• قال الخطيب ـ رحمه الله ـ: «ثم إني موصيك ـ يا طالب العلم ـ بإخلاص النية في طلبه، وإجهاد النفس على العلم بموجبه، فإن العلم شجرة والعمل ثمرة، وليس يعد عالمًا من لم يكن بعلمه عاملاً. وقيل: العلم والد والعمل مولود، والعلم مع العمل والرواية مع الدراية، فلا تأنس بالعمل مادمت مستوحشًا من العلم، ولا تأنس بالعلم ما كنت مقصرًا في العمل. ولكن اجمع بينهما وإن قل نصيبك منهما. وما شيء أضعف من عالم ترك الناس علمه لفساد طريقه، وجاهل أخذ الناس بجهله لنظرهم إلى عبادته»[1].

(١) «فضل العلم» لأبي عبد الله بن محمد بن رسلان ص(١٩٢).

صفحات نورانية
في علو الهمة في طلب العلم ونشره[(١)]

وهذه أمثلة طيبة نذكرها لشحذ الهمم، وحثها على طلب العلم النافع بجد واجتهاد.

١ - حرص الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على تحصيل العلم:

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجارٌ لي من الأنصار في بني أمية بن زيد[(٢)]، وهي من عوالي[(٣)] المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك[(٤)].

٢ - معاذ بن جبل رضي الله عنه:

لما حضرته الوفاة قال: اللَّهم إنك تعلم أني لم أكن أحب البقاء في الدنيا لكري الأنهار، ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء:

لمكابدة الليل الطويل.

ولظمأ الهواجر في الحر الشديد.

ولمزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذكر.

---

(١) انظر «صلاح الأمة في علو الهمة» للدكتور سيد بن حسين العفاني (١/ ١٥٩-٦٠١).

(٢) أي: ناحية بني أمية.

(٣) قرى بقرب المدينة من ناحية الشرق.

(٤) «فتح الباري» (١/ ١٦٧).

٣ ـ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

روى البخارى عن شقيق بن سلمة قال: خطبنا عبد الله بن مسعود فقال: والله لقد أخذت من فيِّ رسول الله ﷺ بضعًا وسبعين سورة. والله لقد علم أصحاب النبي ﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم.

٤ ـ أبو الدرداء رضي الله عنه:

روى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: مات النبي ﷺ، ولم يجمع القرآن غير أربعة، أبو الدرداء، ومعاذ، وزيد بن ثابت، وأبو زيد.

وقال ابن إسحاق: كان الصحابة يقولون: أَتْبَعُنا للعلم والعمل أبو الدرداء.

٥ ـ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما:

قال ابن مسعود رضي الله عنه: نعم ترجمان القرآن ابن عباس.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: هو أعلم الناس بما أنزل الله على محمد ﷺ.

٦ ـ سعيد بن المسيب ـ رحمه الله ـ:

قال ـ رحمه الله ـ: إن كنت لأسير الأيام والليالي في طلب الحديث الواحد.

٧ ـ عطاء بن أبي رباح المكي:

قال إسماعيل بن أمية: كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تعلم خُيِّل إلينا أنه مؤيد، وكان أسود أعور، أفطس، أشل، أعرج، ثم عُمي! ففي جسمه ستة عيوب، ولكنه كان ركنًا من أركان العلم والدين والصلاح والقدوة، وكان ثقة فقيهًا، حج نيفًا وسبعين حجة.

٨ ـ سفيان الثوري:

قال ابن المبارك: ما أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان.

وقال ابن حنبل للمروزي: أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري لا يتقدَّمه أحد في قلبي.

وقال شعيب بن حرب: إني لأحسب أنه يجاء غدًا بسفيان حجة من الله على خلقه، يقول لهم: لم تدركوا نبيكم، قد رأيتم سفيان.

٩ ـ الإمام أبو حنيفة:

قال الذهبي: عُني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذلك.

١٠ ـ الإمام الشافعي:

قال ـ رحمه الله ـ: لم يكن لي مال، وكنت أطلب العلم في الحداثة، وكنت أكتب في الأكتاف والعظام، وكنت أذهب إلى الديوان أستوهب الظهور فأكتب فيها [١].

١١ ـ الإمام أحمد بن حنبل:

قال عبد الرزاق: ما رأيت أحدًا أفقه ولا أورع من أحمد بن حنبل.

وقال الشافعي: خرجت من بغداد، فما خلفت منه رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه ولا أتقى من أحمد بن حنبل.

وقال ابن الجوزي: طاف أحمد بن حنبل الدنيا مرتين حتى جمع المسند.

---

(١) ظهور الأوراق المكتوب عليها.

١ ـ الإمام محمد بن إسماعيل البخاري:

قال نعيم بن حماد: محمد بن إسماعيل فقيه هذه الأمة.

قال يعقوب الحافظ: رأيت مسلم بن الحجاج بين يدي البخاري يسأله سؤال الصبي، قال البخارى: صنفت الصحيح في ست عشرة سنة، وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى.

وقال عنه عبد الرحمن السمرقندي: محمد بن إسماعيل أعلمنا وأفقهنا وأغوصنا وأكثرنا طلبًا.

١٣ ـ الإمام النسائي:

قال الذهبي في (السير): كان من بحور العلم، مع الفهم والإتقان والبصر، ونقد الرجال، وحسن التأليف. جاء في طلب العلم في خراسان، والحجاز، ومصر، والعراق، والجزيرة، والشام، والثغور، ثم استوطن مصر، ورحل الحفاظ إليه، ولم يبق له نظر في هذا الشأن. قال النسائي: أقمت عند قتيبة بن سعيد سنة وشهرين، أي: لأخذ الحديث منه.

١٤ ـ شيخ الإسلام ابن دقيق العيد:

قال ابن كثير: سمع الكثير، ورحل في طلب الحديث، خرّج وصنف فيه، إسنادًا ومتنا مصنفات عديدة، فريدة ومفيدة، وانتهت إليه رياسة العلم في زمانه، وفاق أقرانه، ورحل إليه الطلبة، ودرَّس في أماكن كثيرة، ثم ولي قضاء الديار المهدية ومشيخة الحديث الكاملية.

١٥ ـ شيخ الإسلام الإمام النووي:

قال الذهبي عنه: وضُـرب به المثل في إكبابه على طلب العلم ليـلاً ونهاراً، وهجرة النوم إلا عن غلبة، وضبط أوقاته بلزوم الدرس، أو الكتابة، أو المطالعة، أو التردد على الشيوخ.

١٦ ـ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي:

قال فيه الشيخ محمد بن إبراهيم فـقيه الديار السعودية سابقًا ـ رحمه الله ـ: مُلئ علمًا من رأسه إلى أخمص قدميه.

وقد قال عنه الشيخ حماد الأنصاري: وله حافظة نادرية قوية ويعتبر في وقته نادرًا، ولـم يكن له منافس في تفسـير القرآن بأنواعـه الأربعة: بالقـرآن والسـنة، وأقوال السلف، واللغة العربية، وعنده في اللغة استحضار عديم النظير.

١٧ ـ محدث العصر محمد ناصر الدين الألباني:

قال فيه الشيخ ابن باز: ما رأيت في أديم السـماء عالمًا بالحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني.

١٨ ـ فضيلة الشيخ عبد العزيز بن باز:

حفظ القرآن عن ظهـر قلب قبل أن يبدأ مرحلة البلوغ، وقد فـقد بصره في التاسعة عشرة من عمره، واستـمر يطلب العلم بعد فقده لعينه، ولكن قلبه يزداد نورًا، وعوَّضه الله بذكاء في القلب.

المكتبة الإسلامية داخل البيت

هذا نموذج لبعض كتب العلم في مختلف فروعه يحتاجها كل بيت مسلم يُرد الله به خيراً، وإلاَّ ففي فجر كل يوم تخرج لنا المطابع شرقًا وغربًا كتبًا جديدة لا يمكن حصرها هنا.

أولاً ـ التفسير:

١ ـ «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ «أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير» وبهامشه: «نهر الخير» للشيخ أبي بكر جابر الجزائري ـ حفظه الله ـ.

٣ ـ «تفسير القرآن العظيم» للإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ.

٤ ـ «الجامع لأحكام القرآن» للإمام القرطبي ـ رحمه الله ـ.

٥ ـ «روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني» للعلامة محمود الألوسي ـ رحمه الله ـ.

ثانيًا ـ علوم القرآن:

١ ـ «لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير» للشيخ محمد الصباغ ـ حفظه الله ـ.

٢ ـ «الإتقان في علوم القرآن» للحافظ جلال الدين السيوطي ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ «مباحث في علوم القرآن» مناع القطان.

٤ ـ «التبيان في علوم القرآن» محمد علي الصابوني.

أما التجـويـد فينبغي أن يكون على يد شـيخ حافظ متقن أو على الأقل عن طريقة الأشرطة حتى يتنزه اللسان عن اللحن فيه .

ثالثًا ـ الحـديث:

١ ـ «شرح الأربعين النووية» للإمام النووي ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ «قواعد وفوائد من الأربعين النووية» لناظم سلطان.

٣ ـ «إيضاح المعاني الخفية في الأربعين النووية» لمحمد تاتاي.

٤ ـ «جـامع العلوم والحكم شـرح خـمـسين حـديثًـا من جـوامع الحكم» للإمام ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ.

٥ ـ «فيض القدير شرح الجامع الصغير» للعلامة المناوي ـ رحمه الله ـ.

٦ ـ «فتح الباري شرح صحيح البخاري» للإمام ابن حجر العسقلاني ـ رحمه الله ـ.

٧ ـ «الجامع الصحيح من أحاديث النساء» للمصنف.

رابعًا ـ الفقـه:

١ ـ «فقه السنة» للشيخ سيد سابق ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ «الروضة الندية شرح الدرر البهية» للعلامة صديق حسن خان ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ «نيـل الأوطـار شـرح منتـقى الأخـبار من أحـاديث سـيـد الأخـيـار» للإمـام الشوكاني ـ رحمه الله ـ.

خامسًا: السيرة:

١ ـ «نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين» للشيخ محمد الخضري ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ «الروض الأنف» للسهيلي ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ «الرحيـق المختـوم» لصفي الرحمن المباركفوري.

٤ ـ «وقفات تربوية مع السيرة النبوية» للشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ.

٥ ـ «السيرة النبوية» دكتور علي محمد الصلابي.

سادسًا ـ العقيـدة:

١ ـ «الإيمـان» للدكتور محمد نعيم ياسين.

٢ ـ «دعوة التوحيد» للشيخ محمد خليل هراس ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ «فتح المجيد شرح كتاب التوحيد» للشيخ عبد الرحمن آل الشيخ.

٤ ـ «عقيدة المؤمن» للشيخ أبي بكر جابر الجزائري.

٥ ـ «معارج القبول» للشيخ أحمـد حافظ حكمي أو ملخصه لأبـي عاصم هشام ابن عبد القادر.

٦ ـ «شرح العقيدة الطحاوية» للإمام علي بن أبي العـز الحنفي ـ رحمه الله ـ. أو «المنحة الإلهية في تهذيب شرح الطحاوية» لعبد الآخر حماد الغنيمي.

سابعًا ـ الأذكار:

١ ـ «صحيح الكلم الطيب» للألبـاني.

٢ ـ «مختصر النصيحة في الأذكار والأدعية الصحيحة» للشيخ محمد إسماعيل.

٣ ـ «الصحيح المسند من أذكار اليوم والليلة» للشيخ مصطفى العدوي.

٤ ـ «الأذكار» للنووي ـ رحمه الله ـ.

ثامنًا ـ الأخلاق والرقائق:

١ ـ «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي».

٢ ـ «مدارج السالكين» وكلاهما للإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ «مختصر منهاج القاصدين» لابن قدامة المقدسي.

٤ ـ «البحر الرائق في الزهد والرقائق» للشيخ أحمد فريد.

٥ ـ «فضل الله الصمد شرح الأدب المفرد» للجيلاني ـ رحمه الله ـ.

٦ ـ «الأخلاق بين الطبع والتطبع» لأبي عبد الله فيصل الحاشدي.

٧ ـ «خُلُق المسلم» دكتور سعيد عبد العظيم.

تاسعًا ـ مصطلح الحديث:

١ ـ «تيسير مصطلح الحديث» للدكتور محمد الطحان.

٢ ـ «نزهة النظر شرح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر» لابن حجر العسقلاني.

٣ ـ «مقدمة في مصطلح الحديث» محمد ناصر الدين الألباني.

عاشرًا ـ أصول الفقه:

١ ـ «علم أصول الفقه» للشيخ عبد الوهاب خلاف ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ «الوجيز في أصول الفقه» للدكتور عبد الكريم زيدان.

٣ ـ «مذكرة أصول الفقه على روضة الناظر» للشنقيطي ـ رحمه الله ـ.

٤ ـ «مفاتيح الفقه في الدين» للشيخ مصطفى العدوي.

٥ ـ «ضوابط للدراسات الفقهية» للشيخ سلمان العودة.

٦ ـ «القول السديد في كشف حقيقة التقليد» للشيخ محمد أمين الشنقيطي.

حادي عشر: كتب في الأسرة والمرأة والطفل:

١ ـ «الكلمات النافعات للأخوات المسلمات».

٢ ـ «النساء أكثر أهل النار ـ الأسباب وطرق النجاة».

٣ ـ «صورة البيت المسلم».

٤ ـ «هذه هي زوجتي».

٥ ـ «هذا هو زوجي».

٦ ـ «مواقف نسائية خالدة».

٧ ـ سلسة «المرأة الصالحة».

٨ ـ «موقف المرأة الصالحة من تعدد الزوجات».

٩ ـ «عقبات في طريق الأخوات».

١٠ ـ «حوار مع المتبرجات» ـ وكلها للمصنِّف.

١١ ـ «تربية الأولاد في الإسلام» للشيخ عبد الله ناصح علوان ـ رحمه الله ـ.

١٢ ـ «منهج التربية النبوية للطفل» لمحمد نور سويد.

١٣ ـ «جامع أحكام النساء» للشيخ مصطفى العدوي.

١٤ ـ «عودة الحجاب» للشيخ محمد إسماعيل.

١٥ ـ «مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة» إعداد عدنان حسن صالح باحارث.

ثاني عشر ـ الفكر والدعوة:

١ ـ «أصول الدعوة» للدكتور عبد الكريم زيدان ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ «الاتجاهات الفكرية المعاصرة» د. على محمد جريشة.

٣ ـ «أساليب الغزو الفكري» د. علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق.

٤ ـ «عقبات في طريق الدعاة» عبد الله ناصح علوان.

ثالث عشر. البــدع:

١ ـ «الإبداع في مضار الابتداع» للشيخ علي محفوظ ـ رحمه الله ـ.

٢ ـ «الاعتصــام» للشاطبي ـ رحمه الله ـ.

رابع عشر: كتب عامة:

١ ـ «الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثنى عشرية» للشيخ محب الدين الخطيب.

٢ ـ «التوسل أنواعه وأحكامه» للعلامة محمد ناصر الدين الألباني ـ رحمه الله ـ.

٣ ـ «اقتضــاء الصـراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ.

٤ ـ «إعلام الموقعين عن رب العالمين» للإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ.

٥ ـ «طريق الهجرتين وباب السعادتين» للإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ.

٦ ـ «عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين» للإمام ابن قيم الجوزية ـ رحمه الله ـ.

٧ ـ «تثبيت أفئدة المؤمنين» دكتور سيد العفاني.

٨ ـ «صلاح الأمة في علو الهمة» دكتور سيد العفاني.

٩ ـ «واقدســـاه» دكتور سيد العفاني.

تنبيهات هــامة:

١ ـ لعل الزوج المسلم يستــخرج من هذه المكتبة السابقــة منهجًا علميًــا يسير عليه حسب طاقته ووقته، يتدرج فيه من المادة السهلة البسيطة إلى ما هو أعلى منها.

٢ ـ لابد للزوج المسلم حسب طاقته أن يزور المكتبات الإسلامية بين الحين والآخر ليتطلع على آخر الإصدارات العلمية ليقتنيها وينتفع بها.

٣ ـ لابد أن يكون للزوجة والأولاد نصيب من تحصيل العلم النافع، ولا يغفل الزوج عن ذلك أبدًا[١].

٤ ـ يوجد من الرجال من ليس عنده مقدرة أو وقت لتحصيل منهج علمي يسير عليه؛ لذا فإننا نرشده إلى أهمية الاستماع إلى محاضرات العلم النافع لأهل العلم الثقات المسجلة على شرائط تمتلئ بها المكتبات الإسلامية.

٥ ـ إن الشريط الإسلامي لا تقل أهميته عن كتب العلم، لأنه عبارة عن علم مسجل على شريط؛ لذا فإنه يجب الاهتمام به اهتمامًا بالغًا حيث إنه من الوسائل العلمية لتحصيل بعض العلم النافع.

---

(١) انظر ذلك في كتابي «هذه هي زوجتي» ص (٣٢-٣٧)، ص (٩٤-٩٦).

الصفة الرابعة

قدوة حسنة،
قوله يوافق عمله،
وعمله يوافق قوله.

لا يخفى على كل ذي لب عاقل أهمية القدْوة وأثرها فهي الصورة الحية للفكرة، والتطبيق العملي للانتساب الإسلامي والالتزام به.

ومعلوم (أن التأسي بالأفعال بالنسبة لمن يعظم في الناس سرٌّ مبثوث في طباع البشر، لا يقدرون عن الانفكاك عنه بوجه ولا بحال ولاسيما عند الاعتياد والتكرار)[1].

ورحم الله الإمام ابن القيم حيث أبدع في بيان عكس هذه الحقيقة عندما قال: «علماء السوء جلسوا على باب الجنة يدعون إليها الناس بأقوالهم، ويدعونهم إلى النار بأفعالهم، فكلما قالت أقوالهم للناس: هلموا، قالت أفعالهم: لا تسمعوا منهم، فلو كان ما دعوا إليه حقًّا كانوا أول المستجيبين له، فهم في الصورة أدلاء، وفي الحقيقة قطاع الطرق»[2].

هنا يكمن الخطر، أن تكون الصورة خلاف الحقيقة، ومن هنا تظهر لنا أهمية القدوة، فربما يكون الرجل عالمًا في أمور الدنيا كالكمياء والطب ونحوها، وفي نفس الوقت لا يكون قدوة، فليس هناك مشكلة حينئذٍ لأن ذلك لا يفسد حقيقة أنه عالم، إلا علم الدين، فإن كنت عالمًا أو قدوة أو متدينًا مخلصًا، فإنك لابد

(١) «الموافقات» للشاطبي (٤/ ٢٤٩).
(٢) «مقومات الداعية الناجح» للدكتور: علي بن عمر بادحدح ص(٢٧).

أن تكون قدوة لما تدعو إليه وإلا ما استمع إليك أحد، ولا التفت إليك أحد، ولا أخذ منك أحد كلمة واحدة.

وحسب المسلم قول الله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الصف: ٢-٣).

فعندما يكون المسلم الملتزم بواجبات الإسلام وتكاليفه يسلك أحيانًا مسالك تخالف هذا الالتزام بالإسلام، فإنه يكون فتنة للناس يصرفهم بسلوكه عن دين الله، ويقطع الطريق على الناس، فمثله كمثل قاطع الطريق، بل هو أسوأ، وهنا أيضًا يكمن الخطر وتظهر لنا أهمية القدوة.

روى البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**يُؤتى بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه، فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع إليه أهل النار، فيقولون له: يا فلان مالك! ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر، فيقول: بلى كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه**»[1].

إذن من الخطورة بمكان، أن يتكلم الإنسان بلسانه، ويكذب ذلك بأفعاله.

يا واعظ الناس قد أصبحت متهمًا ... إذا عبت منهم أمورًا أنت تأتيها
أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدًا ... والموبقات - لعمري - أنت جانيها

ويقول آخر:

يا أيها الرجل المُعلم غيره ... هلاّ لنفسك كان ذا التعليم
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يُقبل إن وعظت ويقتدى ... بالقول منك وينفع التعليم
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

---

(١) البخاري (٤/ ٩٠) كتاب «بدء الخليقة»، ومسلم (٤/ ٢٢٩١) رقم (٢٩٨٩).

فسلوك المسلم، أحيانًا إن لم يكن كثيرًا أفضل من ألف محاضرة وألف خطبة. سلوك المسلم يحسن خلقه وأدبه ومظهره ومخبره والتزامه بالشرع أفضل ولاشك من كثير من الكلمات والمحاضرات.

ومما يتضح لنا ـ أيضًا ـ أهمية القدوة أن بعض الناس الذين ليس عندهم رغبة في تحصيل العلم الشرعي قراءة أو سماعًا، لو وجدوا أمامهم نموذجًا حيًا يلتزم بالدين التزامًا صحيحًا، لكان ذلك بالنسبة لهم بداية سلوك الطريق المستقيم.

إذن لابد من القدوة الحسنة، لابد أن يكون قدوة حسنة، لاسيما إن كان داعية، أو تظهر عليه سمات الاستقامة على الدين، في مخبره، وفي مظهره، وفي سلوكه وأقواله، في كل شيء يجب أن يكون قدوة حسنة ودعاية حسنة للإسلام.

ولقد كان أصحاب النبي ﷺ نماذج صادقة عن دعوتهم وإسلامهم:

يقول الحسن البصري في صفتهم: «ظهرت منهم علامات الخير في السمت والهدي والصدق، وخشونة ملابسهم بالاقتصاد، وممشاهم بالتواضع، ومنطقهم بالعمل، ومطعمهم ومشربهم بالطيب من الرزق، وخضوعهم بالطاعة لربهم تعالى، واستقادتهم للحق فيما أحبوا أو كرهوا، وإعطاؤهم الحق من أنفسهم؛ ظمئت هواجرهم، ونحلت أجسامهم، واستخفوا بسخط المخلوقين رضىً للخالق، شغلوا الألسنة بالذكر، بذلوا دماءهم حين استنصرهم، وبذلوا أموالهم حين استقرضهم؛ حسنت أخلاقهم، وهانت مؤنتهم»(١).

هكذا كان هذا الرعيل الأول يعطي المثل والقدوة الحسنة، ظاهر يوافق الباطن، وقول يوافق العمل بكل جد وإخلاص.

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصبهاني (٢/ ١٥٠).

أما إذا وجد الناس من يقـول بخلاف ما يعمل، ويعمل بخـلاف ما يقول، فهنا تكون الطامة الكبرى، وهي افتقاد القدوة وافتقاد الثقة.

قال علي بن أبي طـالب ﷺ: إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما عَلِم.

وكان يقال ﷺ: خير من القول فاعله، وخير من الصواب قائله، وخير من العلم حامله.

وقال بعض الصلحاء: العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل.

وقال بعض البلغاء: من تمام العلم استعماله، ومن تمام العمل استقلاله[١].

(وإذا كان الداعـية مجهـولاً عند مستمـعيه، فـإن كلامه يبقى مـعلقًا لا هو بالمقبول ولا هو بالمردود حتى يسألوا عنه، فإن عـرفوا منه الاستقامة والاتباع وقع المعلق من كلامه موقع القبول والتأثير. وإلاَّ فإن كلامه يخرج من اعتبارهم)[٢].

لذا كانت كل حركة مـحسوبة على من كان مستقـيمًا على دين الله تعالى، وكل قول محسوبٌ عليه أيضًا، فلنراجع أنفسنا قبل أن نكون دعاية سيئة لديننا.

(إن الداعية يكسب لدعوته بسلوكه أكثر مما يكسبه لها بخطبه ومواعظه، ذلك لأن الناس ينظرون دائمًـا إلى الدعـاة كنمـاذج حيـة لما يدعـون إليه، ويتـأثرون بسلوكهم العلمي أعظم مما يتأثرون بكلمات حلوة وخطب مؤثرة، وندوات مثيرة.

وإننا لو رأينا عالما نحريراً، وخطيبًا مفـوهًا، ومحدثًا لبقًا يحاضر الناس عن أضرار التـدخين وقد دعم مـحاضـرته بكل الأساليب العلمـية التي تثـبت ضرر

---

(١) استقلاله: أن يجده قليلاً.

(٢) «قواعد الدعوة إلى الله» للدكتور: همام عبد الرحيم، ص(٨٢).

التدخين وتظهر آثاره السيئة، وأحضر النماذج الملموسة التي توضح ذلك وتدل على صدق ما يقول، واجتمع الناس عليه يسمعون في دهشة لما دعم به محاضرته، وقد ملكت عليهم المحاضرة قلوبهم بحديثه، واستولى بحديثه على نفوسهم. وبينما الناس مشدودون إليه لقوة حديثه، وتأثير بيانه أخرج لفافة (سيجارة) من جيبه وأشعلها على مرأى من الحاضرين، ماذا تكون النتيجة؟.

أيصدِّق الناس ما يسمعون، ويكذِّبون ما يشاهدون؟ ألست معي ترى أن هذه السيجارة قد أفسدت كل ما دبجه وأفقدت القيمة الحقيقية لكل ما حبره وزينه؟.

لاشك أن حديثه مع حلاوته وطلاوته لا يمكن أن يتجاوز المقاعد التي كانوا يشغلونها، ولكن صورته وهو ممسك بلفافته لن تفارق أذهانهم، وستظل معهم يتفكهون بها، ويتندرون بها بالحديث عنها لكل من يلقون، أنه بذلك قد كذب نفسه، وكأني بالسيجارة التي بيده تصرخ في الناس: لا تصدقوه (إذ لو كان صادقا في قوله، ما كذب في فعله).

إن سلوك الداعية هو الصورة الحية العملية لدعوته، يراها الناس في سكونه وحركته ووقوفه ومشيته، وبكائه وضحكته، قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ (الأحزاب: ٢١).

إن القدوة العملية تصيب من قلوب الناس أكثر مما تصيب الكلمة مهما كانت طيبة وجيدة ومؤثرة، ولقد حدث ذلك مع رسول الله ﷺ حين أمر أصحابه بعد صلح الحديبية أن ينحروا هديهم ويحلقون رؤوسهم.

يقول ابن القيم: «فلما فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ: **«قوموا فانحروا ثم احلقوا»**، فوالله ما قام منهم رجل واحد حتى قال ثلاث مرات، فلما لم يقم منهم أحد، قام فدخل على أم سلمة رضي الله عنها، فذكر لها ما لقي من الناس،

فقالت أم سلمة ﵂: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج، ثم لا تكلم أحدًا كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حالقك فيحلقك، فقام فخرج، فلم يكلم أحدًا منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنته ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًا»[(١)].

ونحن نلاحظ في هذه الحادثة أن رسول الله ﷺ وهو هو، أمر أصحابه بالنحر ثم الحلق فلم يستجب أحد، كررها ثلاثًا ولم يفعل أحد شيئًا مما دعاهم إليه، فلما أخبر السيدة أم سلمة أشارت عليه بالعمل بدل القول، ولم يكد رسول الله يخرج إلى القوم ويفعل حتى بادر الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بفعل ما امتنعوا عن فعله حين كلمهم.

وهكذا نرى أن القدوة العملية تؤثر في الناس مع الصمت أكثر مما تؤثر الخطب البليغة والعبارات المنمَّقة، فعلى الدعاة أن يكونوا عمليين أكثر منهم قوَّالين حتى تثمر دعوتهم وتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، وعليهم أن يجعلوا بيوتهم قبلة يؤمها القاصدون فيجدون فيها الإسلام حيا يتحرك ممثلاً في الزوجة والأولاد، والآباء والأحفاد، والخدم والأتباع، وعليهم أن يعلموا أن أي تقصير في تطبيق ما يدعون إليه يجعلهم عرضة للقيل والقال والسخرية والاحتقار، ثم لا يكون لدعوتهم أي أثر في القلوب[(٢)].

ولابد أن يعلم الزوج المسلم ـ بصفة خاصة ـ أن القدوة الحسنة لها تأثير كبير في تربية أولاده وأهله، ولها تأثير لا يقل أهمية في تزكيته لنفسه، لذا كانت القدوة من أهم وسائل الإعداد التربوي والاجتماعي والأخلاقي، كما أن القدوة السيئة طريق إلى الفساد والانهيار. لذلك أرشدنا الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ إلى الاقتداء

---

(١) «زاد المعاد» ص (٢/ ١٣٩).

(٢) «أسس الدعوة وآداب الدعاة» للدكتور محمد السيد الوكيل ص(٩٥-٩٧).

والتأسي بهدي الأنبياء ـ عليهم السلام ـ، فقال سبحانه: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** ﴾ (الممتحنة: ٦)، بل إن أعظم قدوة لكل مسلم هو النبي ﷺ، وهو الهادي إلى طريق الحق بأقواله وأفعاله، وجميع شؤونه وأحواله وشمائله.

وقد قال الله تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ (الأحزاب: ٢١).

فاتخاذ القدوة الحسنة أمرٌ لا يستغني عنه المسلم، وهو الطريق لحسن العاقبة في الآخرة، لذا فإنه يجب على الأب أن يحسب لأقواله وأفعاله ألف حساب حتى تكون وفق الشرع، لأنه النموذج العملي للقدوة الحسنة أمام أولاده، فإن افتقدوها تنكبوا الصراط وسلكوا طريق الفساد والضياع، والمشاكل الموجودة في كثير من الأسر اليوم تشهد بذلك.

(فصل) كيف يحقق المسلم القدوة الحسنة؟

١ ـ ملازمة أهل الصلاح:

فلا يستطيع المسلم أن يستقيم على دين الله تعالى بمفرده، إلا أن يقتدي بغيره لاسيما الصالحين، فيتأثر بأخلاقهم وسمعتهم وسلوكهم ووقارهم، مما يؤدي إلى السير على الطريق الصحيح من موافقة القول للعمل، فكما أن مجالسة أهل الدنيا والمتنافسين فيها يشغل عن الطاعة ويؤدي إلى الغفلة، وقسوة القلب، فكذلك مجالسة الصالحين أهل الصلاح تحيي القلوب الغافلة وتلينها بذكر الله تعالى، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: **«إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء، كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يحذيك، وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحا طيباً، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه ريحاً منتنة»**[(١)].

---

(١) متفق عليه.

٢ ـ الإقبال على الطاعات:

فإنها تجعلك دائمًا في جوار الله تعالى، وتصرف عنك شيطانك، وتجعل قلبك يقظًا دائمًا بذكر الله تعالى، ومن كان حريصًا على أداء ما افترض الله تعالى عليه، واجتناب ما حرم الله تعالى، كان مستقيمًا على الدين، قدوة لغيره.

إن الناس عندما يرون الجدية في حياة المسلم بحرصه على الطاعات، ورغبته في الإكثار من النوافل، كان دافعًا قويًا لهم للاقتداء به، فيتأثرون بكلامه وسلوكه، والمسلم الذي يحرص على ذلك إنما هو في حقيقة أمره يزكي نفسه ويُخليها عن دسائسها وآفاتها.

٣ ـ مطالعة أخبار الصالحين والتأمل في سيرهم:

(أكرم الله ـ سبحانه ـ هذه الأمة برجال أطهار، وعلماء، وصالحين أبرار، صارت بأخبارهم الركبان، وحفلت بسيرهم كتب التراجم والتاريخ والوعظ والرقائق، وكانوا مثالاً يحتذى في الالتزام بالإسلام ، والتخلق بأخلاق القرآن، رجال هانت عليهم نفوسهم، وغمرت حلاوة الإيمان قلوبهم، واشتد شوقهم وحنينهم إلى لقاء الله تعالى، وبلوغ جنته، فشمروا عن ساعد الجد، وسارعوا إلى الخيرات، وبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله، رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فكانوا هداة مهتدين.

لقد سلك هؤلاء الصالحون طريق الإيمان، وترقوا في مدارج الإحسان، وجاهدوا أنفسهم، حتى اطمأنت إلى طاعة الرحمن، وتخلصت من أسر

الشهوات، وتطهرت من الآفات، ولم يصلوا إلى هذه المنزلة إلا بطول المجاهدة ولزوم الاستقامة)[١].

فمن يبحث عن النماذج الواقعية في القدوة، ومن يريد أن يسلك الطريق الصحيح للقدوة، فلينهل من معين هذه الأخبار، وليكثر من مطالعتها وتدبرها والوقوف أمامها بتأمل، فإن في سيرهم وتأمل أخبارهم، ومطالعة صفحات أعمالهم، الطريق الصحيح لتحقيق القدوة.

(١) «منهج الإسلام في تزكية النفس» للدكتور: أنس أحمد كرزون (١/ ٤٢٥).

الصفة الخامسة

يعرف كيف يعامل زوجته، وكيف يكسب مودتها، يؤدي حقوقي كلها باقتدار ومودة وحب.

إن معاملة الزوج لزوجته ليس بالأمر العادي، وإنما هو فن يحتاج إلى رجاحة عقل وفطنة وذكاء وسعة صدر، وذلك انطلاقًا من:

١ - قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ (آل عمران: ٣٦).

■ قال ابن كثير - رحمه الله -: أي في القوة والجَلَد في العبادة والمسجد الأقصى[1]، فمعرفة الرجل الفروق الجزئية بينه وبين المرأة، يحمله على مراعاتها، ومعاملتها بأسلوب يتناسب وهذه الفروق؟، وهذه الفروق تظهر في:

(أ) الفروق الجسمية:

(ففترة الحيض مثلاً تصيب المرأة بعدة تغيرات: فيبطؤ النبض، وينقص ضغط الدم، ويقل عدد خلاياه، ويختل الهضم، وتضعف قوة التنفس، وتصاب آلات النطق بتغيرات خاصة، ويبلد الحس، وتتكاسل الأعضاء، وتتخلف الفطنة والذكاء وقوة تركيز الأفكار.

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٣٣) بتحقيق سامي بن محمد السلامة.

وكل هذه التغييرات تدني المرأة الصحيحة إلى حالة المرض إدناءً يستحيل معه التمييز بين صحتها ومرضها.

وفي فترة الحمل أيضًا لا تسلم المرأة الصحيحة من الاضطراب الشديد، فتصاب في مزاجها بالتلون، وفي أفكارها بالتشوش، وفي عقلها بالشرود، وتتخلف فيها ملكات الشعور والتقليد والتأمل والفهم والتعقل، إلى غير ذلك من الفروق الواضحة في القلب، والمخ، والجهاز التنفسي وغيرهم.

■ قال الطبيب أبو بكر الرازي: الأنثى في كل جنس أمْوَت نفسًا، وأقل قوة وجَلَدًا، وأسهل انخداعًا وانقيادًا، وأسرع سكونًا، وأسرع غضبًا، وأشد مكرًا وقحة، هي أيضًا أصغر رأسًا، وألطف وجهًا، وأرق عنقًا، وأضيق صدرًا وأكتافًا، وأقل أضلاعًا، وأعظم وركًا، وأرق ساقًا، وألطف كفًا وقدمًا، وأشد جنبًا، وأسوأ أخلاقًا من الذكر في كل جنس.

(ب) الفروق النفسية:

فعاطفة المرأة أقوى من عاطفة الرجل، ومن هنا كان حنوها على أولادها وعلى أبويها وأخواتها أكثر من حنوّ الرَجل أو أشد ظهورًا.

ومن هنا أيضًا كان إثارة عاطفتها أسرع من إثارة عاطفة الرجل، وكان تأثير عاطفتها أقوى حالاً من تأثير عاطفة الرجل؛ أما تراها إذا خولفت أو نوقشت، أو نيل من صفة من صفاتها الخَلْقية أو الخُلُقية، كيف تغضب وتثور، أسرع مما يفعل الرجل؟!

كذلك إرادة المرأة أضعف تماسكًا من إرادة الرجل، في أكثر ما تريده المرأة، وما أكثر ما تنسى ما تريد، وتُعرض عنه إلى غيره، وما أسرع ما يتغير مرادها، وما أسرع ما تتراجع عنه.

وكذلك شجاعة المرأة أدنى من شجاعة الرجل، وإقبالها على المخاطرة وورود ظلمات الطريق، وغياهب الأمور أقل من الرجل.

(جـ) الفروق الدينية:

وهي عديدة نذكر بعضها فيما يلي:

- تخصيص الرسالة والنبوة بالرجل.
- تخصيص الجهاد الشرعي بالرجل.
- تخصيص المسئولية الأولى في الأسرة بالرجل.
- تخصيص الولاية العليا لشئون الأمة بالرجل .
- تخصيص نقض الزوجية بالرجل.
- اختصاص المرأة بدماء معينة كدم الحيض والنفاس والاستحاضة.
- جعل شهادة المرأة على النصف من شهادة الرجل أمام القضاء.

وأخيراً فإن هذه الفروق بين الرجل والمرأة، لابد أن تعمل لها حساب، وأن توزن بميزان العقل والحكمة، حتى يسير الرجل على أساسها في طريق معاملة الزوجة باقتدار ومودة وحب.

إن مراعاة ظروف الناس وأحوالهم أصل أصيل في كيفية التعامل مع الناس حتى لا نظلم أحداً ولا نُظلم، فكيف الحال والتعامل يكون مع الزوجة، فمن باب أولى مراعاة نفسيتها، وطبيعتها التي خلقها الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ عليها، ومزاجها المتقلب المتغير وهكذا حتى تسير الحياة الزوجية في هناء وسرور[1].

(١) مستفاد من «المرأة المسلمة» لوهبي سليمان غاوجي.

٢ ـ قوله ﷺ : **«إن المرأة خلقت من ضلع، لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها، استمتعت بها وفيها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»**(١).

فالرجل عندما يعلم أن المرأة لا يستقيم حالها ومزاجها دائمًا، فهو يراعي ذلك في معاملته لها.

روي أن رجلاً جاء إلى عمر رضي الله عنه يشكو خُلُق زوجته، فوقف على بابه ينتظر خروجه، فسمع امرأة عمر تستطيل عليه بلسانها وتخاصمه، وعمر ساكت لا يرد عليها، فانصرف الرجل راجعًا، وقال: إن كان هذا حال عمر مع شدته وصلابته وهو أمير المؤمنين فكيف حالي؟، وخرج عمر فرآه موليًا عن بابه فناداه وقال: ما حاجتك أيها الرجل؟ فقال: يا أمير المؤمنين: جئت أشكو إليك سوء خلق امرأتي واستطالتها عليَّ، فسمعت زوجتك كذلك فرجعت، وقلت: إذا كان هذا هو حال أمير المؤمنين مع زوجته فكيف حالي!، فقال عمر: يا أخي، إني احتملتها لحقوق لها عليَّ، إنها لطباخة لطعامي، خبازة لخبزي، غسالة لثيابي، مرضعة لولدي.

٣ ـ قوله ﷺ : **«استوصوا بالنساء خيرًا، فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وكسرها طلاقها، وإن استمتعت بها استمتعت بها وفيها عوج»**(٢)، وعند ابن حبان بلفظ: **«المرأة كالضلع، إن أقمتها كسرتها فدارها تعش بها»**(٣).

فأمر النبي ﷺ هنا بالاستيصاء بالنساء خيرًا، ومعناه أن الحياة لن تستقيم بينهما إلا بذلك، ثم بيَّن النبي ﷺ علة ذلك، وهو أن المرأة خلقت من ضلع أعوج لا يكسر وإلا خرب البيت، وإنما تسير الحياة معها وفيها هذا العوج.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) إسناده حسن.

وقد مر بنا الحديث عن الفروق الموجودة بين الرجل والمرأة حتى يراعيها الرجل في معاملته مع زوجته.

٤ - قوله ﷺ: **«يا معشر النساء تصدقن؛ فإني رأيتكن أكثر أهل النار»**، فقلن: وبم يا رسول الله؟، قال: **«تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لِلُبِّ الرجل الحازم من إحداكن...»** الحديث[1].

وهذا الحديث يدل على ضعف عقل النساء ونقصه، لذا فقد تعيَّن على الرجل أن يعاملها بناءً على ذلك، فلا يؤاخذها بكل خطأ يصدر منها - في غير معصية - بل يحاسب على القليل ويترك الأكثر، وهذا معنى كلام ابن عباس رضي الله عنهما: إني لا أحب أن آخذ حقي كاملاً من امرأتي، وإنما أترك لها بعضه، لأن الله يقول ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة:٢٢٨).

ولذلك في حديث أم زرع المشهور قالت المرأة الخامسة: «زوجي إن دخل فَهِد، وإن خرج أَسِد، ولا يَسأل عما عَهد»[2]، أي أنه إذا دخل البيت كان كالفهد في غفلته عما في البيت من خلل، وعدم مؤاخذته لها على القصور الذي في بيتها، وإذا خرج في الناس فهو شجاع مغوار كالأسد، ولا يسأل عما عهد، أنه يسامحها في المعاشرة على ما يبدو فيها من تقصير، وهذا من أوجه معنى الحديث إن كانت تقصد المدح.

- من أجل ذلك كله، كان لابد من معرفة كيفية معاملة الزوجة:

- التي تختلف كثيراً عن الرجل.
- والتي لا تستقيم للرجل على طريقة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم (١٥/ ٢١٢).

- والتي خلقت من ضلع أعوج.
- والتي هي ناقصة عقل ودين.

أليس ذلك كله كاف بأن يعرف الرجل كيف يعامل زوجته؟

فن التعامل مع الزوجة

إن الرجل هو صاحب هذه المملكة الصغيرة داخل البيت، فإذا أراد السعادة لهذه الأسرة وكذلك الاستقرار والراحة النفسية، فعليه بحسن القوامة داخل البيت، والتي من مظاهرها كيفية التعامل مع الزوجة.

أيها الرجل..

ليس الزواج مجرد متعة وشهوة، أو مجرد تأثيث البيت وإعداده، أو إنجاب الأولاد، أو مجرد الإنفاق على أهل البيت، فإن كثيراً من الرجال قادرون على ذلك ويُقدمون عليه، ولكن الحقيقة الغائبة على الكثير هي أن الزواج حقوق شرعية افترضها الإسلام على كل من الزوجين، بالإضافة إلى حسن التعامل بينهما.

والرجل بصفته القيِّم على البيت تقع عليه مسئولية أكبر في التعامل مع الزوجة، فضلاً عن الأسباب التي ذكرناها آنفًا.

لهذا فإنه ينبغي على الزوج أن يستقي فن التعامل مع الزوجة من سلوك أفضل الخلق ﷺ مع زوجاته، ولذلك قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ** ﴾ (الأحزاب: ٢١).

إن النساء رياحين خُلقن لنا ○●○ وكلنا يشتهي شم الرياحين

فهيًا - أيها الرجل - نرى سويًا المنهج النبوي في فن التعامل مع الزوجة:

أ - ملاطفة الزوجة وتدليلها:

ومن مظاهر ذلك:

- نداء الزوجة بأحب الأسماء أو الصفات إليها، وذلك بتصغير الاسم أو ترخيمه أو نحو ذلك:

فقد كان ﷺ يقول لعائشة رضي الله عنها: **«يا عائش، هذا جبريل يقرؤك السلام»**(١).

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: **«ثلاثة يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته، وأن توسع له في المجلس، وأن تدعوه بأحب أسمائه إليه».**

- ***التقبيل:***

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: **«كان رسول الله ﷺ يقبل إحدى نسائه وهو صائم، ثم تضحك»**(٢).

وعند النسائي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: أهوى النبي ﷺ ليقبلني، فقلت: «إني صائمة»، قال ﷺ: **«وأنا صائم»**(٣).

ولابد أن يعلم الرجل أن التقبيل ليس شهوة فقط، فقد كان النبي ﷺ يقبل وهو صائم، وكانت عائشة رضي الله عنها أيضًا صائمة، ولكنه تقبيل الملاطفة، والدلال والمحبة والألفة، فذلك كله يزرع الحب في القلب.

- ***إطعام الطعام ونحوه:***

فعن سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: **«...وإنك مهما أنفقت من نفقة فإنها صدقة، حتى اللقمة التي ترفعها إلى فيِّ امرأتك هي صدقة»**(٤).

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه النسائي..
(٤) رواه البخاري ومسلم.

وتروي السيدة عائشة ﵂: **«كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب، وأتعرق العِرْق وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضعه على موضع فيَّ»** [١].

فكم هو إحساس المرأة الجميل عندما ترى من زوجها مثل هذه التصرفات المحببة إلى قلبها، والتي تزيد من رابطة المحبة والمودة بينهما، لا كمن يتأفف من زوجته، من موضع طعامها أو شرابها فيؤذيها ويجرح مشاعرها.

▪ ***مضاحكة الزوجة والتبسط معها:***

كما في حديث جابر لما تزوج بامرأة ثيبًا، قال له النبي ﷺ: **«هلاَّ بكرًا تلاعبها وتلاعبك»**، أو قال: **«تضاحكها وتضاحكك»** [٢].

▪ قال الغزالي: «وينبغي مع هذا ألا يتبسط في الدعابة والموافقة ولين الخُلق إلى حد يُسقط هيبته ويفسد خُلقها، بل يراعي الاعتدال في ذلك، فلا يدع الهيبة والانقباض مهما رأى ما يكره، ولا يفتح باب المساعدة على ذلك البتة، بل مهما رأى شيئًا من ذلك تنمر وامتعض.

قال الشافعي: وعلى الجملة فبالعدل قامت السموات والأرض، وكل ما جاوز حده انعكس إلى ضده، فينبغي أن يسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة، ويبتغي الحق في جميع ذلك، ويجرب أولاً أخلاقها ثم يعاملها بما يصلحها على ما يقتضيه حالها» [٣].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) «تحفة العروس ونزهة النفوس» لابن أبي القاسم التيجاني (ص٦٢).

إن هذه الأمور تحتاج من الزوج إلى مزيد تدبر وطول تأمل، وأن يتكلف بل ويتدرب عليها - إن لم يكن من أهلها - حتى تصبح سجية، فتحطم حواجز عديدة بينه وبين زوجته، وتحل مشاكل كثيرة لا يستطيع حلها أهل العلم والصالحون، بل وتشيع البهجة والمودة في جنبات البيت.

٢ - التجاوز عن الأخطاء:

فلا تنس - أيها الرجل - أنك تتعامل مع بشر، وكل بني آدم خطاء، ولا تنس - أيها الرجل - أنك تتعامل مع امرأة خلقت من ضلع أعوج، ولا تنس أيضًا مشاغلها في البيت مع الأولاد، فضلاً عما يعتريها من اعتلال المزاج بسبب الحيض أو النفاس ونحو ذلك كما ذكرنا قريبًا.

لذا فلابد أن يكون العفو منك قريبًا، وغض الطرف عن الهفوات أساسًا وإلا لن تصطحبا.

عن أم سلمة ﵂ أنها أتت بطعام في صحفة لها إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فجاءت عائشة متزرة بكساء ومعها فهر[1]، ففلقت به الصحفة، فجمع النبي ﷺ فلقتي الصحفة، ويقول: **«كلوا، غارت أمكم، غارت أمكم»**، ثم أخذ رسول الله صحفة عائشة فبعث بها إلى أم سلمة، وأعطى صحفة لعائشة وفي بعض الروايات أنه قال: **«إناء بإناء»**[2].

هكذا كان تعامل النبي ﷺ مع هذا الخطأ بهدوء وحسن تصرف، فلم يوبخها النبي ﷺ، ولم يعنفها - لا سيما في وجود صحابته ﷺ - ولم يضربها، بل لم يقل لها شيئًا، إلا أن بيَّن لصحابته ﷺ السبب فيما فعلته

---

(١) فهر: حجر ناعم صلب.

(٢) رواه البخاري، والنسائي واللفظ له.

عـائشة رضي الله عنها حتى لا يظـن أحدٌ ظنًا آخـر فقـال: «**غارت أمكم، غـارت أمكم**»، وهكذا انتهى الموقف بهذه المعالجة النبوية الحكيمة.

إن الرجـل عندمـا يتعـامل مع إخوانه يكـون في حاجـة إلى كظـم غـيظ وعفو وصفح ونحو ذلـك، فما بالنا بزوجته، فإن الأمر يتأكـد أكثر وأكثر ولا سيما إن كانت الزوجة صغيرة. (فصغـر السن يحتاج إلى تقدير ومعرفة بتبعاته من الجـهل والطيش وحدة الانـفعـال وسرعـة الغـضب، والميزة الموجـودة في الصغـيرات يقابلهـا عيوب وقـصور يحتـاج من الزوج إلى سعـة صدر وحلم وصفح وصبر على المعالجة.

ولا شك أن من يصنع ذلك يتـأسى برسول الله ﷺ في زواجـه بالسـيدة عائشة رضي الله عنها، ومقام التأسي لا يقتصر على هذه الحيثية، بل ينبغي أن يتعداها إلى تأسٍ حقيقي وصادق في المعاملة التي صـاحبت هذا الزواج المبارك، قالت السيدة عائـشة رضي الله عنها: «**والله لقد رأينا النبي ﷺ يقدم على باب حجرتي والحبشة يلعبون بالحراب في المسجد ورسول الله ﷺ يسترني بردائه لأنظر إلى لعبهم بين أذنه وعاتقه ثم يقوم من أجلي حتى أكون أنا التي أنصرف، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو**»[(١)].

فانظر لقولها رضي الله عنها: «**فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو**» وضعه نصب عينيك حتى لا تكثر الـشكوى بعد ذلك من أنها فعلت كذا وكذا، وقالت كذا على سبيل الاستغراب؛ وإلا فهذه خيالية مفرطة والاسـتمرارية فيها تستحيل معها الحياة الزوجية)[(٢)].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) «وعاشروهن بالمعروف» للشيخ سعيد عبد العظيم (ص٥٩/ ٦٠).

٣ ـ التزين والتطيب والتجمل للزوجة:

على أن يتم كل ذلك في حدود الشرع، وأن يكون بلا إفراط أو تفريط.

سئلت عائشة رضي الله عنها: بأي شيء كان يبدأ رسول الله ﷺ إذا دخل بيته؟ قالت: **«بالسِّواك»**.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: **«إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي»**، ولا يخفى أن الاهتمام بذلك مما يسر نفس الزوجة، ويعفها عن غيره من الرجال.

دخل على الخليفة عمر رضي الله عنه رجل أشعث أغبر، ومعه امرأته، وهي تقول: لا أنا ولا هذا ـ تعني فرق بيننا ـ يا أمير المؤمنين، فعرف كراهية المرأة لزوجها، فأرسل الزوج ليستحم، ويأخذ من شعر رأسه، ويقلم أظفاره، فلما حضر أمره أن يتقدم من زوجته، فاستغربت المرأة ونفرت منه، ثم بعد ذلك عرفته، فقبلت به ورجعت عن دعواها، فقال عمر رضي الله عنه: **«هكذا فاصنعوا لهن، والله إنهن ليُحْببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزينَّ لكم»**، فعلى الزوج إذن أن يهتم بزينة نفسه، ورائحته، وحسن هندامه أمام زوجته، ولا يظن أنه بإهماله لهذه الأمور لا يقع ضرر على المرأة، وليقتدي بهدي النبي ﷺ في ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الفطرة خمس: الختان، والاستحداد، وقص الشارب، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط»**[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«حُبب إليَّ من دنياكم: الطيب، والنساء، وجُعلت قرة عيني في الصلاة»**[(٢)].

وقد ورد في بعض الآثار: **«اغسلوا ثيابكم، وخذوا من شعركم، واستاكوا، وتزينوا، وتنظفوا، فإن بني إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم»**.

---

(١) متفق عليه، (الاستحداد: حلق العانة وهو الشعر حول الفرج).
(٢) رواه النسائي وأحمد.

٤ . القناعة والرضا بالزوجة:

وهذا لا يتم إلا بوسائل أهمها: غض بصر الزوج عن النساء في الطرقات والمجلات والجرائد ونحو ذلك.

ما أجمل أن يكون الزوج دائم الشكر لله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ على ما منَّ عليه من زوجة تعفه وتقوم على خدمته وراحته وخدمة أولاده، وإلا وقع فريسة للشيطان والهوى في وقت فسدت فيه النساء، وزاد التبرج زيادة مخيفة لا يستطيع أن يثبت أمامها أحد إلا بتقوى الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ ثم بغضٍّ البصر.

وهذا علاج نبوي يحمل الرجل على القناعة والرضا بزوجته.

فعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى امرأة فأتى امرأته زينب رضي الله عنها وهي تَمعُس منيئة لها ـ أي تدلك جلدًا لها ـ فقضى حاجته، ثم خرج إلى أصحابه فقال: **«إن المرأة تُقبل في صورة شيطان، وتدبر في صورة شيطان، فإذا أبصر أحدكم امرأة فليأت أهله، فإن ذلك يرد ما في نفسه»**[(١)].

▪ قال النووي ـ رحمه الله ـ: قال العلماء: إنما فعل هذا بيانًا لهم، وإرشادًا لما ينبغي لهم أن يفعلوه، فعلمهم بفعله وقوله، وفيه ـ أي الحديث ـ أنه لا بأس بطلب الرجل امرأته إلى الوقاع إليها وغيره، وإن كانت مشتغلة بما يمكن تركه، لأنه ربما غلبت على الرجل شهوة يتضرر بالتأخير في بدنه أو في قلبه وبصره والله أعلم[(٢)].

إن من الأزواج من هو قليل القناعة بزوجته، كثير التطلع إلى محاسن غيرها، فلا يقنع بما وهبه الله ولو كان كثيرًا عظيمًا، فإذا رأى امرأة أتبعها بصره،

---

(١) رواه مسلم.

(٢) مسلم بشرح النووي (٣/ ٥٥١).

وربما مال إليها بقلبه، ثم يُرجع بصره إلى زوجته فيرمقها بألحاظ الازدراء، ولربما قاده ذلك إلى الزهد بزوجته، وربما خيانتها في بعض الأحيان.

ولعل من أكثر أسباب التطلع إلى النساء الأخريات: كثرة الاختلاط داخل الأسر وفي أماكن العمل، فليحذر الزوج ذلك ما أمكنه، وليتق الله ربه، فإن ظاهرة التطلع إلى غير الزوجات، وقلة القناعة والرضا بهن من أعظم ما يهدم بنيان الحياة الزوجية.

٥ ـ الاهتمام بالزوجة:

ولذلك صور عديدة، منها: التحدث إليها، والشكاية لها، ومشاورتها في بعض الأمور، حتى تشعر المرأة بكيانها وقدرها داخل البيت.

إن زوجتك قبل كل شيء بشر، لها أحاسيسها ومشاعرها، وهي تطلب منك ما تطلبه أنت منها، من الاهتمام بها ومعرفة قدرها ومكانتها، ومجالستها والحديث معها لاسيما وإن ذلك فيه نوع من الترفيه عنها من عناء مسئوليتها داخل البيت.

وفي حديث أم زرع الشهير الذي قصته عائشة على النبي ﷺ، قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: وفي هذا الحديث من الفوائد غير ما تقدم: حسن عشرة المرء أهله بالتأنيس، والمحادثة بالأمور المتاحة ما لم يُفض ذلك إلى ما يمنع، وفن المزاح أحيانًا، وبسط النفس، ومداعبة الرجل أهله، وإعلامه بمحبته لها ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة تترتب على ذلك من تجنيها عليه وإعراضها عنه[1].

والشكاية للزوجة، واستشارتها يُشعر المرأة بقيمتها وحبها، ولن تُعدم ـ أيها الزوج ـ رأيًا رشيداً منها في بعض الأحيان.

---

(١) انظر «فتح الباري» (٩/ ١٦٣) حديث رقم (٥١٨٩).

■ **لماذا لا يلجأ الرجل إلى امرأته لاستشارتها في بعض الأمور؟**

فهـذا النبي ﷺ في صلح الحـديبيـة لما أمر أصحـابه بأن ينحـروا الهدي ويحلقوا رؤوسهم، لم يتـقدم أحدٌ من الصحابة لفعل ذلك، فـهم كانوا يرغبون في دخول مكة.

فدخل النبي ﷺ مهمـومًا حزينًا على زوجته أم سلمة رضي الله عنها في خيـمتها، فسـألته، فأخـبرها ﷺ بما حدث، فـقالت رضي الله عنها: يا رسول الله اخـرج وانحر هديك واحلق رأسك، فخرج النبي ﷺ فنحـر وحلق، ثم لمَّا رأى الصحابة ما فعله النبي قاموا كلهم فحلقوا ونحروا.

وهذا إن دلَّ، فإنما يدل على استشارة النبي ﷺ ـ خير الخلق ـ زوجته في أمر يهمه، وقد أشارت عليه بما يثلج صدره ويحل المشكلة.

أيها الزوج الحبيب..

اجعل لزوجتك عندك ـ رغم كل مشاغلك مهما كانت ـ وقتًا للحديث معها والجلوس معها ولن تندم، بل سيزداد الحب والمودة.

أين الأحاديث الحسان عن جمال عيونها، وعذوبة ألفاظها، وذوقها، وحسن اختيـارها لملابسها وملابس أولادها، وإعـدادها لبيتها، وعن الإعـجاب بعطرها وجمالها، وعن الثناء على ما تقوم به من خدمته وخدمة أولادها وبيتها.

(وينبـغي للزوج المسلم أن يدرك الأخطار قـبل وقوعـها، فـيشـعر زوجـته بالإيناس ويسليهـا بتحديثها عن آمـاله وآلامه، وأشواقه وأحـلامه، وأحواله في عمله مثلاً، ومـواقف الحياة الطريفة.. وأخبار العالم وأحـداثه المثيرة، ومواقف للدعوة والدعاة.. والسؤال عن أحوالها وأخـبارها وشئونها .. إلى غير ذلك مما يصل حبال الأنس بينهما.

وينبغي للزوج المسلم أن يشعر زوجته بقوة ارتباطه بها، وعظم اهتمامه بها، وأنها في بؤرة شعوره لا هامشه، في سويداء قلبه لا جوانبه.

خيالك في عيني وذكرك في فمي ⁂ ومثواك في قلبي فأين تغيب

فلا يشغله عنها كثرة الأعمال: سواء كانت تجارة وجمع مال لتحسين الحال، أو كثرة الأسفار والحل والترحال، أو طلب العلم، أو شئون الدعوة..

كل ذلك لا ينسيه حقها من المؤانسة والتسلية، كيف ينسيه ومن هو أكثر منه مشاغل، وأعظم تبعة كان حريصًا على هذا الجانب، لا يغفله في حضر ولا سفر؟!

تلك هي العظمة التي توازن بين المطالب والحقوق، فلا يطغى جانب على جانب، بل يعطى كل ذي حق حقه بالعدل والميزان، بلا زيادة ولا نقصان.

حينها تسير سفينة الحياة الزوجية آمنة في غاية الاستقرار، مصونة من الأعاصير والخطار.

فاحذر - يا أخي الزوج المسلم - أن تجعل حياتك وتصرفاتك أمام زوجتك ألغازًا وأسرارًا، ولكن أشركها معك في أمورك، وأطلعها على أحوالك بقدر، وإن كان لابد من ستر شيء هام، فعوضها عن ذلك بما يُذهب وحشتها، ويؤنس وحدتها، تنل حبها وثقتها، وتحقق سعادتها. وارجع دائمًا إلى هدي خير الأزواج ﷺ، وتأمل فيه وتدبر، واجتهد واعمل.

وعليك بكتب المُلَح والطرائف من أخبار الأذكياء، والبخلاء، والحمقى والمغفلين، ونوادر العرب، وغيرها، ففيها زاد طيب)[1].

---

(١) «كيف تسعد زوجتك» محمد عبد الحليم حامد (ص٣٢١).

٦ ـ مداراة المرأة وعدم التضييق عليها والاعتذار إليها:

عن أنس بن مالك ﷺ قال: «كانت صفية مع رسول الله ﷺ في سفر، وكان ذلك يومها، فأبطئت في المسير، فاستقبلها رسول الله ﷺ وهي تبكي وتقول: حملتني على بعير بطيء، وكان الرسول ﷺ أخطأ بسبب ذلك، فماذا فعل رسول الله ﷺ وكيف تصرف؟، فقام النبي ﷺ فجعل يمسح بيديه عينيها ويُسكِّتُها»[(١)].

فما أجمل هذه الأخلاق؟ وما أرفع هذا السلوك؟

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: جاء أبو بكر ﷺ يستأذن على النبي ﷺ فسمع عائشة وهي رافعة صوتها على رسول الله ﷺ، فأذن له فدخل فقال: يا ابنة أم رَوْمان، وتناولها ـ أي غضب عليها، وفي رواية: ضربها ـ أترفعين صوتك على رسول الله ﷺ، قال: فحال النبي ﷺ بينه وبينها، فلما خرج أبو بكر جعل النبي ﷺ يقول لها يترضاها، فقال النبي ﷺ: **«ألا تَرَيْن أني قد حُلت بين الرجل وبينك»**، قال: ثم جاء أبو بكر فاستأذن عليه فوجده يضاحكها، قال: فأذن له، فدخل فقال أبو بكر: يا رسول الله أشركاني في سِلْمكما كما أشركتماني في حربكما[(٢)].

فهذا هو النبي ﷺ يعتذر لعائشة ﷺ رغم أنها هي التي أخطأت برفعها صوتها على النبي ﷺ، ولكنه الخلق الرفيع منه ﷺ.

ما يُضير الرجل حين يعتذر لزوجته، ويلاطفها؟!

---

(١) أخرجه النسائي في «عشرة النساء».

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند»، وأبو داود في «سننه»، وصححه الألباني.

وما أجمل قاعدة أبي الدرداء ﷺ حين قال لزوجته: «إذا رأيتيني غضبت فرضِّني، وإذا رأيتك غضبت رضَّيتك، وإلا لم نصطحب».

وإن من الأزواج (من يكثر لوم زوجته وانتقادها عند كل صغيرة وكبيرة، فتراه ينتقد الطعام الذي تعده الزوجة، وتراه يعاتبها إذا بكى الصغار أو كثر عبثهم، وتراه يبالغ في تأنيبها إذا نسيت أو قعدت في شأن من شؤونه.

فالزوج العاقل الكريم، لا يعاتب زوجته عند أدنى هفوة، ولا يؤاخذها بأول زلة، بل يلتمس لها المعاذير، ويحملها على أحسن المحامل.

وإن كان هناك ما يستوجب العتاب عاتبها عتابًا لينًا رقيقًا تدرك به خطأها دون أن يهدر كرامتها أو ينس جَميلها.

ثم ما أحسن أن يتغاضى المرء ويتغافل، فذلك من دلائل سمو النفس وشفافيتها وأريحيتها، كما أنه مما يعلي المنزلة، ويريح من الغضب وآثاره المدمرة.

وإن أتت المرأة ما يوجب العتاب فلا يحسن بالزوج أن يكرر العتاب، وينكأ الجراح مرة بعد مرة، لأن ذلك يفضي إلى البغيضة، وقد لا يبقى للمودة عينًا ولا أثرًا.

ولا يعني ما مضى أن يتساهل الزوج في تقصير الزوجة في الأمور المهمة من نحو القيام بالواجبات الدينية، أو رعاية الآداب الشرعية، أو التزام ما تقضي به الصيانة والعفة، فهذه أمور يجب أن توضع على رأس الأشياء التي لا يقبل التنازل عنها بحال)[١].

---

(١) «نظرات في الأسرة المسلمة» (ص٧٢،٨٩)، من «أخطاء الأزواج» لمحمد بن إبراهيم الحمد (ص٣٧-٣٩) بتصرف.

فعلى الزوج أن يكون عنده شيء من التغافل في معاملته لزوجته، ولذا قالت المرأة الخامسة في حديث أم زرع عند البخاري ومسلم: «زوجي إن دخل فهد، وإن خرج أسد، ولا يسأل عما عهد»، فإن كانت تقصد مدحه فمعنى ذلك أنه يأتيها بأشياء من طعام وشراب ولباس، ولا يسأل أين ذهبت هذه ولا تلك.

٧ - إظهار المحبة والمودة للزوجة:

وهذا يكون إما بالقول، وإما بالفعل.

فأما بالقول: فقد قال ﷺ في آخر حديث أم زرع الطويل لعائشة: «**كنتُ لك كأبي زرع لأم زرع**» أي: في الألفة والوفاء.

قال ابن حجر في ذكره لفوائد حديث أم زرع: وفيه - أي في الحديث - «... ومداعبة الرجل أهله وإعلامه بمحبته لها ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة تترتب على ذلك من تجنيها عليه وإعراضها عنه»[١].

وعلى الزوج أن يختار من الكلام ما تحب المرأة سماعه، وأن يتجنب من الكلام ما لا تحبه، وعليه أيضًا أن يهتم بحديثها إذا حدثته وأن يثني عليها إذا أصابت الحق في مسألة ما أو مشكلة، فإن ذلك ولا شك يطيب قلبها نحوه ويؤنسها في وحدتها إذا غاب عنها ويشعرها بمكانتها من نفسه، وقربها من قلبه.

فأما بالفعل: فقد روى مسلم عن عائشة ﵁ قالت: «كنت أشرب وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ فيشرب، وأتعرق العَرْق[٢] وأنا حائض ثم أناوله النبي ﷺ فيضع فاه على موضع فيَّ».

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ١٦٣).

(٢) أتعرق: أي آخذ منه اللحم بأسناني.

- **العرق:** هو العظم عليه بقية من لحم.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يتكئ في حجري وأنا حائض فيقرأ القرآن».

ليتدبر الأزواج كيف كان يهتم النبي ﷺ بمؤانسة الزوجة وإشعارها بمحبتها، حتى إنه ليتتبع موضع فمها ويضع فمه عليه بكل حب وسرور.

وكيف كان ﷺ لا يتقزز ولا يشمئز من زوجته بسبب حيضتها، فيتكئ في حجرها، ويقرأ القرآن.

٨ ـ التعاون على طاعة الله تعالى:

من العبادات والنوافل والأذكار، ففي ذلك مرضاة لله تعالى، وإحياء للطاعات في البيت، وطرد الشيطان منه، فما أحلى من أن نرى زوجين صالحين يتعاونان على طاعة الله تعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها ـ أي في مُصلاها ـ ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: **«مازلت على الحال التي فارقتك عليها»**، قالت: نعم، قال النبي ﷺ: **«لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته»**(١).

■ فانظر أيها الزوج الحبيب: كيف يوجه النبي ﷺ زوجه ويرشدها إلى عبادة من العبادات.

---

(١) رواه مسلم، وأحمد في «مسنده».

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «وكان النبي ﷺ يصلي وأنا راقدة معترضة على فراشه، فإذا أراد أن يوتر أيقظني فأوترت»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«رحم الله رجلاً قام من الليل فصلى وأيقظ امرأته فصلت، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت في وجهه الماء»**(٢).

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: قالا: قال رسول الله ﷺ: **«من استيقظ من الليل وأيقظ امرأته فصليا ركعتين جميعًا، كتبا من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات»**(٣).

ما أجمل أن يذكر الرجل زوجته بأذكار الصباح والمساء خشية أن تكون قد انشغلت عنها بسبب الأولاد والعمل في البيت، كذلك يسألها عن وردها القرآني وغير ذلك من مثل العبادات التي مر ذكرها في الأحاديث السابقة.

(ولما كان الوقت وقت غربة وجهالة وقد سيطرت الحياة المادية بعضها وتصوراتها على عقول الخلق، وانصرف الرجال قبل النساء عن تعلم ما يجب عليهم، فإذا ما أردنا اليوم أن نعود بالأمة إلى سيرتها الأولى فعلينا أن نتشبه بسلفنا الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ في حرصهم على كل ما يقربهم من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

والرجل له القوامة على المرأة، وهي محبوسة عليه لا تخرج من البيت إلا بإذنه، ولذلك وجب عليه أن يقوم على تعليمها التعليم الصحيح غير المغلوط، فيعلمها ما جهلت من دين الله إذا كانت عنده الأهلية والكفاءة على

---

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه أبو داود، وحسنه الألباني.
(٣) رواه أبو داود، وصححه الألباني.

ذلك، أو يأخذها لمن يعلمها، فإذا احتاجت للسؤال لتعلم العلم الواجب فمنعها فهو آثم بمنعها، وإن استطاع نقل المسألة لها بدقة أو استطاعت هي التعرف على حكم المسألة بمطالعة مثلاً فلا مانع من ذلك.

والورع الكاذب يدعو البعض أحيانًا إلى حجب النساء عن الخروج لتعلم دين الله مع علمه ومعرفته باحتياجها لذلك وعدم قدرته على تعليمها، والناس في هذه القضية وغيرها طرفي نقيض: طرف يسمح لنسائه بتعلم الهندسة والزراعة حتى مع الاختلاط، بل وقد يمنعها في ذات الوقت من الذهاب للمسجد.

والطرف الآخر: هو الذي ذكرناه، ولعله تزوج بامرأة صغيرة السن ثم بعد ذلك يستغرب بأنها تفعل كذا وكذا من المعاصي، وما درى المسكين بأن الجهل بدين الله هو سبب كل معصية، وما عُصي الله بمعصية أعظم من الجهل بالدين، فليس من المعاشرة بالمعروف حبس المرأة جاهلة بدين الله)(١).

إن من مظاهر (التقصير في حق الزوجات قلة الحرص على تعليمهن وتربيتهن، وتفقيههن بأمر دينهن، بل قد يكون الرجل ذا صلاح وتقى وعلم ودعوة، ومع ذلك لا يحرص على إيصال الخير إلى زوجته وأهل بيته.

من الناس من يصل الأبعدين ... ويشقى به الأقرب والأقرب

ولاريب أن هذا خطأ وجهل، فالجهل داءٌ وبيل، ومرتع صاحبه وخيم، فإذا كانت الزوجة جاهلة أمر دينها لم تعرف حق زوجها، ولم تستطع أن تربي أولادها وترعى منزلها كما ينبغي، ولم تقم بعبادة ربها على الوجه الذي يرضيه - عزَّ وجلَّ -)(٢).

---

(١) «وعاشروهن بالمعروف» للشيخ سعيد عبد العظيم ص (١٣٩-١٤٠).
(٢) «من أخطاء الأزواج» ص(٢٧-٢٨).

▪ قال الشيخ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ: «فكيف يمكن للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها إجمالاً وتفصيلاً؟

وكيف تسعد في الدنيا والآخرة أمَّة نصفها كالبهائم لا يؤدي ما يجب عليه لربه، ولا لنفسه، ولا للناس، والنصف الآخر قريب من ذلك لأنه لا يؤدي إلاَّ قليلاً مما يجب عليه من ذلك ويترك الباقي، ومنه إعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه، أو إلزامه بما له عليه من السلطة والرياسة؟»[(١)].

٩ ـ المزاح والمرح مع الأهل:

عن عائشة ﵂ قالت: زارتنا سودة يومًا فجلس رسول الله ﷺ بيني وبينها، إحدى رجليه في حِجري، والأخرى في حجرِها، فعملت له حريرة أو قال خزيرة فقلت: كُلي، فأبت، فقلت: لتأكلي أو لطخت وجهك، فأبت، فأخذت من القطعة شيئًا فلطخت وجهها، فرفع رسول الله ﷺ رجله من حجرها لتستقيد مني، فأخذت من القطعة شيئًا فلطخت به وجهي ورسول الله ﷺ يضحك[(٢)].

وعن عائشة ﵂ أيضًا قالت: كنت مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال لأصحابه: «**تقدموا**»، ثم قال لي: «**تعالي أسابقك**»، فسابقته فسبقته على رجليَّ، فلما كان بعدُ خرجت معه في سفر، فقال لأصحابه: «**تقدموا**»، ثم قال: «**تعالَي أسابقك**»، تقول: ونسيت الذي كان وقد حملت اللحم، قلت: كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذا الحال؟! فقال: «**لتفعلنَّ**»، فسابقته فسبقني، فقال: «**هذه بتلك السبقة**»[(٣)].

---

(١) «نداء للجنس اللطيف» ص(٣٣).

(٢) رواه النسائي والبخاري في «الأدب المفرد». والحريرة أو الخزيرة: نوع من الطعام فيه قطع لحم صغيرة مع شيء من الدقيق والماء.

(٣) رواه النسائي وابن ماجه وصححه الألباني.

فرسول الله ﷺ مع ما يتحمله من مسئوليات جسام لم ينس أبداً حسن المعاشرة مع أهله، وكانت هذه الصورة الطيبة التي تصفع وجوه بعض الرجال الذين يفهمون أن العلم والخشوع والالتزام الجاد بالدين، يحمل الزوج على معاملة الزوجة معاملة بلا تدليل أو مرح أو مزاج! أليس في رسول الله ﷺ القدوة لمثل هؤلاء؟!.

وعن عائشة ﵂ أيضًا قالت: كنت أغتسل أنا ورسول الله ﷺ من إناء بيني وبينه، تختلف أيدينا عليه، فيبادرني حتى أقول: دع لي .. دع لي، قالت: وهما جنبان[١] .

فسبحان الله المزاح والمرح في بيت النبوة حتى وقت الغسل.

ودخل عليٌّ بن أبى طالب ﵁ على زوجته فاطمة ﵂ ورأى في فمها عود آراك، فأراد أن يداعب ويمازح زوجته فقال بيتين جميلين من الشعر، قال يخاطب عود الآراك في فم فاطمة:

حظيتَ يا عود الآراك بثغرها ٭٭٭ أما خفتَ يا عود الآراك أراكا

لو كنت من أهل القتال قتلتك ٭٭٭ ما فازمني يا سواكُ سواكا

فأين ذلك من كل أولئك الأزواج الذين يغلب عليهم الجد لدرجة الجفاف والجمود، فتذهب من عندهم خفة الروح، فتشقى بهم زوجاتهم.

ولا يتحرج البعض من ذلك بدعوى أنه مثلاً غفلة عن ذكر الله تعالى، فإن النبي ﷺ وهو خير الخلق وأخشاهم وأتقاهم لله هو الذي ضرب لنا أروع الأمثلة في مداعبة الرجل أهله وممازحتهم، وهو الذي قال أيضًا: **«كل شيء ليس من ذكر الله لهو ولعب إلا أن يكون أربعة: ملاعبة الرجل امراته، وتأديب الرجل فرسه، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة»**[٢] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه النسائي. والغرضان: الهدفان في الرماية، ويدخل فيه السباق أيضًا.

ولابد أن ننتبه لأمر مهم وهو أن كل ذلك يتم بقدر لا إفراط فيه.

١٠ ـ مساعدتها إذا تعبت:

عن الأسود قال: سألت عائشة رضي الله عنها: ما كان النبي ﷺ يصنع في بيته؟ قالت: «يكون في مهنة أهله ـ تعني خدمة أهله ـ فإذا حضرت الصلاة خرج»(١) وفي رواية: «فإذا سمع الأذان خرج»(٢).

■ قال ابن حجر: والمراد بالأهل نفسه أو ما هو أعم من ذلك.

وعن الترمذي عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «ما كان إلا بشرًا من البشر، يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه».

■ قال ابن حجر: وفيه الترغيب في التواضع وترك التكبر وخدمة الرجل أهله.

من أجمل اللحظات وأسعدها حين تجد الزوجة زوجها يقف بجوارها، يعاونها ويخفف عنها أعباء البيت، لاسيما إن كانت مريضة أو متعبة، وذلك بنفس راضية، وصدر منشرح، وقلب رحيم، يدفعه إلى ذلك المثل والقدوة في شخص رسول الله ﷺ في بيته.

وما أسوأها من لحظات حين تجد الزوجة زوجها بعيدًا عنها، لا يشاركها شؤونها إذا تعبت، ولا يخفف عنها إذا مرضت، تجد نفسها وحيدة مجهدة والزوج لا يبالي ولا يهتم، بل يرى العرق يتصبب من جبينها، ولا تستطيع أن تلتقط أنفاسها أو تستريح من كثرة الأعمال، وهو جالس مستريح، لأنه رجل لا يعمل ولا يشارك، بل يكفيه العمل خارج البيت.

(١) رواه البخاري «الفتح» (٢/ ١٩١).
(٢) «الفتح» (٩/ ٤١٧).

وأنا أقول للزوج: نعم يكفيك العمل خارج البيت، ولكن أريد منك مشاركة زوجتك ومعاونتها وقت المرض والتعب لاسيما أثناء فترة الحمل والولادة والمرض.

أليس من المودة والرحمة، وإدخال السرور على قلب الزوجة، حينما ترى من شريك حياتها المعاونة وحسن التقدير لها، ومراعاة ظروفها ونفسيتها، في الوقت الذى لا ينقص ذلك من رجولة الرجل شيئًا، بل يزيده عزًا ووقارًا، وتقديرًا واحترامًا.

١١ - مراعاة شعورها ونفسيتها وتطييب خاطرها:

ينبغي للزوج أن يكون عالمًا حاذقًا بنفسية زوجته ومشاعرها، فهو يعيش معها إن شاء الله عمرًا مؤبدًا، وذلك حتى يستطيع أن يتعامل معها بالأسلوب المناسب.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله ﷺ: **«إني لأعلم إن كنت عني راضية، وإذا كنت عليّ غضبى»** قالت: فقلت: من أين تعرف ذلك؟ فقال: **«أما إذا كنت عني راضية فإنك تقولين: لا ورب محمد، وإذا كنت غضبى قلت: لا ورب إبراهيم»** قالت: أجل والله يا رسول الله، ما أهجر إلا اسمك[1]. فهذا الرسول ﷺ يعرف نفسية زوجته من خلال قسمها.

وعن أنس قال: بلغ صفية أن حفصة قالت: إنها بنت يهودي، فبكت، فدخل عليها النبي ﷺ وهى تبكي، فقال: **«ما يبكيك؟»** قالت: قالت لي حفصة: أنت ابنة يهودي، فقال النبي ﷺ: **«إنك لابنة نبي، وإن عمك لنبي، وإنك لتحت نبي، فبم تفتخر عليك؟»** ثم قال: **«اتق الله يا حفصة»**[2].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه النسائي والترمذي.

إن الزوج المسلم ينبغي أن يكون قلبه رقيقًا، ونفسه حساسة يشعر بآلام زوجته دون أن تصرح، فيشاركها آلامها، ويخفف عنها أحزانها، ويطيب خاطرها بالكلمة الطيبة، والبسمة الحانية، فيدخل على قلبها المكلوم السعادة والسرور.

وهذا ما فعله النبي ﷺ مع زوجته صفية، حيث طيب خاطرها وأزال همها وغمها (وهذا الخلق ينبغي أن يتحلى به الزوج، ليشيع السعادة فى أسرته، لأنه قد تمر بالزوجة أزمات، من مرض أو مشكلات، أو تقصير من الزوج وإساءات، فتبقى كاسفة البال، تعيسة الحال، صريعة الصداع والدواء، تحتاج بشدة إلى زوجها يخفف عنها ببسمة حانية، وبنبرة صافية، أو عزاء جميل، أو مشاركة وجدانية، تمسح عنها عناء الآلام، وتداوي الأسقام، وتجبر الخاطر المكسور، وتضمد القلب المكلوم، فتتبدل الهموم أفراحًا، والأحزان سرورًا، والتعاسة سعادة)[1].

١٢ ـ الحذر من شتمها وضربها والإساءة إليها:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١).

وقال أيضًا: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (النساء: ١٩).

وقد بلغ النبي ﷺ أن رجالاً يضربون زوجاتهم، فقال ﷺ: **«ما أولئك من خياركم، خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي»**[2].

(١) «كيف تسعد زوجتك» ص (٩١).

(٢) رواه الترمذي وهو صحيح.

وقال أيضًا ﷺ : **«أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا، وخياركم خياركم لنسائهم»**[١] .

وقال ﷺ أيضًا حين سئل: ما حق زوجة أحدنا عليه؟ قال: **«لا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلاَّ في البيت»**[٢] .

إن الواقع يشهد صوراً مشينة وسيئة لبعض الأزواج في علاقتهم بزوجاتهم فالبعض يشتم لأتفه الأسباب، وأصبحت الألفاظ الجارحة بل والنابية في لسانه كالكلام العادي، وإذا ما نصح في ذلك قال: أنا تعودت على ذلك ولا أقصد منه شيئًا، لأنني أكون في حالة غضب، والله أعلم بنيتي!!.

وبالطبع فإن هذه الأعذار الواهية لا تسمن ولا تغني من جوع، لأنها شرعًا وعرفًا إساءة بالغة للزوجة، ولا نعتقد أن في الكون امرأة لا يؤثر في نفسيتها مثل هذا الأسلوب الشائن البغيض.

وكذلك من سوء العشرة الضرب بلا ضوابط ولا حدود، بل على الأمر الصغير والكبير، فيكسر عظمًا أو يجرح وجهًا أو يؤلم موضعًا في جسدها، وكأنه يعيش مع حيوان.

إن ضرب الرجل لزوجته في الشرع له أسبابه وحدوده وضوابطه وصفته، وليس الأمر متروكًا لكل رجل يفعل ما يشاء، وإلا فأين حياة المودة والرحمة بين الزوجين[٣] .

---

(١) رواه أبو داود وأحمد وصححه الألباني «الصحيحة» (٢٨٤).

(٢) رواه أبو داود وابن حبان وصححه الألباني «إرواء الغليل» (٢٠٣٣).

(٣) تفصيل ذلك في الكلام عن الصفة الرابعة عشرة.

١٣ - التوسيع على الزوجة في المطعم والملبس والنفقة:

قال تعالى: ﴿ أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ (الطلاق:٦) أي: أسكنوهم بعض مكان سكناكم، ولتسكن إذا لم يكن إلا بيت واحد في بعض نواحيه من وسعكم أي: مما تطيقونه، ولا تستعملوا معهن الضرار في السكنى، فتلجؤهن إلى الخروج بشغل المكان أو بإسكان من لا يرون السكن معه ونحو ذلك.

وقال تعالى: ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا ﴾ (الطلاق:٧)، أي: لينفق كل واحد من المعسر والموسر ما يبلغه وسعه، ومن ضيق عليه رزقه فلينفق بقدر ما أعطاه الله تعالى من الطاقة.

وقال ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يعول**»(١).

وقال ﷺ أيضًا: «**افضل دينار ينفقه الرجل دينار ينفقه على عياله**»(٢).

وقال أيضًا: «**من أنفق على امرأته وولده وأهل بيته يحتسبها فهو صدقة**»(٣).

لذا فإنه ينبغي على الزوج المسلم أن ينفق بلا تقتير، وأن يكون سخيًا بلا تبذير أو مخيلة، تتحقق له السعادة داخل البيت، له ولمن يعول.

إن الزوج المسلم يكون كريمًا حينما يلبي طلبات أهله أولاً بأول بلا إسراف أو مخيلة حتى يعفهم عن النظر إلى غيرهم ما دام في قدرته ذلك، وليس في تلك الطلبات مشقة أو إرهاق له.

---

(١)، (٢) متفق عليهما.

(٣) رواه مسلم والترمذي.

إن الزوج المسلم يكون كريمًا سخيًا حين ينتهز الفرص والمناسبات السارة فيوسع على أهل بيته، فتارة بهدية فاخرة من ذهب أو ملبس، أو عطور أو طعام ونحو ذلك، وتارة بكلمة طيبة يفهم منه أهل البيت أنه يتمنى أن يأتي لأهل بيته بكل شيء لو أعطاه الله ووسع عليه.

(إنَّ من الأزواج من يقتر على زوجته، ويقصر في الإنفاق عليها من شدة حاجتها، ومع قدرة الزوج ويساره.

وأعظم من ذلك أن يبخل الزوج على زوجته بالنفقة الواجبة في الوقت الذي يجود بماله ذات اليمين وذات الشمال على رفاق السوء، وفي ولائم الرياء، ورحلات الفساد، فتراه ينفق الأموال الطائلة في سبيل لذاته وشياطينه، وإذا سأله أهله بذل القليل أعرض ونأى بجانبه.

وكم من بيوت يجثم عليها البؤس، وتخيم عليها سحائب الشقاء بسبب تقتير الزوج وتقصيره في النفقة.

فمن حق الزوجة على زوجها أن ينفق عليها بالمعروف، والمراد بالنفقة ههنا ما يفرض للزوجة من مال للسكنى والطعام والحضانة واللباس، وما إلى ذلك مما تصان به حرمة الزوجة من الابتذال، وما تحفظ به صحتها وكرامتها، كل ذلك في حدود الطاقة والوسع ولا تقتير، ولا منَّةً ولا أذى.

وإن تكرَّم وزاد على الحدِّ الواجب، كأن يقدم لها ما يشرح صدرها وتقر به عينها من نحو الهدية، والبذل والعطية فحسن، ولا يعني ذم التقتير أن يُطلق الزوج يده فينفق الأموال الطائلة في سبيل الأمور التافهة.

ثم إذا بليت الزوجة بزوج يقتر عليها فصبرت واحتسبت فلها الأجر والثواب من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ)[1].

---

(١) «من أخطاء الأزواج» ص (٣١-٣٥) باختصار.

١٤ ـ عدم التساهل مع الزوجة فيما يغضب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا متسترة بقرام[1] فيه صورة، فتلون وجهه ثم تناول الستر فهتكه، ثم قال: **«إن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يشبهون بخلق الله»**[2].

وعنها قالت: حشوت وسادة للنبي ﷺ فيها تماثيل كأنها نمرقة، فقام بين البابين، وجعل يتغير وجهه، فقلت: ما لنا يا رسول الله؟ قال: **«ما بال هذه الوسادة»**، قالت: وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها، قال: **«أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة، وأن من صنع الصور يعذب يوم القيامة، فيُقال: أحيوا ما خلقتم»**[3].

إن من مظاهر التقصير في حق الزوجات قلة الحرص على تعليمهن، وتربيتهن، وتفقيههن بأمر دينهن كما ذكرنا من قبل، لذا يجب على الزوج تعليم أهله الحلال والحرام حتى تتجنبه، وحتى لا يظهر البيت المسلم في صورة البيت المقصر الذي لا يبالي بالمنكرات.

قال السيد محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ: «فالواجب على الرجال بمقتضى كفالة الرياسة أن يعلموهن ما يمكنهن من القيام بما يجب عليهن»[4].

وقال: «فكيف للنساء أن يؤدين تلك الواجبات والحقوق مع الجهل بها إجمالاً وتفصيلاً؟

---

(١) أي: ستارة.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البخاري.
(٤) «نداء للجنس اللطيف» ص(٣٢).

وكيف تسعد في الدنيا والآخرة أمة نصفها كالبهائم لا يؤدي ما يجب عليه لربه، ولا لنفسه، ولا للناس، والنصف الآخر قريب من ذلك، لأنه لا يؤدي إلا قليلاً مما يجب عليه من ذلك، ويترك الباقي، ومنه إعانة ذلك النصف الضعيف على القيام بما يجب عليه، أو إلزامه بما له عليه من السلطة والرياسة؟»[٢].

ولهذا كان واجبًا على الزوج أن يعلم زوجته أمور دينها ولو على سبيل الإجمال فيعلمها أصول الدين من الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

ويرسخ في قلبها حب الله، وخوفه، ورجاءه، ومراقبته، والتوكل عليه، والإنابة إليه.

ويعلمها أحكام الطهارة بأنواعها، من الجنابة، والحيض، والنفاس.

ويعلمها أحكام العبادات، ويحضها على القيام بها، خاصة الصلاة في وقتها، ومع الحرص على إتمامها بأركانها، وواجباتها، وسننها.

ويعلمها نوافل العبادات مما يقربها إلى ربها ـ عزَّ وجلَّ ـ ويعلمها فضائل تلك الأعمال، حتى تنبعث إلى فعلها.

ويعلمها حقوق الزوجية، ومكارم الأخلاق من حلم، وصبر، وصدق، وأناة، ووفاء، وبر، وصلة، وطلاقة وجه، وأدب في المحادثة والمجالسة، وما إلى ذلك من محاسن الأخلاق.

ويحذرها من مساوئ الأخلاق من طيش، وقلة أدب، ورفع صوت، وكذب، وغيبة، ونميمة، وحسد، وما إلى ذلك من مساوئ الأخلاق.

---

(١) «نداء للجنس اللطيف» ص (٣٣).

ومما يحسن به في هذا الصدد أن يتعاهدها بالموعظة والتذكير، وأن يمدها بما يعين على زيادة عملها، وما يناسب حالها من سماع الأشرطة النافعة، وقراءة الكتب القيمة.

كما يبعد عنها كل ما يتسبب في انحرافها، وفسادها، وبعدها عن ربها من مسموع، أو مرئي، أو مقروء.

ويعظم هذا الأمر في حق من هم من أهل العلم والدعوة والخير، فيجدر بهم أن تكون نساؤهم مثالاً يحتذى في الخير والعلم والدعوة قدر المستطاع.

ولئن كان ذلك حقًا من حقوق الزوجة مصلحته ـ في الحقيقة ـ راجعة إلى الزوج نفسه، فإن الزوجة التي نشأت في مهد الدين، وتربت على العلم النافع والعمل الصالح تكون من أبر الزوجات بزوجها، وأحفظهن على البيت، وأحناهن على الأولاد، فتكون من عاجل البشرى، ومن النعيم العاجل، ومن أمارات السعادة.

كيف وقد جعل الله وقاية الزوجة من النار أمانة في عنق الزوج؟

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ (التحريم: ٦).

قال قتادة ـ رحمه الله ـ في معنى هذه الآية: «تأمرهم بطاعة الله، وتنهاهم عن معصية الله، وأن تقوم عليهم بأمر الله، وتأمرهم وتساعدهم عليه، فإذا رأيت معصية قَذَعْتَهم عنها، وزجرتهم عنها»[١].

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/٣٩١).

ولذلك أباح الإسلام للمرأة التي يأبى زوجها أن يعلمها ما تحتاج إليه من أحكام الشريعة أن تخرج، لتسأل أهل العلم بدين الله عن ذلك، فإنها هي وزوجها أحوج إلى هذا من سعيها وسعيه للطعام والشراب.

ثم إن المرأة شديدة التأثر بسلوك زوجها، فإن رأت منه حرصًا على ستر، أو عفة، أو خلق، أو عبادة بادرت إلى ذلك استجابة لأمر ربها، وإرضاءً لزوجها.

وإن رأت منه إعراضًا، وانفلاتًا من أحكام الدين، وآداب الأسرة لم تجد بُداً من الاستجابة له، وفعل ما يرضيه.

وكم يرى من زوجات خرجن من بيوت آبائهن إلى بيوت الأزواج عفيفات محتشمات عابدات، فما لبثن غير قليل حتى نبذن الحشمة والوقار ظهريًا، بتأثير الزوج وانحرافه وجهالته[1].

إن التساهل مع الزوجة وعدم أمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر منذ ظهور أول بادرة تقصير في حق الله تعالى، أو مرور سحابة معصية في سماء البيت، يحمل الزوج على التمادي في طريق الغفلة والمعصية، ويزاد الطين بلة في وجود أولاد يقتدون بأمهم المقصرة الغافلة.

وإن مجتمعات المسلمين لتغص بصور كثيرة من هذا الانحراف الإيماني، مما يخرج لنا أجيالاً تافهة لا تعرف من الدين إلا هامشه، وهم يظنون أنهم على الطريق وغيرهم متشدد ومتزمت.

(١) انظر: «نداء للجنس اللطيف» لمحمد رشيد رضا (٣٢-٣٤)، و«أخلاقنا الاجتماعية» لمصطفى السباعي ص(١٤٩-١٥٠)، و«المسئولية في الإسلام» د. عبد الله قادري ص(١٢٧-١٢٨)، و«عودة الحجاب» للشيخ محمد إسماعيل (٢/ ١٣٧٠)، و«من أخطاء الأزواج» ص(٢٧-٣٠).

لذلك وجب على الزوج المسلم الذى يرجو الله والدار الآخـرة أن لا يسمح بالمنكر داخل البيت فلا اختلاط بين النساء والرجـال ولا منكرات سمعية أو مرئية أو مقروءة، إلى غير ذلك من المنكرات المحرمة في الشرع [١].

إنَّ المرأة في غالب أحوالها تميل إلى الدعة واتباع الهوى، وإن لم تجد الرجل العاقل الذي يغـار على دينه ويأخذ على يديها، فـسوف تسيـر في طريق الغفلة وعدم الاكتـراث بأوامر الشرع، مما يؤدي بالبيت إلى طريق لا يعـظم فيه الدين، ولا تتحقق فيه معاني الإيمان الحقيقي.

(١) راجع كتابي «صورة البيت المسلم» حول هذا الموضوع ص(١٥٨- ٢٢٠).

الصفة السادسة

ليس من رواد الدنيا، لأن الآخرة تشغله عنها ليل نهار، وهو في نفس الوقت لا ينسى نصيبه من الدنيا مما أحله الله له من متاعها.

شعاره دائمًا «ورزق ربك خير وأبقى»، «ما عند الله خير وأبقى»؛ لأنه يعلم يقينًا أن أغلى تجارة هي التجارة مع الله ـ عَزَّ وجَلَّ ـ.

ليس من رواد الدنيا:

لأنه يعلم حقيقتها وقيمتها، ويعرف نظرة الإسلام إليها، وكيف كان يتعامل معها رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ومن بعدهم من التابعين وأئمة العلم والصالحين، فالدنيا (عدوة لله ـ عزَّ وجَلَّ ـ، بغرورها ضلّ من ضلّ، وبمكرها ذلّ من ذلّ، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها والزهد فيها أم الطاعات، وأُس القربات، ورأس المنجيات)[(١)].

والقرآن مليء بالآيات التي تزهد في الدنيا، وتخبر بخستها ودناءتها وانقطاعها وسرعة فنائها، وترغب في الآخرة، وتخبر بشرفها ودوامها.

فإذا أراد الله بعبده خيراً، وفَّقه لذلك حتى يؤثر من الدنيا والآخرة ما هو أولى بالإيثار، فيفوز وينجو.

---

(١) «الإحياء» للغزالي.

قال الله تعالى: ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها (١) وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ (يونس: ٢٤)، وقال تعالى: ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما (٢) تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرا (٤٥) المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملاً ﴾ (الكهف: ٤٥-٤٦).

وقال تعالى: ﴿ اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد كمثل غيث (٣) أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطامًا وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور ﴾ (الحديد: ٢٠)، وقال تعالى: ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة (٤) والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ (آل عمران: ١٤)، وقال تعالى: ﴿ يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور (٥) ﴾ (فاطر: ٥)، وقال تعالى: ﴿ ألهاكم التكاثر (٦) (١) حتى زرتم المقابر (٢) كلا سوف تعلمون (٣) ثم كلا سوف تعلمون (٤) كلا لو تعلمون علم اليقين ﴾ (التكاثر: ١-٥)، وقال تعالى: ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون ﴾ (العنكبوت: ٦٤).

---

(١) زخرفها: أي بهجتها بالنبات وازينت بالزهر، وقادرون عليها: أي متمكنون من تحصيل ثمارها. أتاها أمرنا: عذابنا. فجعلناها: أي زرعها. حصيداً: أي كالمحصود بالمناجل. كأن لم تغن بالأمس: أي لم تكن بالأمس.

(٢) هشيمًا: أي مهشومًا مكسوراً. (٣) الغيث: المطر.

(٤) والخيل المسومة: أي المعلمة أو المطهمة المجملة. والأنعام: الإبل والبقر. والحرث: الزرع.

(٥) الغرور: الشيطان. (٦) التكاثر: أي بالأموال والأقوال.

وعن عمرو ابن عوف الأنصاري رضي الله عنه : «أنَّ رسول الله ﷺ بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين(١) يأتي بجزْيتها فقدم بمال من البحرين فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ فلمَّا صلى رسول الله ﷺ انصرف فتعرَّضُوا له فتَبَسَّمَ رسول الله ﷺ حين رآهم، ثم قال: «أظنكم سمعتم أنَّ أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين؟»، فقالوا: أجل(٢)، فقال: «أبشروا وأمِّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تُبسط الدنيا عليكم كما بُسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم»(٣).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: جلس رسول الله ﷺ على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يُفتح عليكم من زهرة الدنيا(٤) وزينتها»(٥).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»(٦).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اللهم لا عَيشَ إلا عَيشَ الآخرة»(٧).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: «يتبع الميت ثلاثة: أهله وماله وعمله، فيرجع اثنان ويبقى واحد، يرجع أهله وماله ويبقى عمله»(٨).

---

(١) بلد بالعراق.

(٢) اجل: أي نعم.

(٣) متفق عليه.

(٤) من زهرة الدنيا: أي زينتها وبهجتها

(٥) متفق عليه.

(٦) رواه مسلم.

(٧) متفق عليه.

(٨) متفق عليه.

وعنه قال رسول الله ﷺ: «يُؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة فيُصبَغ[(١)] في النار صبغة ثم يُقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط، هل مرَّ بك نعيم قط؟، فيقول: لا والله يا رب، ويُؤتى بأشد الناس بُؤسًا في الدنيا من أهل الجنة فيُصْبَغُ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بُؤسًا قط[(٢)] هل مر بك شدة قط؟، فيقول: لا والله ما مر بي بُؤس قط، ولا رأيت شدة قط»[(٣)].

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليَمِّ[(٤)] فلينظر بم يرجع»[(٥)].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كَنَفَتَيْهِ فمر بجدي أَسَكَّ ميتٍ فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يُحب أن يكون هذا له بدرهم؟»، فقالوا: ما نُحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟، ثم قال: «أتحبون أنه لكم؟»، قالوا: والله لو كان حيًا كان عيبًا إنه أسك فكيف وهو ميت!، فقال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[(٦)].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرةٍ[(٧)] بالمدينة فاستقبلنا أُحد فقال: «يا أبا ذر»، قلت: لبيك يا رسول الله، فقال: «ما يسرني أن عندي مثل أحدٍ ذهبًا تمضي عليَّ ثلاثة أيام وعندي منه دينارٌ إلا شيء أرصده لدَيْن إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا»، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ثم سار فقال: «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا

---

(١) «فيصبغ»: أي يغمس في النار صبغة، بفتح الصاد: أي غمسة.
(٢) «بؤسًا» (بالهمزة): أي شدة. (٣) رواه مسلم.
(٤) «اليم» (بفتح الياء وتشديد الميم): البحر. (٥) رواه مسلم.
(٦) رواه مسلم. ــ وقوله «كَنَفَتَيْهِ»: أي جنبيه، و«الأسك»: الصغير الأذن.
(٧) «في حرة» (بفتح الحاء المهملة وتشديد الراء): هي أرض ذات حجارة سود.

وهكذا»، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، «وقليل ما هم»، ثم قال لي: «مكانك لا تبرح حتى آتيك»، ثم انطلق في سواد الليل حتى توارى[١]، فسمعت صوتًا قد ارتفع فتخوفت أن يكون أحد عَرَض[٢] للنبي ﷺ فأردت أن آتيه فذكرت قوله: «لا تبرح حتى آتيك»، فلم أبرح حتى أتاني، فقلت: لقد سمعت صوتًا تخوفت منه فذكرت له فقال: «وهل سمعته؟»، قلت: نعم، قال: «ذاك جبريل أتاني فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة»، قلت: وإن زنى وإن سرق؟!، قال: «وإن زنى وإن سرق»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لو كان لي مثل أُحد ذهبًا لسرَّني أن لا تمر عليَّ ثلاث ليال وعندي منه شيء إلا شيء أرصده لدَيْن»[٤].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر[٥] أن لا تزدروا نعمة الله عليكم»، متفق عليه، وهذا لفظ مسلم، وفي رواية البخاري: «إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّل عليه في المال والخلق[٦] فلينظر إلى من هو أسفل منهُ».

وعنه عن النبي ﷺ قال: «تَعِس[٧] عبد الدينار والدرهم والقَطيفَةِ والخَمِيصَة، إن أُعطي رضي وإن لم يعط لم يرض»[٨].

---

(١) «توارى»: أي غاب شخصه. (٢) «عرض»: أي تعرض له بسوء.

(٣) متفق عليه، وهذا لفظ البخاري. (٤) متفق عليه.

(٥) «أجدر»: أي أحق، و«ألا تزدروا»: أي تحتقروا نعمة الله عليكم.

(٦) «الخلق» (بفتح الخاء المعجمة): أي الصورة.

(٧) «تعس» (بكسر العين المهملة): أي هلك، و«القطيفة» (بالقاف والطاء المهملة والفاء): الثوب الذي له خمل، و«الخميصة» (بالخاء المعجمة وبالميم والصاد المهملة): الكساء المربع، وفي رواية للبخاري: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد القطيفة وعبد الخميصة»: أي هلك طالبها الحريص على جمعها القائم على حفظها فكان لذلك عبدها، نسأل الله السلامة من هذه العبودية الحقيرة.

وعنه ﷺ قال: «لقد رأيت سبعين من أهل الصُّفَّة ما منهم رجل عليه رداء: إما كساء قد ربطوا في أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن تُرى عورته»(١).

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»**(٢).

وعن ابن عمر ﷺ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**، وكان ابن عمر ﷺ يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك»(٣)، قالوا في شرح هذا الحديث معناه: لا تركن إلى الدنيا ولا تتخذها وطنًا ولا تُحدِّث نفسك بطول البقاء فيها ولا بالاعتناء بها ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه ولا تشتغل فيها بما لا يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله.

وعن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبني الناس، فقال: **«ازهد في الدنيا يُحبك الله، وازهد فيما عند الناس يُحبك الناس»**(٤).

وعن النعمان بن بشير ﷺ قال: ذكر عمر بن الخطاب ﷺ ما أصاب الناس من الدنيا فقال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ يظل اليوم يلتوي ما يجد من الدَّقَلِ ما يملأ به بطنه»(٥).

---

(١)، (٣) رواهما البخاري. (٢) رواه مسلم.

(٤) قال الألباني: ضعيف وإنما يتقوى بغير طرقه «الصحيحة» برقم (٩٤٤).

(٥) رواه مسلم، و«الدَّقَلُ» (بفتح الدال المهملة والقاف): رديء التمر.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «توفي رسول الله ﷺ وما في بيتي من شيءٍ يأكله ذو كبد[1] إلا شطرُ شعير في رف لي فأكلت منه حتى طال عليَّ فَكِلْتُه ففنيَ»[2]، قولها «شطر شعير»: أي شيء من شعير، كذا فسره الترمذي.

(فصل) الزهد: فضله وحقيقته:[3]

اعلم ـ يا أخي ـ أن «الدنيا عدوة لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، بغرورها ضلَّ من ضل، وبمكرها زل من زل، فحبها رأس الخطايا والسيئات، وبغضها والزُّهد فيها أم الطاعات، وأُسُّ القُرُبات، ورأس المنجيات»[4].

قال الله تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل:٩٦)، وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ (الحديد:٢٠)، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَى...﴾ (النساء:٧٧)، وقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (الأعلى:١٦-١٧)، وقال تعالى: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (طه:١٣١).

---

(١) «ذو كبد» (بفتح الكاف وكسر الموحدة): أي حيوان، و«الرف» (بفتح الراء وتشديد الفاء): خشب يرفع عن الأرض يوضع فيه ما يراد حفظه، و«فني»: أي فرغ، قال القرطبي: سبب رفع النماء عند الكيل ـ والله أعلم ـ الالتفات بعين الحرص، ومع معاينة إدرار نعم الله تعالى ومواهب كراماته وكثرة بركاته، والغفلة عن الشكر عليها والثقة بالذي وهبها، والميل إلى الأسباب المعتادة عند مشاهدة خرق العادات.

(٢) متفق عليه.

(٣) انظر «صلاح الأمة في علو الهمة» (٤/٢٤٧-٢٥٣).

(٤) «الإحياء».

والقرآن مملوء من التزهيد في الدنيا، والإخبار بخستها وقلتها، وانقطاعها وسرعة فنائها، والترغيب في الآخرة، والإخبار بشرفها ودوامها، فإذا أراد الله بعبد خيرًا أقام في قلبه شاهدًا يُعاين به حقيقة الدنيا والآخرة، ويُؤثر منهما ما هو أولى بالإيثار.

قال الإمام أحمد بن حنبل: الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول. ترك الحرام: وهو زهد العوام.

والثاني. تركُ الفضول من الحلال: وهو زهد الخواصِّ.

والثالث. تركُ ما يشغل عن الله: وهو زهد العارفين.

وهذا الكلام من الإمام أحمد من أجمع الكلام، وهو يدل على أنه ﷺ من هذا العلم بالمحل الأعلى، وقد شهد الشافعي ـ رحمه الله ـ بإمامته في ثمانية أشياء، أحدها: الزهد، وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: «**الزهد**»: ترك ما لا ينفع في الآخرة، و«**الورع**»: ترك ما تخاف ضرره.

وهذه العبارة من أحسن ما قيل في «الزهد والورع»، وأجمعها.

والذي أجمع عليه العارفون: أن الزهد سفر القلب من وطن الدنيا، وأخذه في منازل الآخرة.

وقال ابن المبارك: هو الثقة بالله مع حب الفقر، وهو قول شقيق ويوسف بن أسباط.

وقال أبو سليمان الداراني: هو ترك ما يشغل عن الله.

وقال ذو النون: حقيقته هو الزهد في النفس[1]».

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٩-١٢).

ومتعلق الزهد ستة أشياء، لا يستحق العبد اسم «الزهد» حتى يزهد فيها، وهي المال، والصور، والرياسة، والناس، والنفس، وكل ما دون الله. وليس المراد رفضها من الملك، فقد كان سليمان وداود ـ عليهما السلام ـ من أزهد أهل زمانهما، ولهما من المال والملك والنساء ما لهما، وكان نبينا ﷺ من أزهد البشر على الإطلاق، وكان له تسع نسوة، وكان عليٌّ بن أبي طالب وعبد الرحمن بن عوف والزبير وعثمان ﷺ من الزهاد، مع ما كان لهم من الأموال، وكان الحسن بن علي ﷺ من الزهاد، مع أنه كان من أكثر الأمة محبة للنساء ونكاحًا لهن وأغناهم، وكان عبد الله بن المبارك من الأئمة الزُّهاد، مع مال كثير، وكذلك الليث بن سعد من أئمة الزهاد، وكان له رأس مال، يقول: لولا هو لتَمَنْدَل بنا هؤلاء.

ومن أحسن ما قيل في الزهد: كلام الحسن البصري، أو غيره: «ليس الزهد في الدنيا بتحريم الحلال، ولا إضاعة المال؛ ولكن أن تكون بما في يد الله أوثق منك بما في يدك، وأن تكون في ثواب المصيبة ـ إذا أصبت بها ـ أرغب منك فيها لو لم تُصبك. فهذا من أجمع الكلام في الزهد وأحسنه»[(١)].

قال رسول الله ﷺ: **«ازهد في الدنيا يُحبك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يُحبك الناس»**[(٢)].

وقال ﷺ: **«طوبى لمن هُدي للإسلام، وكان عيشه كفافًا، وقنع به»**[(٣)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٢-١٣).

(٢) صحيح: رواه ابن ماجه، والطبراني في «الكبير»، والحاكم، والبيهقي في «شعب الإيمان» عن سهل ابن سعد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٩٢٢).

(٣) صحيح: رواه الترمذي، وابن حبان، والحاكم، عن فضالة بن عبيد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٩٣١).

وقال ﷺ : «قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقَنَّعه الله بما آتاه»[(١)] .

وقال ﷺ : «البذاذة من الإيمان»[(٢)] .

وقال ﷺ : «صلاح أول هذه الأمة بالزهد واليقين، ويهلك آخرها بالبخل والأمل»[(٣)] .

وقال رسول الله ﷺ : «من كانت الآخرة همَّهُ، جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة؛ ومن كانت الدنيا همَّهُ، جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قُدِّر له»[(٤)] .

وقال ﷺ : «اللهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين»[(٥)] .

وقال ﷺ : «رب ذي طِمْرين لا يُؤبَهُ له، لو أقسم على الله لأبرَّه».

وقال ﷺ : «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه».

وقال ﷺ : «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم، وهو خمسمائة عام»[(٦)] .

---

(١) صحيح: رواه الإمام أحمد في «مسنده»، ومسلم، والترمذي، وابن ماجه، عن ابن عمرو.

(٢) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، وابن ماجه، والحاكم، عن أبي أُمامة الحارثي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٨٧٩).

(٣) حسن: رواه الإمام أحمد في «الزهد»، والطبراني في «الأوسط»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن ابن عمرو، وحسَّنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٣٨٤٥).

(٤) صحيح: رواه الترمذي عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٦٥١٠).

(٥) صحيح: رواه عبد بن حميد، وابن ماجه، عن أبي سعيد، ورواه الطبراني في «الكبير» و«الضياء»، عن عبادة بن الصامت، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (١٢٦١).

(٦) صحيح: رواه أحمد في «مسنده»، والترمذي، وابن ماجه، عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٠٧٦).

قال ﷺ: **«من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»** [(١)].

وعالي الهمة ينظر إلى كلام الأئمة، ولا يرضى بالدُّونِ من درجات الزهد:

- قال الهروي عن الزهد: «وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى. الزهد في الشُّبهة، بعد ترك الحرام، بالحذر من المعتبة، والأنفة من المنقصة، وكراهة مشاركة الفُساق».

قال ابن القيم: «أما الزهد في الشُّبهة: فهو ترك ما يشتبه على العبد: هل هو حلال أم حرام؟، فالشبهات برزخ بين الحلال والحرام. ولا يكون ترك الشبهة إلا بعد ترك الحرام، وتركه للشبهة حذرًا من توجه عتب الله عليه، وأنفه لنفسه من نقصه عند ربه، وسقوطه من عينه، لا أنفته من نقصه عند الناس، وسقوطه من أعينهم.

«وكراهة مشاركة الفساق»: يعني أن الفساق يزدحمون على مواضع الرغبة في الدنيا، ولتلك المواقف بهم كظيظ من الزحام، فالزاهد يأنف من مشاركتهم في تلك المواقف، ويرفع نفسه عنها، لخسة شركائه فيها، كما قيل لبعضهم: ما الذي زهدك في الدنيا؟، قال: قلة وفائها، وكثرة جفائها، وخسة شركائها.

إذا لمْ أتركِ الماءَ اتِّقَاءً ... تركتُ لكثرةِ الشُّركَاءِ فيهِ
إذا وقعَ الذبابُ على طَعَامٍ ... رفعتُ يدي ونفسي تشتهيهِ
وتجتنب الأسود ورود ماءٍ ... إذا كانَ الكلاب يَلَغْنَ فيهِ [(١)]

(١) حسن: رواه البخاري في «الأدب المفرد»، والترمذي، وابن ماجه، عن عبد الله بن محصن، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٠٤٢).
(٢) «المدارج» (٢/ ١٥-١٧).

الدرجة الثانية. «الزهد في الفضول: وهو ما زاد على المُسْكة والبلاغ من القوت، باغتنام التفرغ إلى عمارة الوقت، وحسم الجأش، والتحلي بحلية الأنبياء والصِّدِّيقين».

▪ قال ابن القيم: «(الفضول): ما يفضل عن قدر الحاجة، و(المُسْكة): ما يُمسك الإنسان من القوت والشراب واللباس والمسكن والمنكح، إذا احتاج إليه. و(البلاغ): هو البُلغَة من ذلك الذي يتبلغ به المسافر في منازل السفر، فيزهد فيما وراء ذلك، اغتنامًا لتفرغه لعمارة وقته».

قال ﷺ: **«إن أمامكم عَقَبةً كئودا، لا يجوزها المُثقلون»**[(١)].

قال ﷺ: **«إنما يكفي أحدكم ما كان في الدنيا مثل زاد الراكب»**[(٢)].

قال ﷺ: **«كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»**[(٣)].

قال ابن القيم: «الزهد لأهل هذه الدرجة أعلى وأرفع، وهو اغتنام الفراغ لعمارة أوقاتهم مع الله؛ لأنه إذا اشتغل بفضول الدنيا، فاته نصيبُه من انتهاز فرصة الوقت، فالوقت سيف إن لم تقطعه وإلا قطعك.

وأما حسم الجأش: فهو قطع اضطراب القلب، المتعلق بأسباب الدنيا، رغبةً ورهبةً وحبًا وبغضًا وسعيًا، فلا يصحُّ الزهد للعبد حتى يقطع هذا الاضطراب من قلبه، بأن لا يلتفت إليها، ولا يتعلق بها في حالتي مباشرته لها وتركه، فإن الزهد زهد القلب، لا زهد الترك من اليد، فهو تخلي القلب عنها، لا خلو اليد منها.

---

(١) **صحيح**: رواه الحاكم، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن أبي الدرداء، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٠٠١).

(٢) **صحيح**: رواه الطبراني في «الكبير»، والبيهقي في «شعب الإيمان»، عن خباب، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٣٨٤).

(٣) **صحيح**: رواه البخاري عن ابن عمر.

وأما التحلي بحلية الأنبياء والصديقين: «فإنهم أهل الزهد في الدنيا حقًا؛ إذ هم مُشمرون إلى علم قد رُفع لهم غيرها، فهم زاهدون، وإن كانوا لها مباشرين».

والدرجة الثالثة ـ «الزهد في الزهد: وهو بثلاثة أشياء: استحقار ما زهدت فيه، واستواءُ الحالات فيه عندك، والذهاب عن شهود الاكتساب، ناظرًا إلى وادي الحقائق».

▪ قال ابن القيم: «وقد فسر الشيخ مراده بالزهد في الزهد بثلاثة أشياء: أحدها: احتقاره ما زهد فيه: فإن من امتلأ قلبه بمحبة الله وتعظيمه، لا يرى أن ما تركه لأجله من الدنيا يستحق أن يُجعل قربانًا؛ لأن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضةٍ. فالعارف لا يرى زهده فيها كبير أمر يُعتدُّ له ويُحتفل له، فيستحي من صح له الزهد أن يجعل لما تركه لله قدرًا يلاحظ زهده فيه، بل يفنى عن زهده فيه كما فنيَ عنه، ويستحي من ذكره بلسانه، وشهوده بقلبه.

وأما استواءُ الحالات فيه عنده: فهو أن يرى ترك ما زهد فيه وأخذه: متساويين عنده، إذ ليس له عنده قدر، وهذا من دقائق فقه الزهد، فيكون زاهدًا في حال أخذه، كما هو زاهد في حال تركه، إذ همتُه أعلى عن ملاحظته أخذًا وتركًا، لصغره في عينه.

وأما الذهاب عن شهود الاكتساب: فمعناه: أن من استصغر الدنيا بقلبه، واستوت الحالات في أخذها، وتركها عنده، لم ير أنه اكتسب بتركها عند الله درجةً البتة؛ لأنها أصغر من أن يرى أنه اكتسب بتركها الدرجات.

وفيه معنى آخر: وهو أن يشاهد تفرد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالعطاء والمنع، فلا يرى أنه ترك شيئًا، ولا أخذ شيئًا، بل الله وحده هو المُعطي المانع، فما أخذه

فهو مجرىً لعطاء الله إياه كمجرى الماء في النهر، وما تركه لله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي منعه منه، فيذهب بمشاهدة الفعال وحده عن شهود كسبه وتركه، فإذا نظر إلى الأشياء بعين الجمع، وسلك في وادي الحقيقة، غاب عن شهود اكتسابه، وهو معنى قوله: «ناظرًا إلى وادي الحقائق»، وهذا أليق المعنيين بكلامه، فهذا زهد الخاصة. قال الشاعر:

إذا زَهَّدَتْني في الهَوَى خَشْيَةَ الرَّدى ▫▪▫ جَلَتْ لي عن وجهٍ يُزَهِّد في الزُّهدِ[1]

أعلى تجارة هي التجارة مع الله ـ عزوجل ـ

فالدنيا سوق، والتجارة إما مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وربحها الحياة الطيبة في الدنيا والسعادة الأبدية في جنة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ في الآخرة، وإما مع الشيطان، وربح هذه التجارة الشقاء والضنك والهم والغم والحزن في الدنيا، والشقاء الأبدي والجحيم السرمدي في الآخرة، كما قال ﷺ: **«فبائع نفسه فمعتقها او موبقها»**.

قال بعض السلف: رأيت العبد ملقى بين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وبين الشيطان، فإن تولاه الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لم يقدر عليه الشيطان، وإن تركه الله عز وجل أخذه الشيطان.

(وكل عبادة من العبادات أو معاملة من المعاملات الشرعية تجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكل تجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ فهي لا تخسر بحال من الأحوال. قال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ**﴾ (فاطر: ٢٩).

وكل أحد من الناس إذا أراد معاملة غيره فإنما يريده لنفسه، ويريد أن ينتفع منه نوع منفعة، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ يريدك لك، ويطلب منك أن تعامله ـ عزَّ وجلَّ ـ، حتى تربح أنت عليه أعظم الربح، وهو ـ عزَّ وجلَّ ـ غني عنك وعن معاملتك.

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ١٩-٢٠).

قال النبي ﷺ: «من قال: سبحان الله وبحمده، غرست له نخلة في الجنة»(١).

فانظر إلى مضيع الساعات كم يفوته من النخيل؟!

وقال ﷺ: «اقرؤا القرآن فإنكم تؤجرون عليه، أما إني لا أقول الَم حرف، ولكن ألف عشر، ولام عشر، وميم عشر»(٢).

وقال ﷺ: «من صلى في يوم ثنتي عشرة سجدة تطوعًا، بنى الله له بيتًا في الجنة»(٣).

أي: من صلى السنن والرواتب في كل يوم يُبنى له بيتًا في الجنة كل يوم. ما أربح التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ !!.

واعلموا ـ عباد الله ـ أن رأس مالنا الأوقات واللحظات، وكل نفس من أنفاس العمر جوهرة ثمينة، تستطيع أن تشتري بها كنز لا يفنى أبد الأباد، فتضييعه أو خسارته أو شراء صاحبه به ما يجلب هلاكه، لا يسمع به إلا أقل الناس عقلاً، والله ـ عزَّ وجلَّ ـ جعل الليل والنهار لمن أراد أن يذَّكر أو أراد شكوراً.

---

(١) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٢/ ٢٥-٢) وابن حبان والحاكم عن جابر مرفوعًا وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي وصححه الألباني بشواهده «الصحيحة» ٦٤(١/ ٨٤).

(٢) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١/ ٢٨٥) والديلمي (١/ ١/ ١٣) وقال الألباني: وهذا إسناد جيد رجاله رجال الصحيح غير ابن الجنيد ترجمه الخطيب وقال: وهو شيخ صدوق، ووثقه غيره، وروى الترمذي نحوه «الصحيحة» (٢/ ٢٦٧) ٦٦٠.

(٣) رواه مسلم (٦/ ٧) صلاة المسافرين: «فضل السنن الراتبة» وأبو داود في «الصلاة» والترمذي في «الصلاة»، والنسائي في «قيام الليل».

والتجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ليست كغيرها من التجارات، فهي معاملة بين العبد الفقير وربه الجليل، وبين المخلوق الضعيف والخالق القدير، فهي نوع خاص من المعاملات لا تشبه معاملة المخلوق للمخلوق. وينبغي علينا ـ عباد الله ـ أن ندرس فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، حتى لا نكون يوم القيامة من المغبونين، أو من الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

فما هو فقه التجارة مع الله ـ عزَّوجلَّ ـ؟

■ من فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، أن يعلم العبد أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ غني عن العبد وعن عبادته، وأن من عمل عملاً أشرك مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ غيره فإن هذا العمل لا يقبله الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، كما قال تعالى:

﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا** ﴾ (الفرقان: ٢٣)، فكل عمل كان بإرادة غير الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مشوبًا يجعله يوم القيامة هباء منثورًا.

فالله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا يقبل إلا الدين الخالص كما قال الله تعالى: ﴿ **أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ** ﴾ (الزمر: ٣).

وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ **وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ** ﴾ (البينة: ٥)، فيشترط الله ـ عزَّ وجلَّ ـ على من أراد أن يتاجر معه الإخلاص، والإخلاص إفراد الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بالقصد في العبادة، وتجريد قصد التقرب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عن جميع الشوائب.

قال رسول الله ﷺ: **«إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصًا وابتغي به وجهه»**[(١)].

(١) رواه النسائي (٩/ ٢٥) الجهاد: من غزا يلتمس الأجر والذكر، قال الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء»: وإسناده حسن (٤/ ٢٨) وقال المنذري: إسناده جيد (١/ ٢٤) في «الترغيب والترهيب».

■ ومن فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن لا يعمل العبد عملاً إلا بنية، قال ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»(١).

فالنية المباحة تقوى على رفع العمل المباح إلى درجة الطاعة، كما قال بعض السلف: «إني أحتسب نومتي كما أحتسب قومتي» وقال بعضهم: «لا تعمل عملاً إلا بنية».

■ ومن فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، أن يجمع العبد في العمل الواحد نيات كثيرة وصالحة، قال النبي ﷺ : «وإنما لكل امرئ ما نوى»(٢).

أي أن ثواب العامل على عمله، بمقدار ثواب النيات التي جمعها في العمل الواحد، فمن ذهب للمسجد لصلاة الجماعة، ولقاء إخوانه في الله، وسماع دروس العلم، وإقامة ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وتنظيف المسجد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ لا يعدم من يسيء صلاته أو يسيء إلى المسجد، كان ثوابه على هذا بمقدار ثواب النيات الصالحة التي جمعها في ذلك العمل، ولذلك قالوا «تجارة النيات تجارة العلماء» والعلماء هم الذين يعرفون فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وكيف يربحون على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أعظم الأرباح.

■ ومن فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، أن يتأكد العبد أن عمله موافق لسنة النبي ﷺ ، لقوله ﷺ : «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(٣).

---

(١) رواه البخاري (١/٩) «بدء الوحي» باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ وفي «الإيمان» وفي «العتق» ورواه مسلم (١٣/٥٣-٥٤) باب قوله ﷺ : «إنما الأعمال بالنيات»، ورواه أصحاب السنن الثلاثة.

(٢) الحديث السابق.

(٣) رواه مسلم (١٢-١٦) «الأقضية» باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور بهذا اللفظ، واتفقنا على إخراجه بلفظ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد».

فكل عمل لا يندرج تحت الشريعة، ولا تكون شريعة النبي ﷺ حاكمة عليه بالصحة فهو مردود غير مقبول، كما قال ﷺ : **«فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»**[١] .

قال سفيان الثوري: لا يقبل قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلا بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بمتابعة السنة.

وقال الحسن البصري: السنة والذي لا إله إلا هو بين الغالي والجافي، فاصبروا عليها ـ رحمكم الله ـ، فإن أهل السنة كانوا أقل الناس فيما مضى، وهم أقل الناس فيما بقي، الذين لم يذهبوا مع أهل البدع في بدعهم ولا مع أهل الانحراف في انحرافهم، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم، فكذلك إن شاء الله فكونوا.

- ومن فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يجعل العبد معاملته سرًا بينه وبين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يحب من العباد أن يعاملوه سرًا.

المحبون يغارون من اطلاع الأغيار على الأسرار التي بينهم وبين من يحبهم ويحبونه، وكان السلف ﷺ يخفون حسناتهم كما نخفي سيئاتنا.

وفي الأثر: **«من استطاع منكم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»**.

---

(١) أبو داود (١٢/ ٣٥٩-٣٦٠) «السنة» باب: لزوم السنة، والترمذي (١٠/ ١٤٣-١٤٤) أبواب العلم وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد وابن ماجه رقم ٤٣ في المقدمة باب: اتباع سنة الخلفاء الراشدين، وابن حبان في صحيحه وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١/ ٢٠).

▪ من فقه التجـارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أن يحفظ العبد أعمـاله الصالحة من محبطات الأعـمال، قال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ ﴾ (البقرة: ٢٦٤).

فالمعصيـة بالمن بالصدقة على عباد الله أكبر من الصدقـة، وكما أن الحسنات يذهبن السيئات، كـذلك السيئات إذا قويت على الحسنات أحـبطتها، ولكن هذا الإحصاء ليس كإحباط الكفر للإيمان فإذا عمل العبد عملاً صالحًا، ينبغي عليه أن يحفظـه فلا يمن على الله ـ عزَّ وجـلَّ ـ، أو على عباد الله، ولا يعـجب به ولا يصيبـه الكبر بسببـه، بل يعلم أن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو المتفضل عليـه بالتوفيق، وعليه ـ عزَّ وجلَّ ـ القبول[1].

(١) «تحفة الواعظ في الخطب والمواعظ»، الشيخ أحمد فريد ـ ص(١٩٩-٢٠٣).

الصفة السابعة

يعرف منهج تربية أولاده

الطريق والتطبيق، ويعلمني كيف أربي أولادي، ويعطيهم جزءًا من وقته ولا ينساهم.

الناس في تربيتهم لأولادهم منقسمون إلى ثلاثة أصناف:

الصنف الأول ـ وهو حديث الكتاب عن الزوج المسلم الملتزم (حقًا) المستقيم على طاعة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، الذي اصطبغت حياته كلها بالإسلام، بل وكل قول يقوله أو فعل يفعله يدلل على صدق انتمائه لهذا الدين، وصِدْق هويته الإسلامية. هذا الصنف يعرف كيف يربي أولاده، ويسلك الطريق الصحيح لذلك، وإذا ما قصَّر أو كسل رجع وأناب بسرعة إلى الطريق الحق.

الصنف الثاني ـ وهو غالبية الناس لا يعرف لتربية الأولاد لا منهجًا ولا طريقًا، بل يعيش ويهيم على وجهه، كما يعيش بقية الناس، لأن الدين عندهم أصبح على هامش حياتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

الصنف الثالث ـ وهو نوعان:

الأول ـ الإنسان الطيب الذي لو سمع الخير لأجابه وسلك طريقه ولكنه بعيد بعض الشيء لانشغاله بالدنيا، أو عدم معرفته بالرفقة الصالحة.

الثاني ـ بعض الشباب الملتزم الذي يعلم أهمية تربية الأولاد ولكنه للأسف صاحب همة ضعيفة، عليه سمت الإسلام وظاهره، أما جوهره وحقيقته فذلك عنده ضعيف.

فهيا سويًا نتجول مع (خطوات في أسس تربية الأولاد)[1]:

١ ـ لقد حمَّلنا الله تعالى رسالة الإسلام، ومن الخيانة لهذه الرسالة إهمال تربية الأولاد، والتقصير في إعدادهم حيث يستطيعون مواصلة السير في الطريق لحمل هذه الرسالة العظيمة، وأداء الأمانة التي كلفنا بها وهي الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

٢ ـ يجب أن يشعر الآباء خاصة بعظم المسئولية الكبرى التي تقع على عاتقهم تجاه تربيتهم لأولادهم، لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (التحريم:٦)، فالمجتمعات اليوم تموج بتيارات عديدة فاسدة، ومناهج التعليم في بلاد المسلمين بها قصور شديد، ولم تصبح المدرسة هي المكان الطبيعي لتربية الأولاد وتوجيههم الوجهة الصحيحة نحو ما ينفعهم في الدنيا والآخرة.

(إن تربية الدواجن والحيوانات أمر يعهد إلى مختصين يعرفون واجبهم، فكيف نفرط في حق أعظم مخلوق على هذه الأرض وهو الإنسان؟

لابد أن يعي كل أب وكل أم مسئوليتهم الضخمة فيما استخلفهم الله فيه)[2].

---

(١) ننصح بدراسة الكتب والرسائل الآتية:
- «تربية الأولاد في الإسلام» للدكتور عبد الله ناصح علوان ـ رحمه الله ـ.
- «منهج التربية النبوية للطفل» محمد نور سديد.
- «مسئولية الأب المسلم في تربية الولد في مرحلة الطفولة» عدنان بن صالح بن باحارث.
- «فقه تربية الأبناء وطائفة من نصائح الأطباء» مصطفى العدوي.
- «لفتة الكبد إلى نصيحة الولد» لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ.
- «الإشكالية المعاصرة للطفل المسلم» سعيد عبد العظيم.

(٢) «نظرات في الأسرة المسلمة» ص (١٥٦).

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كلكم راع ومسئول عن رعيته، الإمام راع ومسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيتها ومسئولة عن رعيتها....**»(١).

٣ - كل واحد منا يبغي الخير لنفسه في حياته وبعد مماته، ولن يتحقق ذلك إلا من أبناء بررة قد تربوا التربية الإسلامية الكريمة، فينفع الأبناء آباءهم وأمهاتهم في حال الكبر أو الفقر عندما يكونوا في أشد الحاجة إلى برهم ومساعدتهم ومواساتهم.

وينفعونهم أيضًا بعد مماتهم بالدعاء، لقوله ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم ينتفع به، أو صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له**»(٢).

فما أعظم إساءتنا لأنفسنا إن نحن أهملنا تربيتهم، وضيعنا على أنفسنا خيرًا كثيرًا في الدنيا وبعد الممات.

٤ - من أسس تربية الأولاد والاهتمام البالغ بمرحلة الطفولة، لأن الطفل في هذا السن كالعجينة تشكل كيفما شاء والداه، لذا كان الدور عليهما فيما بعد أن يتداركا الأمر.

٥ - لابد من التنسيق والتعاون والتفاهم بين الوالدين في تربيتهم لأولادهم، حتى لا تحدث ازدواجية عند الأولاد، فيسمعون من آباهم ما يناقض قول الأم والعكس.

٦ - من أكبر أسباب انحراف الأولاد فقدان القدوة الصالحة في آبائهم وأمهاتهم، بل يحملهم ذلك على الشك في القيم والمثل العليا كلها، لذا فليحذر الوالدان ألا يرى الطفل في سلوكهما ما يناقض النصائح التي يسمعها منهما.

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه مسلم.

٧ ـ من أسس تربية الأولاد غرس روح الانتماء لله ورسوله، وتنشئتهم على المخافة من الله تعالى، فإن ذلك سبب لاستقامتهم على الدين.

وعلى الوالدين أن يغرسا في نفوس الأولاد حب الله وحب رسوله ﷺ وحب صحابته ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ.

وعليهما أيضًا تربية الأولاد على العقيدة الإسلامية الصحيحة بعيدًا عن العقائد المنحرفة المضلة كالشيعة وأمثالهم والفرق المبتدعة كالصوفية، وأشباههم.

وعليهما أيضًا تربية الأولاد مع الأخلاق الإسلامية العظيمة، وتعويدهم على الشجاعة والإقدام والصبر، وغير ذلك من معاني الدين السامية.

٨ ـ الأسس الهامة في تربية الأولاد أيضًا اختيار الرفقاء الصالحين لهم، فالمرء على دين خليله، وعلى الوالدين مراقبة الأولاد في أصدقائهم.

٩ ـ تفهم الوالدين عقلية الأولاد عندما يكبرون، فيناقشوهم ويشاوروهم، حتى يتربى الأولاد على إبداء الرأي، وحذار معاملتهم على أنهم ما يزالون صغارًا.

١٠ ـ عدم الانشغال عن الأولاد، بل يجب تخصيص وقت لهم، فهم أحق الناس بالتوجيه والإرشاد، فلابد من أن تعقد لهم جلسة أسبوعية على أقل تقدير يدرسون فيها منهجًا علميًا تربويًا يركز الوالدان من خلاله على السلبيات التي يجب تجنبها وعلى الايجابيات التي يجب التمسك بها

وهذا منهج بسيط مقترح للوالدين مع أولادهم:

(أ) «صور من حياة الصحابة، وصور من حياة التابعين» للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا.

(ب) «نساء في القرآن الكريم» فؤاد أحمد الدقس.

(جـ) حفظ «الأربعين النووية».

(د) التجويد، مع حفظ بعض آيات من القرآن.

(هـ) السيرة النبوية للأطفال.

١١ ـ إن تأديب الطفل ليس عملاً انتقاميًا منه، وإنما هدفه تربوي، ووسيلة تربوية، لابد أن يشعر الطفل بأن الأمر جد لا هزل فيه، فيذوق ألم التأديب، ويشعر بضرورة الانقياد والطاعة، وحسن الخلق والسيرة.

١٢ ـ علموا أولادكم حب الصحابة ﭬ جميعًا، فعلى أشلائهم وبدمائهم وتضحياتهم وفدائهم وصلنا الإسلام، ولولا ذلك ما وصل إلينا الإسلام.

ربوا أولادكم منذ الصغر على روح الفداء في سبيل الله تعالى، وأن يكون الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما.

عن عبد الرحمن بن عوف أنه قال: بينما أنا واقف في الصف يوم بدر نظرت عن يميني وشمالي، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما[(١)]، فغمزني أحدهما فقال: : يا عمِّ هل تعرف أبا جهل؟

قال: قلت: نعم، وما حاجتك إليه يا ابن أخي؟!

قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده، لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده[(٢)] حتى يموت الأعجل منا[(٣)].

قال: فتعجبت لذلك، فغمزني الآخر فقال مثلها.

---

(١) أي: أقوى منها.

(٢) أي: شخصي شخصه.

(٣) أي: لا أفارقه حتى يموت أحدنا وهو الأقرب أجلاً.

قال: فلم أنشب[١] أن نظرت إلى أبي جهل يزول في الناس[٢] فقلت: ألا تريان، هذا صاحبكما الذي تسألان عنه، قال: فابتدراه، فضرباه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال: «**أيكما قتله؟**».

فقال كل واحد منهما: أنا قتلته.

فقال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**».

قالا: لا، فنظر في السيفين، فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسَلْبه لمعاذ ابن عمرو بن الجموح، والرجلان: معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء.

▪ قال النووي ـ رحمه الله ـ: وفي هذه الحديث من الفوائد: «المبادرة إلى الخيرات والاشتياق إلى الفضائل، وفيه الغضب لله ورسوله ﷺ، وفيه أنه ينبغي أن لا يُحتقر أحد، فقد يكون بعض من يستصغر عن القيام بأمر بأكبرهما في النفوس وأحق بذلك الأمر كله كما جرى لهذين الغلامين»[٣].

---

(١) انشب: ألبث.

(٢) أي: يتحرك ويزعج ولا يستقر على حالة ولا في مكان.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى (١٢/٦١-٦٣).

الصفة الثامنة

يذكرني دائمًا بالرحيل عن الدنيا حتى لا أفرح بها أو أركن إليها، ويذكرني بالقبر حتى أعد له عدته.

تقي، نقي، زاهدٌ بعلم، غير غافل عن ربه، لسانه رطب بذكر الله تعالى.

ينبغي للمسلم أن يكون حاله في الدنيا كالغريب الذي يحن إلى وطنه، والمسافر الذي يأمل أن يبلغ مقصده ليستريح من عناء السفر، وأن يكون دائم الاستعداد للقاء الله تعالى، والتطلع لما بعده من عوالم الآخرة، رجاء أن يفوز بالجنة وأن ينجو من النار.

والزوج المسلم ـ بصفة خاصة ـ إذا كانت هذه هي نظرته للحياة وعينه على الآخرة، فإن ذلك ولا شك يؤثر في بيته وفي أهل بيته تأثيرًا إيمانيًا بالغًا.

وتأثيره في بيته بصدق الانتماء لله وللرسول ﷺ، فتكون طاعة الله تعالى وطاعة رسوله ﷺ هي الأساس في صرح الالتزام بالدين، فلا تسويف ولا إفراط ولا تفريط، إنما القصد والاعتدال وخشية الله تعالى.

إن الموت والقبر في حس كل مسلم ليس شبحًا مخيفًا، وإنما هو دافع للمسارعة إلى العمل الصالح والمبادرة بالتوبة من المعاصي، أملاً في إكرام الله تعالى له برضوانه وجنته وأن يكون في الدار الآخرة من السعداء.

وفي هذا يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «يكفي في طيب هذه الحياة الدنيا مرافقة الرفيق الأعلى ومفارقة الرفيق المؤذي المنكر، التي تنغص رؤيته ومشاهدته الحياة، فضلاً عن مخالطته وعشرته، إلى الرفيق الأعلى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا، في جوار الرب الرحمن الرحيم، ولو لم يكن في الموت خير إلا أنه باب الدخول في هذه الحياة، وجسر يعبر منه إليها لكفى تحفة للمؤمنين»[1].

ولذلك لابد للمسلم أن يكثر من ذكر الموت كما قال ﷺ: **«أكثروا من ذكر هادم اللذات»**[2] ليكون ذلك واعظًا لنفسه وحاجزًا له عن التعلق بالدنيا والشغف بها وعن المعاصي كذلك، فإن تذكر الموت وما بعده يدفع المسلم إلى التزام التقوى والمسارعة إلى العمل الصالح كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ (الحشر: ١٨-١٩).

وصدق الشاعر الذي قال:

جزى الله عنا الموت خيرًا فإنه ... أبر بنا من كل برٍّ والطف
يعجل تخليص النفوس من الأذى ... ويدني إلي الدار التي هي أشرف

(موعظة)[3]:

اعلم ـ يا أخي ـ أن الأجل قريب وهو مستور عنك وهو في يد غيرك، يسوق حثيث الليل والنهار، وإذا انتهت المدة حيل بينك وبين العُدة، فاحتل قبل المنتهى، وأكرم أجلك بحسن صحبة الصادقين، وإذا أنستك السلامة فاستوحش

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/ ٢٧٤).
(٢) رواه الترمذي وحسنه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٠٨).
(٣) مستفاد من «إرشاد العباد للاستعداد ليوم المعاد» لعبد العزيز محمد السلمان، و«بستان الواعظين ورياض السامعين» لابن الجوزي ـ رحمه الله ـ.

بالعطب، فإنه الغاية، وإذا فرحت بالعافية فاحسب حسابًا للبلاء، وإذا بسطك الأمل فاقبض نفسك عن ذكر الأجل، فهو الموعد وإليه المورد.

قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾، يموت كل صغير وكبير، يموت كل أمير ووزير، يموت كل عزيز وحقير، يموت كل غني وفقير، يموت كل نبي وولي، يموت كل نجي وتقي، يموت كل زاهد وعابد، يموت كل مُقر وجاحد، يموت كل صحيح ومستقيم، يموت كل مريض وسليم، كل نفس تموت غير ذي العزة والجبروت.

وروي عن عيسى عليه السلام أنه قال: ما من مولود يولد إلا في سرته من تراب الأرض التي يموت فيها، وأنشدوا:

أمر على المقابر كل حين ⁂ ولا أدرى بأي أرض قبري
وأفرح بالغنى إن زاد مالي ⁂ ولا أبكي على نقصان عمري

ما أحسن حال من ذكر الموت، فعمل للخلاص قبل الفوت، وأشغل نفسه بخدمة مولاه، وقدم من دنياه لأخراه، ورغب في دار لا يزول نعيمها، ولا يهان كريمها.

فكأني بك يا أخي وقد صرخ عليك النسوان، وبكى عليك الأهل والإخوان، وفقدك الولدان، ونفخ لفرقتك الجيران، ونادى عليك الجيران قد مات فلان بن فلان، ثم نقلت عن الأحباب، وحملت إلى أرماس التراب، وأضجعوك في محل حتفك، قصير السمك، مهول منظره، كثير وعره، فغشي بالوحشة، يا ابن آدم ما أعقلك، وعن الصاحب ما أبعدك، كأنك بالموت قد فاجأك، وملك الموت قد وافاك، فيئس منك الطبيب، وفارقك الحبيب، وتفجع لفقدك كل قريب، فوقعت في الحسرة، وجفتك العَبْرة، وبطل منك اللسان، بعد الفصاحة والبيان، وأدرجت في الأكفان، وأزعجت عن الأوطان، وصار القبر مأواك، إلى يوم القيامة مثواك، وفارقك الأهل والإخوان، ووقع لهم عنك السلو والنسيان، فإن كان لك منزل سكنوه، أو كنت ذا مال اقتسموه، فيا أخي اذكر ما

وصفتـه، واحفظ ما حكيته، وعليك بـالصوم والاجتهاد، والطاعـة لرب العباد، ومراقبته بالليل والنهار، والتضرع إليه في ظلمات الأسحار.

يا هـذا! عمرك أنفاس معدودة، وعليك رقيب يحصيها، ولا تنس الموت فإنه لا ينسـاك .. المبادرة .. المبـادرة، لو حُبست عنك لانقطع عنك عملـك آخر الأبد، وخروج نفسك آخر الأمد، وفراق أهلك آخر العدد.

واستـغفر من ذنوبك يا مـسكين قبل عرق الجبين، وانـتشار العرقين، وقـبل مد الشمـال وقبض اليـمين، وتضعيف قـوتك بالأنين، ويكثر حـواليك البكاء والحنين، وجرت دموعك لمفارقة الأهل والبنين، ولا ينفعك ما جمعت من الأموال في الشهور والسنين، ثم أنت في قبرك لعملك رهين، إلى يوم عرضك على أسرع الحاسبين.

الموت لا والداً يبـقي ولا ولداً ... هو السبيل إلى أن لا ترى أحدا
مات النبي فلم يخلد لأمته ... لو خلَّد إن حيّاً قبله خلدا
للموت فينا سهام غير مخطئة ... من فاته اليوم سهم لم يفته غدا
ما ضرَّ من عرف الدنيا وغدرتها ... ألا ينافس فيها أهلها أبدا

تقي، نقي، زاهد بعلم، غير غافل عن ربه، لسانه رطب بذكر الله تعالى:

فالتقوى الحقيقية تحمل صاحبها على نقاء قلبه وسلامة صدره، وصاحب القلب السليم يكون مطمئن البال، هادئ النفس، يحب الخير لكل الناس، لا يؤذي أحدًا، ولا يمتلئ قلبه بضغينة أو كراهية أو حقد أو حسد أو غل لأحد من الناس.

عن عبد الله بن عمرو قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الناس أفضل؟ قال: «**كل مخموم القلب صدوق اللسان**»، قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «**هو التقي النقي، لا إثم فيه ولا بغي ولا غل ولا حسد**»[1].

---

(١) رواه ابن ماجه.

والشفاء من الحقد نعمة من الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وليس أهنأ للمرء، ولا أطرد لهمومه، ولا أقرَّ لعينه من أن يعيش سليم القلب، بريئًا من وساوس الضغينة وثوران الأحقاد، ومستريحًا من نزعات الحقد الأعمى، ولعل أهم ما يميز صاحب القلب النقي:

١ ـ تركه ما لا يعنيه.

٢ ـ حسن الظن بالناس.

فهنيئًا لكل زوجة أنعم الله تعالى عليها بزوج صاحب قلب سليم.

الحقد دائن دفين ليس يحمله ... إلا جهول مليء النفس بالعلل
مالي وللحقد يُشقيني وأحمله ... إني إذًا لغبي فاقد الحيل
سلامة الصدر أهنالي وأحب لي ... ومركب المجد أحلى لي من الزلل
إن نمت نمت قرير العين ناعمها ... وإن صحوت فوجه السعد يَبْسُمُ لي
وأمتطي لمراقي المجد مركبتي ... لا حقد يوهن من سعيي ومن عملي

وأما الذكر:

«الذكر منشور الولاية، الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عزل، وهو قوت قلوب القوم، الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً.

وهو منزل القوم الذي منه يتزودون، وفيه يتَّجرون، وإليه دائمًا يترددون، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الطريق. دواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منهم القلوب، والسبب الواصل والعَلاقة التي كانت بينهم وبين علام الغيوب.

إذا مرضنا تداوينا بذكركم ... فنترك الذكر أحيانًا فننتكس

به يستدفعون الآفات، ويستكشـفون الكربات، وتهون عليهم به المصيبات، إذا أظلهم البلاء فإليه ملجؤهم، وإذا نزلت بهم النوازل فإليه مفزعهم، فهو يدع القلب الحزين ضاحكًا مسرورًا، ويوصل الذاكر إلى المذكور بل يدع الذاكر مذكورًا.

وفي كل جارحة من الجوارح عبودية مؤقتة، و«الذكر» عبودية القلب واللسان وهي غير مؤقتة، بل هم يؤمرون بذكر معـبودهم ومحبوبهم في كل حال، قيامًا وقعوداً وعلى جنوبهم، فكما أن الجنة قيعان، وهو غراسها، فكذلك القلوب بور خراب، وهو عمارتها وأساسها.

وهو جلاء القلوب وصـقالها، ودواؤها إذا غـشيهـا اعتلالهـا، وكلما ازداد الذاكر في ذكره استـغراقًا، ازداد المذكور محبة إلى لقائه واشـتياقًا، وإذا واطأ في ذكره قلبـه للسانه، نسي في جنب ذكره كل شيء، وحـفظ الله عليه كل شيء، وكان له عوضًا من كل شيء.

به يزول الوقـر عن الأسـمـاع، والبكم عن الألسن، وتنقـشع الظلمـة عن الأبصار، زين الله به ألسنة الذاكرين، كما زين بالنور أبصار الناظرين، وهو باب الله الأعظم المفتوح بينه وبين عبده، ما لم يغلقه العبد بغفلته.

قـال الحسن البـصري ـ رحـمه الله ـ: تفـقدوا الحـلاوة في ثلاثة أشيـاء: في الصلاة، وفي الذكر، وقراءة القرآن، فإن وجدتم.. وإلاَّ فاعلموا أن الباب مغلق.

وبالذكر يصـرع العبد الشيطان، كمـا يصرع الشيطان أهل الغفلـة والنسيان. قال بعض السلف: «إذا تمكن الذكر من القلب، فإن دنا منه الشـيطان صرعه كما يُصرع الإنسان إذا دنا منه الـشيطان، فيجمع عليـه الشياطين فيقـولون: ما لهذا؟ فيقال: «قد مسه الإنسي»[(١)].

---

(١) «مدارج السالكين» (٢/ ٤٢١-٤٢٢).

ما عرف قدر جلاله من فتر لحظة عن ذكره.

قال ذو النون: ما طابت الدنيا إلا بذكره، ولا طابت الآخرة إلا بعفوه، ولا طابت الجنة إلا برؤيته.

أبدًا نفوسُ الطالبين ❊ إلى رياضكم تحنُّ
وكذا القلوبُ بذكركم ❊ بعد المخافة تطمئنُّ
حنَّت بذكركمُ من ❊ يهوى الحبيب ولا يحنُّ

وفي القلب خلة وفاقة لا يسدها شيء ألبتة إلا ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فإذا صار الذكر شعار القلب، بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة، واللسان تبعًا له، فهذا هو الذكر الذي يسد الخلة، ويفني الفاقة.

والذكر يجمع المتفرق ، ويفرق المجتمع، ويقرب البعيد، ويبعد القريب، فيجمع ما تفرق على العبد من قلبه وإرادته، وهمومه وعزومه، والعذاب كل العذاب في تفرقها وتشتتها عليه، وانفراطها له، والحياة والنعيم في اجتماع قلبه وهمه، وعزمه وإرادته.

ويفرق ما اجتمع عليه من الهموم والغموم والأحزان والحسرات على فوات حظوظه ومطالبه.

ويفرق أيضًا ما اجتمع عليه من ذنوبه وخطاياه وأوزاره.

ويفرق ما اجتمع على حربه من جند الشيطان، فإن إبليس لا يزال يبعث له سرية بعد سرية، وكلما كان أقوى طلبًا لله ـ سبحانه وتعالى ـ، وأمثل تعلقًا به وإرادة له، كانت السرية أكثف وأكثر وأعظم شوكة، بحسب ما عند العبد من مواد الخير والإرادة، ولا سبيل إلى تفرق هذا المجتمع إلا بدوام الذكر.

ويقرب إليه الآخرة، فلا يزال يلهج بالذكر حتى كأنه قد دخلها وحضرها.

والذكر ينبه القلب من نومه، ويوقظه من سِنَتِه، والقلب إذا كان نائمًا فاتته الأرباح والمتاجر، وكان الغالب عليه الخسران، فإذا استيقظ وعلم ما فاته في نومته، شد المئزر، وأحيا بقية عمره، واستدرك ما فاته، ولا تحصل يقظته إلا بذكر، فإنَّ الغفلة نوم ثقيل.

والذكر شجرة المعارف والأحوال التي شمر إليها السالكون.

والذكر يثمر المقامات من اليقظة إلى التوحيد، ويعدل عتق الرقاب والحمل على الخيل في سبيل الله، ويعدل الضرب بالسيف في سبيل الله - عزَّ وجلَّ -، وهو خير الأعمال على الإطلاق، قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الوَرِق والذهب، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟»**، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: **«ذكر الله»**[(١)].

وأعلى الذكر منزلة تلاوة القرآن.. أحسن الحديث والطيب من القول.. مزامير الأُنس من حضرة القدس، بألحان التوحيد من رياض التمجيد، وهذا طعم الخبر فكيف طعم النظر!

آيات منزّلة من حول العرش، الأرض بها سماء هي منها كواكب.

ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة، وإذا لانت فأنفاس الحياة الآخرة.

معانٍ هي عذوبة ترويك من ماء البيان، ورقّة تستروح منها نسيم الجنان.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، والحاكم عن أبي الدرداء وصححه، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٦٢٩).

ألفاظ لم تعهد كلم أحداقها، وثمرات لم تنبت في قلم أوراقها .. نور القلوب الذي لا تستضيء إلا به، وحياة الأرواح .. بل الروح الذي تتوقف الحياة الحقيقية عليه ... فضل الله ورحمته ونعمته الكبرى، لا يسعها ولا يحيط بها حمد وشكر الخلائق.

﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (العنكبوت: ٥١) [(١)].

فالزوج المسلم التقي الذي يرجو الله والدار الآخرة لابد أن ينشغل لسانه بذكر حبيبه، وليس في قلبه أغلى وأحب من مولاه وسيده ـ جل وعلا ـ وذلك انطلاقًا من قوله ﷺ: «**أوصيك بتقوى الله تعالى، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض**» [(٢)].

وقوله ﷺ لما سأله معاذ بن جبل رضي الله عنه: «**أي الأعمال أحب إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ؟**»، قال: «**أن تموت ولسانك رطب من ذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ**» [(٣)].

وقال مالك بن دينار: ما تنعَّم المتنعمون بمثل ذكر الله.

وهذه بعض النماذج من الهمم العالية الذاكرة لله تعالى، عسى أن تكون حافزًا لأصحاب الهمم الضعيفة وما أكثرهم:

- قال النووي ـ رحمه الله ـ: وروى ابن أبي داود بإسناده أن عثمان بن عفان رضي الله عنه كان يفتتح القرآن ليلة الجمعة ويختمه ليلة الخميس [(٤)].

---

(١) «صلاح الأمة» (٣/٦-٩).
(٢) حديث حسن، رواه أحمد عن أبي سعيد، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٢٥٤٣).
(٣) حديث حسن، أخرجه ابن حبان والبزار.
(٤) «التبيان في آداب حملة القرآن» (ص٥٩).

■ وقال ابن مسعود رضي الله عنه ذاكرًا صفات حامل القرآن: «ينبغي لحامل القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ الناس مفطرون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبصمته إذ الناس يخوضون، وبخشوعه إذ الناس يختالون.

وينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا، حليمًا حكيمًا، ساكنًا.

ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافًا ، ولا غافلاً، ولا صخَّابًا، ولا صيَّاحًا، ولا حديدًا»(١).

■ وهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه، ما بكى عند الموت إلا على مجالس الذكر.

قال رضي الله عنه: «اللهم إنك تعلم أني ما كنت أحب البقاء في الدنيا لكري الأنهار ولا لغرس الأشجار وإنما لمكابدة الساعات وظمأ الهواجر ومزاحمة العلماء بالركب عند حلق الذكر».

■ وعن عكرمة أن أبا هريرة رضي الله عنه كان يسبح كل يوم اثني عشر ألف تسبيحة ، ويقول: «أسبح بقدر ديني».

■ وكان الأسود بن يزيد النقاعي يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليال.

■ قال الربيع بن سليمان: «كان الشافعي يختم القرآن في شهر رمضان ستين ختمة».

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٩٥).

■ وقال القاسم بن الحافظ بن عساكر: كان أبي مواظبًا على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، ويختم كل جمعة، ويختم في رمضان كل يوم، وكان كثير النوافل والأذكار، ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة.

■ وقال شيخ الإسلام ابن القيم: حضرت شيخ الإسلام ابن تيمية مرة صلى الفجر، ثم جلس يذكر الله تعالى إلى قريب من انتصاف النهار، ثم التفت إليَّ وقال: هذه غدوتي، ولو لم أتغدَّ الغداء سقطت قوتي.

وقال أيضًا: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: الذكر للقلب مثل الماء للسمك، فما حال السمك إذا فارق الماء؟.

فهل من مقتدٍ بهذه النماذج الشامخة التي استولت محبة الله تعالى ومعرفته على قلوبهم؟.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: المحبة لله تعالى، ومعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، وإفراده بالحب، والخوف والرجاء، والتوكل والمعاملة، وبحيث يكون هو وحده المستولي على هموم العبد وعزماته وإرادته هو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرة عين المحبين وحياة العارفين. وعالي الهمة ينظر إلى عظم أجر الذكر فيداوم عليه، ومن شاء أن يسكن رياض الجنة في الدنيا فليتوطن مجالس الذكر فإنها رياض الجنة.

■ عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: **«مثل الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت»**(١).

■ وعن طلحة عن النبي ﷺ قال: **«ليس أحد أفضل عند الله من مؤمن يعمر في الإسلام لتكبيرة أو تحميدة أو تسبيحة أو تهليلة»**(٢).

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه الإمام أحمد، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (٥٣٧١).

■ وعن عمران بن حصين أن النبي ﷺ قال: **«ما من ساعة تمر بابن آدم لم يذكر الله فيها إلا حسر عليها يوم القيامة»**[(١)].

■ وقال ذي النون عن الذاكرين:

رجال أطاعوا الله في السر والجهر ◘■◘ فما باشروا اللذات حيناً من الدهر

أُناس عليهم رحمة الله أنزلت ◘■◘ فظلوا سُكوناً في الكهوف وفي القفر

يراعون نجم الليل ما يركضونه ◘■◘ فباتوا بإدمان التهجد والصبر

فداخل هموم القلب للخلق وحشة ◘■◘ فصاح بهم أنس الجليل إلى الذكر

فأجسادهم في الأرض هَوْناً مقيما ◘■◘ وأرواحهم تسري إلى معدن الفخر

فهذا نعيم القوم إن كنت تبغي ◘■◘ وتعقل عن مولاك آداب ذوي القدر[(٢)]

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» برقم (١٥٧١).

(٢) «حلية الأولياء» (٩/ ٣٨٦).

الصفة التاسعة

يعرف قيمة الوقت وأهميته، فيغتنم مواسم الشهور والأيام والساعات، ويتقرب فيها إلى مولاه بما فيها من وظائف الطاعات، عسى أن تصيبه نفحة من تلك النفحات، فيسعد بها سعادة يأمن بعدها من النار وما فيها من اللفحات.

يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «العبد من حين استقرت قدمه في هذه الدار فهو مسافر فيها إلى ربه، ومدة سفره هي عمره الذي كُتب له، فالعمر هو مدة سفر الإنسان في هذه الدار إلى ربه، ثم قد جُعلت الأيام والليالي مراحل لسفره، فكل يوم وليلة مرحلة من المراحل، فلا يزال يطويها مرحلة بعد مرحلة حتى ينتهي السفر، فالكيِّس الفطن هو الذي يجعل كل مرحلة نُصب عينيه، فيهتم بقطعها سالمًا غانمًا، فإذا قطعها جعل الأخرى نُصب عينيه، ولا يطول عليه الأمر فيقو قلبه ويمتد أمله، ويحصر بالتسويف والدعة والتأخير والمطل، بل يُعدُّ عمره تلك المرحلة الواحدة فيجتهد في قطعها بخير ما بحضرته، فإنه إذا تيقن قِصَرها، وسرعة انقضائها هان عليه العمل، فطوَّعت له نفسه الانقياد إلى التزود، فإذا استقبل المرحلة الأخرى من عمره استقبلها كذلك، فلا يزال هذا دأبه حتى يطوي مراحل عمره كلها، فيحمد سعيه، ويبتهج بما أعدَّه ليوم فاقته وحاجته، فإذا طلع صبح الآخرة ما يستقبل يومه وقد لاح صباحه واستبان فلاحه!»[1].

(١) «طريق الهجرتين وباب السعادتين» (ص١٨٥-١٨٦).

قالت حفصة بنت سيرين: يا معشر الشباب، اعملوا فإني رأيت العمل في الشباب.

ويقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إذا أراد الله بالعبد خيرًا: أعانه بالوقت، وجعل وقته مساعدًا له، وإذا أراد به شرًا: جعل وقته عليه، وناكده وقته، فكلما أراد التأهب للمسير لم يساعده الوقت، والأول: كلما همت نفسه بالقعود أقامه الوقت وساعده»(١).

إن الوقت عند المسلم يجب أن يكون أعزَّ شيء يغار عليه أن ينقضي بلا عمل ينفعه في الدنيا والآخرة، لأن الوقت إذا فات لا يمكن استدراكه أبدًا.

وكما قالوا: من علامة المقت، إضاعة الوقت.

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «أعلى الفِكَر وأجلُّها وأنفعها ما كان لله والدار الآخرة، فما كان لله فهو أنواع...

النوع الخامس: الفكرة في واجب الوقت ووظيفته، وجمع الهمِّ كله عليه، فالعارف ابن وقته فإن أضاعه ضاعت عليه مصالحه كلها، فجميع المصالح إنما تنشأ من الوقت، فمتى أضاع الوقت لم يستدركه أبدًا»(٢).

وعن الحسن قال: ليس يوم يأتي من أيام الدنيا إلا يتكلم يقول: يا أيها الناس، إني يوم جديد، وإني على ما يُعمل فيَّ شهيد، وإني لو قد غربت الشمس لم أرجع إليكم إلى يوم القيامة.

---

(١) «مدارج السالكين» (٣/١٢٩-١٣٠).

(٢) «الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي».

قال ابن أبي الدنيا: أنشدنا محمود بن الحسين:

مضى أمسك الماضي شهيداً معدَّلاً ◦◦◦ وأعقبه يومٌ عليك جديدُ
فيومك إن أغنيته عاد نفعه ◦◦◦ عليك وماض الأمس ليس يعودُ
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة ◦◦◦ فثن بإحسان وأنت حميدُ
فلا تُرج فعل الخير يومًا إلى غدٍ ◦◦◦ لعل غداً يأتي وأنت فقيدُ

يقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «ينبغي للإنسان أن يعرف شرف زمانه، وقدر وقته، فلا يضيع منه لحظة في غير قربة، ويقدم الأفضل فالأفضل من القول والعمل، ولتكن نيته في الخير قائمة ـ من غير فتور ـ بما يعجز عنه العديد من العمل»[(١)].

قال قتادة: فأدوا إلى الله من أعمالكم خيراً في هذا الليل والنهار، فإنهما مطيتان تفحمان الناس إلى آجالهم، يقربان كل بعيد، ويدليان كل جديد، ويجيئان بكل موعود إلى يوم القيامة.

ويقول ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «واعلم أن الزمان أشرف من أن يضيِّع منه لحظة، فإن الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من قال: سبحان الله العظيم وبحمده، غُرست له نخلة في الجنة»**[(٢)]، فكم يضيِّع الآدمي من ساعات يفوته فيها الثواب الجزيل»[(٣)].

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٢٠).
(٢) صحيح «السلسلة الصحيحة» (٦٤).
(٣) «صيد الخاطر» (ص٤٨٠).

من هذه المنطلقات يعيش الزوج المسلم حياته مغتنمًا لأوقاته، مستفيدًا بأنفاسه، يتنقل من عبادة إلى أخرى، ومن طاعة إلى أختها، ومن خير إلى خير.

وهذه أهم الطاعات أذكرك بها عسى أن تغتنمها في يومك وليلك:

١ ـ الأذكار المطلقة والمقيدة.

٢ ـ النوافل: كصلاة الضحى، ونوافل الفرائض، وقيام الليل، والصيام، والصدقة، نحو ذلك.

٣ ـ تلاوة كتاب الله تعالى.

٤ ـ جلسة أسبوعية مع الأولاد تشتمل على حفظ كتاب الله تعالى، ودراسة سيرة النبي ﷺ وحفظ حديث رسول الله ﷺ، وحل مشاكل الأولاد، والتنبيه على أخطائهم حتى لا يكرروها، والثناء على محاسنهم.

٥ ـ تعلُّم العلم الشرعي، ولو أن تضع بجانب سريرك كتابًا تقرأ منه كل يوم صفحة أو صفحتين لحصَّلت علمًا كثيرًا.

٦ ـ صلة الأرحام وبر الوالدين.

٧ ـ الزيارة في الله.

٨ ـ الاستماع إلى المحاضرات الإسلامية المسجلة على شرائط، والتي تحض على العلم النافع والعمل الصالح.

٩ ـ قضاء حوائج المسلمين، وتفريج كرياتهم، وإصلاح ذات البين.

١٠ ـ الاهتمام بالدعوة إلى الله تعالى، كل على قدر علمه وطاقته ووقته.

١١ ـ الاهتمام بالزوجة داخل البيت وإعانتها وإدخال السرور عليها.

١٢ ـ السعي على المعاش وتحري أكل الحلال واجتناب الحرام.

(فصل) أهم العوامل المساعدة على استغلال الوقت:

١ ـ الدعـاء:

وهو من أقوى الأسباب المساعدة على استغلال الوقت في نفع الدنيا والآخرة.

٢ ـ الزهد في الدنيا:

قال ابن القيم: سمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يخاف ضرره في الآخرة.

وقال أحد الزهاد: ما علمت أن أحدًا سمع بالجنة والنار تأتي عليه ساعة لا يطيع الله فيها بذكر أو صلاة أو قراءة أو إحسان.

والزهد يقلل من تعلق القلب بالدنيا، فلا تضيع الأوقات والأعمار في طلبها والحرص عليها.

٣ ـ الخـوف من الله:

فإن الخوف يحمل صاحبه على استغلال وقته فيما ينفع في الدنيا والآخرة، خوفًا من أن يسأله الله تعالى يوم القيامة عن وقته وعمره الذي ضيعه.

٤ ـ صدق العزيمة وعلو الهمة:

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لذة كل أحد على حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس وأعلاهم همة وأرفعهم قدرًا، من لذتهم في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه».

ومن كان هذا حاله وقدره فكيف يضيع وقته في الدون؟!

٥ ـ معرفة كيفية استغلال الصالحين لأوقاتهم:

فإن في ذلك شحذ لهمة المسلم، وتهييج له على الاقتداء بالصالحين في حرصهم على أوقاتهم.

▪ قيل لنافع: ما كان ابن عمر يضع في منزله؟، قال: «**الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما**».

▪ وهذا الفقيه النحوي ابن عقيل الحنبلي يقول: إني لا يحل لي أن أضيع ساعة من عمري، حتى إذا تعطل لساني عن مذاكرة ومناظرة، وبصري عن مطالعة، أعملت فكري في حال راحتي وأنا مستطرح.

▪ وقال ابن مسعود ﷺ: «ما ندمت على شيء ندمي على يوم غربت شمسه؛ نقص فيه أجلي، ولم يزد فيه عملي».

▪ وكان عبيد بن يَعيش (شيخ البخاري ومسلم) يقول: أقمت ثلاثين سنة ما أكلت بيدي بالليل، كانت أختي تلقمني وأنا أكتب الحديث.

▪ وكان ابن جرير الطبري آية من الآيات في حفظ الوقت.

فقد قال تلميذه القاضي أبو بكر الشجري: «كان إذا أكل نام في قميص قصير الأكمام، ثم يقوم فيصلي الظهر في بيته، ويكتب في تصنيفه إلى العصر، ثم يخرج فيصلي العصر، ويجلس للناس يُقرئ ويُقرأ عليه إلى المغرب، ثم يجلس للفقه والدرس بين يديه إلى العشاء الآخرة، ثم يدخل منزله، وقد قسَّم ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه والخلق كما وفقه الله - عزَّ وجلَّ -.

▪ وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية، كان لا يُفوِّت ساعة من وقته دون تعليم أو تأليف أو عبادة حتى بلغت مؤلفاته المئات.

▪ وقال الفخر الرازي: «والله إني أتأسَّف في الفوات عن الاشتغال بالعلم في وقت الأكل؛ فإن الوقت والزمان عزيز».

(فصل) هل قمت بدراسة جدوى لحياتك؟!

لو أردنا عمل دراسة جـدوى لحياة أي مسلم منا يعيش سـتين سنة مثلاً وهو غالب أحوال الناس لقوله ﷺ : **«أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين وأقلهم من يجوز ذلك»**(١).

هل سأل أحدنا نفسه: عن كم سنة نحاسب أمام الله ـ عزَّ وجلَّ ـ...؟

أولاً ـ ننام ثماني سـاعات يوميًا في خـمس وأربعين سنة أي ما يساوي خـمسة عشر عامًا نقضيها في النوم، لقوله ﷺ : **«رفع القلم عن ثلاثة، ومنها.. وعن النائم حتى يستيقظ»**(٢)، يعني ذلك خمسة عشر عامًا لا يحاسب عليها بسبب النوم.

ثانيًا ـ لا نؤاخذ حتى سن البلوغ والذي يتفاوت من عشر سنوات إلى خمس عشر سنة، أي: لا نحـاسب حتى سن الخامسة عشرة تقـريبًا، لقوله ﷺ في نفس الحديث: **«وعن الصبي حتى يحتلم»**.

إذن كم بقي من الستـين عامًا، حوالـي ما بين الخمس وعـشرين إلى ثلاثين سنة تقريبًا فهل هذا العمر القصير يستحق الأهوال القادمة؟

أين القبور من عهد عاد؟

أين الذين ماتوا منذ خلق الدنيا؟

ومعلوم لدينا جميعًا أن القبر هو أول منازل الآخرة.

مئات القرون مرت على أناس يعذبون في قبورهم حتى الآن وإلى قيام الساعة.

يدفن الإنسان في قـبره ويصير غريبًـا، وما أشد غربتـه إذا لم يكن معه زادٌ يتزود به.

---

(١) صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة «صحيح الجامع» (١٠٧٣).

(٢) صحيح: رواه أحمد، وغيره عن علي رضي الله عنه «صحيح الجامع» (٣٥١٢).

والإنسان في قبره يسأل ثلاثة أسئلة هي محصلة هذه السنوات كلها التي سيحاسب عليها: من ربك؟ وما دينك؟ وما تقول في الرجل المبعوث فيكم؟

كثير من الناس ظل حياته كلها لا يفكر في الإجابة على هذه الأسئلة!

فهل الأهوال التي تبدأ من القبر تستأهل ضياع أعمارنا فيما لا ينفعنا في الآخرة؟!(١).

فيا أيها الزوج الحبيب «هلمَّ إلى الدخول على الله ومجاورته في دار السلام بلا نصب ولا تعب ولا عناء، بل من أقرب الطرق وأسهلها، وذلك أنك في وقت بين وقتين، وهو في الحقيقة عمرك، هو وقتك الحاضر بين ما مضى وما يُستقبل، فالذي مضى تصلحه بالتوبة والندم والاستغفار، وذلك شيء لا تعب عليك فيه ولا نصب ولا معاناة عمل شاق، إنما هو عمل قلب.

وتمتنع فيما يستقبل من الذنوب، وامتناعك ترك وراحة ليس هو عملاً بالجوارح يشق عليك معاناته، وإنما هو عزم ونية جازمة يريح بدنك وقلبك وسرك.

فما مضى تصلحه بالتوبة، وما يستقبل تصلحه بالامتناع والعزم والنية، وليس في هذين نصب ولا تعب، ولكن الشأن في عمرك وهو وقتك الذي بين الوقتين، فإن أضعته أضعت سعادتك ونجاتك، وإن حفظته مع إصلاح الوقتين اللذين قبله وبعده بما ذكر، نجوت وفزت بالراحة واللذة والنعيم، وحفظه أشق من إصلاح ما قبله وما بعده، فإن حفظه أن تلزم نفسك بما هو أولى بها وأنفع لها وأعظم تحصيلاً لسعادتها.

---

(١) للشيخ أبي إسحاق الحويني، خطبة مسجلة بعنوان «دراسة جدوى لحياة إنسان» فلتراجعها لأهميتها.

وفي هذا تفاوت الناس أعظم تفاوت، فهي والله أيامك الخالية التي تجمع فيها الزاد لمعادك، إما إلى الجنة وإما إلى النار، فإن اتخذت إليها سبيلاً إلى ربك بلغت السعادة العظمى والفوز الأكبر في هذه المدة اليسيرة التي لا نسبة لها إلى الأبد، وإن آثرت الشهوات والراحات واللهو واللعب انقضت عنك بسرعة وأعقبتك الألم العظيم الدائم الذي مقاساته ومعاناته أشق وأصعب وأدوم من معاناة الصبر عن محارم الله والصبر على طاعته ومخالفة الهوى لأجله»[1].

وإن كان للوقت هذه الأهمية البالغة، فلابد أن يحاسب المسلم نفسه على تضييع الأوقات، فالغفلة داء عضال يجب الحذر منه والمسارعة إلى علاجه.

■ يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إن الغافل عن الاستعداد للقاء ربه والتزود لمعاده، بمنزلة النائم بل أسوأ حالاً منه، فإن العاقل يعلم وعد الله ووعيده .. لكن يحجبه عن حقيقة الإدراك، ويُقعده عن الاستدراك سِنَة القلب، وهي غفلته التي رقد فيها فطال رقوده .. وانغمس في غمار الشهوات، واستولت عليه العادات، ومخالطة أهل البطالات، ورضي بالتشبه بأهل إضاعة الأوقات، فهو في رقاده مع النائمين .. فمتى انكشف عن قلبه سنة هذه الغفلة بزجرة من زواجر الحق في قلبه، استجاب فيها لواعظ الله في قلب عبده المؤمن .. ورأى سرعة انقضاء الدنيا .. فنهض في ذلك الضوء على ساق عزمه قائلاً: ﴿يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ (الزمر:٥٦)، فاستقبل بقية عمره مستدركًا بها ما فات، محييًا بها ما أمات، مستقبلاً بها ما تقدم له من العثرات..

---

(١) «الفوائد» ص(١٥١).

ثم يبرق له في نور اليقظة، بارقة أخرى يرى في ضوئها عيوب نفسه وآفات عمله، وما تقدم له من الخبايات والإساءات وهتك الحرمات والتقاعد عن كثير من الحقوق والواجبات، فإذا انضم ذلك إلى شهود نعم الله عليه وأياديه لديه، رأى أن حق المنعم عليه في نعمه وأوامره لم يبق له حسنة واحدة يرفع بها رأسه .. انكسرت نفسه وخشعت جوارحه..

ثم تبرق له بارقة أخرى يرى في ضوئها عزة وقته وخطره وشرفه، وأنه رأس مال سعادته، فيبخل به أن يضيعه فيما لا يقربه إلى ربه، فإن في إضاعته الخسران والحسرة والندامة، وفي حفظه وعمارته الربح والسعادة، فيشح بأنفاسه أن يضيعها فيما لا ينفعه يوم معاده.

ثم يلحظ في ضوء تلك البارقة ما تقتضيه يقظته من سنة غفلته، من التوبة والمحاسبة والمراقبة والغيرة لربه أن يؤثر عليه غيره..

فهذا كله من آثار اليقظة وموجباتها، وهي أول منازل النفس المطمئنة»[(١)] .

وبهذا يتبين للمسلم أهمية محاسبة النفس على ما ضيعت من أوقات، وكيف يكون إيقاظ النفس وشد همتها لاغتنام الأوقات، فالوقت هو الحياة وما أحسن قول الشاعر:

إذا أنت لم تزرع والغيت حاصداً ••• ندمت على التفريط في زمن البذر

ويوضح الإمام الغزالي طريقة محاسبة النفس على تضييع الأوقات والغفلة عن الطاعات فيقول: «إذا أصبح العبد، وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي له أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس فيقول للنفس: ما لي بضاعة إلا العمر، ومتى

---

(١) «الروح» لابن القيم (ص٢٢٣-٢٢٥).

فني فقد فني رأس المال، وهذا اليوم الجديد قد أمهلني الله فيه. ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يومًا واحدًا حتى أعمل صالحًا، فاحسبي أنك قد توفيت ثم رددت، فإياك ثم إياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة»[١].

والواقع أن الإنسان يرغب فيما يحب، ويسارع إلى ما يهفو قلبه إليه، فإن كان قلبه متعلقًا بالدنيا ألقيته سباقًا إلى أعمالها وأموالها بطيئًا عن طاعة ربه، وإذا تعلق قلبه بالله سبحانه وخلصه مما يشغل عنه، كانت همته إلى الطاعات كبيرة وغفلاته عن الله قليلة.

ولذلك ينبغي أن تكون محاسبة العبد لنفسه في هذا المجال ميزانًا يعرف به مستوى الإيمان في قلبه فيسارع إلى تغذية شجرة الإيمان لتثمر المسارعة إلى الأعمال الصالحة)[٢].

---

(١) «إحياء علوم الدين» (٤/ ٣٩٤).

(٢) «منهج الإسلام في تزكية النفس» الدكتور: أنس أحمد كرزون (١/ ٣٥).

الصفة العاشرة

رجل المشاعر والمودة والرحمة، ليس جافًا في أسلوبه أو حديثه، بل ألفاظ الحب والحنان تعرف طريقها إلى لسانه، فأسمع منه ما يسرني ويحببه لي من الكلام الطيب الجميل.

قال تعالى: ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (الروم: ٢١).

قال صاحب الظلال: «من آياته ـ تبارك وتعالى ـ أن خلق للناس من أنفسهم أزواجًا، ليجدوا فيها سكنًا للنفس والأعصاب، وراحة للجسم والقلب، واستقرارًا للحياة والمعاش، وأنسًا للأرواح والضمائر، واطمئنانًا للرجل والمرأة على السواء»(١).

إن هذه المودة والرحمة اللتين تقررهما الآية لابد لتحقيقهما من اصطناع الأسباب التي تؤدي إليهما من الكلمة الحلوة، والبذل السخيِّ، والعشرة اللطيفة، والسلوك الحسن، والفعل الطيب، وليس ذلك كائنًا إلا بأن يتعاون الزوجان على فهم كل منهما للآخر، وأن يخطو كل منهما الخطوة الإيجابية في طريق المحبة، ويبادل صاحبه العاطفة الكريمة بمثلها(٢).

---

(١) «الظلال» (٥/ ٢٧٦٣).

(٢) «نظرات في الأسرة المسلمة» الدكتور: محمد لطفي الصباغ (ص٧٩).

حكى لي أخ فاضل شكوى زوجته: أنها لا تسمع منه كلام الحب والغزل والرقة الذي يطيب قلبها ويسعدها، حيث قال لها: إن أبي كان رجلاً جافًا لا تعرف هذه المعاني طريقها إلى لسانه مع أنه طيب القلب، وقد نشأت أشرب من هذا الكأس الجاف!!

وأنا أقول له ولمن كان على شاكلته: حاول أن تعود نفسك ولو على كلمة واحدة ممزوجة بالرقة والحب والحنان. وروض لسانك وعضلاته على ذلك ابتغاء مرضاة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولإدخال السرور على قلب زوجتك وستصل إن شاء الله.

(احرص ـ يا أخي ـ على أن تكون الكلمة الحلوة على لسانك، والابتسامة الجميلة على ثغرك دائمًا لا تدعها مهما كانت الظروف، فإن كثيراً من الناس يحيون حياة سعيدة بهذه الكلمة الطيبة، وتلك الابتسامة الرقيقة.

إن الكلمة الطيبة صدقة، وإن الابتسامة لون من المعروف، ومَنْ أحق من الزوجة بهذه الصدقة وذاك المعروف؟

نعم، ما أجدرنا أن نُعوِّد ألسنتنا على الكلام الطيب في أول حياتنا الزوجية، ومما يتصل بالكلمة الطيبة طريقة إلقائها، فقد تزيد هذه الطريقة ـ إن كانت حلوة عذبة ـ من تأثيرها؛ وما أجدرنا أن نعوِّد عضلات وجوهنا على الابتسامة التي تبسط أكثر المسائل تركيبًا وتعقيداً، وتمنحنا قوة في التغلب على كل المصاعب)[1].

إن كلمات الحب والحنان والغزل مع الزوجة لها فعل السحر في كيان المرأة ومشاعرها وأحاسيسها، بل لا نغالي إذا قلنا: إن هذه الكلمات عند كثير من النساء أغلى من الحلي الثمينة والملابس الفاخرة، لأن مشاعر الحب والعاطفة غذاء الروح وسعادة النفس.

---

(١) المصدر السابق (ص٩٠) بتصرف.

إن كلمة ثناء من الزوج أو مجاملة أو مؤانسة ربما تكون سببًا في حل مشاكل صَعُب على أهل العلم والصلاح حلها.

(إن تجاهل حاجة الزوجة إلى العاطفة العذبة التي تفيض بها الكلمة الطيبة يجعلها تحمل من جوانبها حجراً مكان القلب، مما يعكر على الزوج حياته، لأننا نعيش بالمعاني لا بالأجساد فقط وليس في الحجارة من المعاني شيء.

إن رتبة كتف حانية من الزوج مع ابتسامة مشرقة مقرونة بكلمة طيبة تذيب تعب الزوجة، وتنعش فؤادها المشرئب للعطف والحنان.

اشكر زوجتك على صحن الطعام اللذيذ الذي قد أعدته لك بيديها .. اشكرها بابتسامة ونظرة عطف وحنان .. اثن عليها وتحدث عن محاسنها وجمالها، والنساء يعجبهن الثناء ويؤثر فيهن.

اذكر لها ـ يا أخي ـ امتنانك لرعايتها وخدمتها لك، ولبيتك والأولاد، وإن كان هذا من اختصاصاتها، وإن كانت لا تقدم إلا ما تقدمه النساء عادة، لكن ذلك من قبيل الكلمة الطيبة التي تؤكد أسباب المودة والرحمة.

قل لها الكلمة الطيبة ولو نقصتها شيئًا من الطعام والمال والكساء، إنها حينئذ ستسعد وستحس بدفء الحنان والعطف والمودة في أعماق قلبها، وإذا أصبح قلبها متمتعًا بهذه المعاني دفع دماءها حارَّة مغردة في عروقها، وستندفع في خدمتك وتعيش معك العمر آمنة مطمئنة، وسوف ترى أنت بريقًا يتراقص في عينيها، وابتسامة مشرقة على شفتيها وسيتخلق لسانها بالحديث عنها وإليك بالكلمة الطيبة)[1].

---

(١) المصدر السابق (ص١١٨-١١٩) بتصرف.

إن الرجل عندما يهتم بجمال زوجته ـ أيًا كان قدره ـ ويحترم أفكارها وآراءها، ويكثر من الإشادة بعملها في البيت، فإنه بذلك يكسب ودها ومحبتها له.

إن المرأة في الغالب رقيقة المشاعر والعواطف، سهلة القيادة لمن يحسن منه القيادة، وإن استطاع الرجل أن يستحوذ على عواطفها ويسيطر على وجدانها، فمن السهل أن يجد منها الزوجة السلسلة الودود التي يستطيع أن يعيش معها أجمل وأسعد أيام حياته.

(الزوجة تملك مواصفات جمالية متنوعة، ألا يستحق جمالها الإشادة به حتى يستمر في بريق.

تقول بعض الزوجات : كثيرًا ما تقف أمام زوجها وقد وضعت مسحة كبيرة من الجمال على جسمها، ولبست أغلى وأحلى ملابسها وأنفقت كثيرًا من وقتها وجهدها، ثم تقف أمام جماد لا ينبض بالحركة! أين مشاعر وأحاسيس هذا الزوج؟!.

هل دفنها بعد ليلة الزواج؟!

أم أن مشاعره تتحرك وتود أن ترى النور، ولكنه لا يستطيع أن يبوح بها بسبب العادة؟! تتمنى المرأة أن تدفع الكثير لتسمع من زوجها شعوره نحوها وإحساسه بها.

تقول الزوجة: كم أتمنى أن يطربني زوجي بكلمة إعجاب واحدة لأعلقها وسامًا غاليًا في منزلي.

والمرأة تتألم من جفاء زوجها لها وعدم إحساسه بها.

قيل لامرأة : كم أنت جميلة! قالت: إن زوجي يرى كل شيء إلا جمالي فهو مصاب بعمى الجمال.

المرأة تحب وتكبر من يحترم جمالها ويهتم بأناقتها وملابسها ويتفاعل مع دلالها.

المرأة تسعد كثيراً عندما يثني الزوج على ملابسها وأعمالها. المرأة تتعب في تجميل نفسها وتحسين صورتها، وتحتاج إلى قطع ثمار هذا الجهد بكلمات التقدير والثناء.

المرأة تحتاج إلى إشباع لبعض غرائزها العاطفية عبر الإحساس بوجودها، والإحساس بجهودها، واحترام مجهوداتها.

المرأة تحب أن تعرف صورتها وحجمها من أقرب المحيطين بها وأولهم زوجها)[١].

---

(١) «الشهد والشوك في الحياة الزوجية» صالح بن عبد الله العيثم، بتصرف.

الصفة الحادية عشرة

يهتم بمظهره ونظافته ورائحته الطيبة مقتديًا في ذلك برسول الله ﷺ.

هذا حق من حقوق المرأة على زوجها، ولكني أفردته بالحديث لأهميته البالغة في إشاعة جو من المحبة والمودة بين الزوجين، ولتغافل بعض الأزواج عنه بما ينفر المرأة من زوجها، وربما لا يدري ما سبب هذا النفور؟!!. قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ (البقرة:٢٢٨)، فإن كان على المرأة أن تتزين لزوجها، فعلى الزوج هو الآخر أن يهتم بمظهره ونظافته ورائحته أيضًا مع امرأته.

ولذلك قال ابن عباس ﷺ: إنى لأتزين لامرأتى كما تتزين لي، وما أحب أن أستنظف كل حقي[١] الذي لي عليها، فستوجبه حقها الذي لها عليَّ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.

وللمرء أن يتعجب من قول ابن عباس ﷺ ترجمان القرآن، فمع علو مكانته في العلم، وباعه في الدعوة، وجهاده في سبيل الله، لم يضيع للمرأة حقًا لها وهو يتزين لها كما تتزين له، ولكن العجب يزول عندما يعلم أن العلم هو خشية الله - عزَّ وجلَّ -، فإذا ما وصل أحدنا إلى هذه المرتبة حقًا عرف ما عليه من حقوق وواجبات فأداها كما أمره الشرع بها، صغيرة كانت أم كبيرة.

---

(١) استنظف كل حقي: أي آخذه كله.

وذلك لأن بعض الدعاة أو الملتـزمين ينسى أو يتناسى في غمار دعـوته وعمله للدين أهل بيته وحقهم عليه، وهذا من أكبر الثغرات الموجودة عند بعض الملتزمين.

ولقد دخل رجل على الخليفة عمر ـ زوج أشـعث أغبر ـ، ومعه امرأته وهي تقول: لا أنا ولا هذا يا أمير المؤمنين[(١)].

فعرف كراهية المرأة لزوجها، فأرسل الزوج ليستحم، ويأخذ من شعر رأسه ويقلم أظافره، فلما حضر أمره أن يتقدم من زوجته، فاستغربت ونفرت منه، ثم عرفته، فقبلت به ورجعت عن دعواها.

فقال عـمر: وهكذا فاصنعوا لهنَّ، فـوالله إنهنَّ ليُحببن أن تتزينـوا لهنَّ كما تُحبون أن يتزينَّ لكم.

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾

قـال ابن كثـير ـ رحـمه الله ـ: أي: ولهن على الرجـال من الحق مثل مـا للرجال عليهن، فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف[(٢)].

وقال الألوسي ـ رحمه الله ـ: فيه صنعة الاحتباك، ولا يخفى لطفه فيما بين الزوج والزوجة، حـيث حذف الأول بقـرينة الثاني، وفي الثانـي بقرينة الأول، كـأنما قيل: ولهـن عليهم مـثل الذي لهم عليـهن، والمراد بالممـاثلة الممـاثلة في الوجوب ـ لا في جنس الفعل ـ فلا يجب عليـه إذا غسلت ثيابه أو خبزت له أن يفعل لها مثل ذلك، ولكن يقابله بما يليق بالرجال[(٣)].

---

(١) أي: خلصني منه.

(٢) «تفسير القرآن العظيم» (١/ ٦٠٩) تحقيق سامي بن محمد السلامة.

(٣) «روح المعاني» (٢/ ٢٠٣).

وقال القرطبي ـ رحمه الله ـ: ولهن: أي لهن من حقوق الزوجية على الرجال مثل ما للرجال عليهن.

وقال ابن عباس «إني لأتزين لامرأتي كما تتزين لي» قال العلماء: أما زينة الرجال فعلى تفاوت أحوالهم، فإنهم يعملون ذلك على اللبق[(١)] والوفاق، فربما كانت الزينة تليق في وقت، ولا تليق في وقت، وزينة تليق بالشباب لا تليق للشيوخ، وزينة تليق بالشيوخ لا تليق بالشباب، ألا ترى أن الشيخ والكهل حفه شاربه لِيق به ذلك وزانه، والشباب إذا فعل مُقت لأن اللحية لم توفر بعد، وكذلك في شأن الكسوة، ففي هذا كله ابتغاء الحقوق، فإنما يعمل على اللبق والوفاق ليكون عند امرأته في زينة تسترها ويعفها عن غيره من الرجال.

وكذلك الكمل من الرجال منهم من يليق به ومنهم من لا يليق به.

فأما الطيب والسواك والخلال[(٢)] والرمي بالدرن وقص الشعر والتطهير وقلم الأظفار فهو موافق للجميع، والخضاب للشيوخ والخاتم للجميع من الشباب والشيوخ زينة وهو حلي الرجال.

ثم عليه أن يتوخى أوقات حاجتها إلى الرجل فيعفَّها ويغنيها عن التطلع إلى غيره؟وإن رأى الرجل من نفسه عجزاً عن إقامة حقها في مضجعها، أخذ من الأدوية التي تزيد في باهه وتقوي شهوته حتى يعفَّها[(٣)].

إن من الأزواج للأسف من لا يعتد بالتجمل لزوجته (وكثيراً ما تعاني الزوجات من ذلك الإهمال، فمنهن من تصرح بذلك وتبحث لها عن جواب،

---

(١) **اللبق**: اللباقة.

(٢) **الخلال**: إخراج ما بين الأسنان من فضول الطعام.

(٣) «الجامع لأحكام القرآن» (٢/ ١١٥-١١٦).

ومنهن من تكتم أمرها وتنطوي به على نفسها، ومنهن من يقودها قصور علمها إلى التشكيك في عدالة الدين، وفي موقفه من المرأة، وربما يدعم هذا الخاطر ما يبثه المغرضون من مدَّعي نصرة المرأة.

والحقيقة أن الدين براء من تبعات المنتسبين إليه، فالعيب ليس في الدين، وإنما هو فيمن يقصر في إدراك حكمته أو العمل بما جاء به.

فالنساء يسمعن كثيراً من أحاديث الطاعة للزوج، ووجوب التزين له، حتى خيل لبعضهن أن الإسلام لا يلزم الزوج نحو زوجته سوى الإنفاق عليها.

وقليل من الناس من يتطرق لواجبات الزوج المعنوية نحو زوجته، وفي مقدمتها التجمل لها، والظهور أمامها بالمظهر اللائق.

ولهذا تجد من الرجال من لا يعتني بمظهره ونظافته وتطيبه، إلا إذا أراد الخروج من المنزل، أو حضور المناسبات، فلا يكون نصيب الزوجة من ذلك إلا رؤيته وهو على هذا الحال، فهو يظن أنه غير ملزم لزوجته بشيء من هذا، فإذا ما قصرت هي في التجمل له حاسبها حسابًا عسيراً.

ولهذا لا يبالى بأن يكون في المنزل على هيئة رثة،أو أن يكون بثياب العمل، أو أن يأتي ورائحته تفوح بالعرق والدخان.

ولاريب أن هذا تقصير في حق الزوجة، ذلك أن من حقوقها على زوجها أن يتزين لها كما تتزين له[1].

---

(١) «من أخطاء الأزواج» ص (٥٣-٥٤).

وقد كان ﷺ قدوة في الاهتمام بنظافته ورائحته الطيبة، فقد كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك محافظة منه ﷺ على نظافة أسنانه ورائحتها، حتى لا تتأذى إحدى زوجاته إذا قرب منها أو قبَّلها مثلاً.

وقال ابن القاسم التجاني: (قال عياض ـ رحمه الله ـ في الإكمال: التطيب مندوب إليه في الشرع لمن قصد به مقاصد الشرع من تعظيم أيام الجمع والأعياد مثلاً، وأن يدفع عن نفسه من الروائح الكريهة، وأن يدخل على المسلمين بشم ذلك رائحة طيبة، وأن يستعمل ما يوافق الملائكة، فقد ورد أنهم يتأذون بالرائحة الكريهة، وأن يظهر نظافته ومروءته بين إخوانه وأهله، وأن يقوي دماغه وقلبه لتأثير الطيب في تقوية هذه الأعضاء، وأن يستعين بذلك على ما يحتاج إليه من أمور النساء، فله في ذلك من التأثير ما لا ينكر.

▪ وقال ابن الجوزي في كتاب (الأذكياء): دخل عمر بن قحطان على امرأته «حمدة» وقد تزينت وكانت امرأة جميلة، وكان عمر قصيراً قبيحًا، فلما نظر إليها ازدادت في عينه حسنًا فلم يستطع أن يصرف بصره عنها فقالت: ما لك؟ قال: والله أصبحت جميلة، فقالت له: أبشر فإني وإياك في الجنة، قال: من أين علمت هذا؟ قالت: أُعطيت مثلي فشكرت، وأعطيتُ مثلك فصبرت، والشاكر والصابر في الجنة، فخجل ونهاها أن تعود لمثل ذلك)[١].

---

(١) «تحفة العروس ونزهة النفوس» ص (٥١-٥٥).

الصفة الثانية عشرة

لا ينسى أن يشكر زوجته دائمًا على ما تقوم به من الخدمة في البيت وتربية الأولاد، فيعطيها ذلك نشاطًا متجددًا لا تكسل معه ولا تمل.

إن مراعاة شعور الناس ونفسياتهم، والثناء عليهم إن هم أحسنوا، وشكرهم إن هم قاموا بما عليهم من واجبات تجاه الآخرين، من أهم عوامل ترابط الناس وسعادتهم فيما بينهم، فماذا يكون الحال إذن لو كان ذلك مع الزوجة؟

إن المرأة لا شك تتعب داخل البيت في الخدمة وتربية الأولاد وأعمال البيت، وهي تنتظر من زوجها دائمًا أن يثني عليها، وأن تسمع منه ما يثلج صدرها وينسيها متاعبها.

(الكلمة الطيبة غذاء للروح، وشفاء لأمراض النفس، والكلمة الحلوة لها فعل السحر، ولها تأثير قد يغير حياة إنسان أو أمة!!.

من أجل ذلك كان قرن القول الحسن مع هذه الأمور الأساسية في العقيدة والعبادة والسلوك، فتوحيد الله وإقامة الصلاة وبر الوالدين من أهم ما دعت الشريعة إلى تحقيقه وإقامته، وها نحن أولاء نجد في الآية قرنًا للقول الحسن بهذه الأمور، ونود أن نعيش لحظات في ظلال قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ نطل من خلالها على حياتنا الاجتماعية الأسرية والعائلية.

كم تضيع علينا في حياتنا العائلية والاجتماعية فرص سعادة وغنى وأنس، كنا على مقربة منها لو قلنا كلمة حلوة، ولكنا أضعناها عندما لم نلق بالكلمة الطيبة.

إن كلمة واحدة تستطيع أن تفعل شيئًا كثيراً، فبسبب كلمة قامت حروب، وبسبب كلمة تألفت قلوب.

إن الكلمة الطيبة أساس متين تبنى عليه علاقات الحب والمودة والرحمة والانتاج والتربية.

إن الكلمة الطيبة تهيئ المناخ المناسب لنمو هذه العلاقات، ولتثمر الثمرة المرجوة سعادة وفرحًا وابتهاجًا وانطلاقًا وتحقيقًا لكثير من معاني الخير.

إننا نستطيع بالكلمة الطيبة أن نأسوا جراح المصابين، وأن نخفف كثيراً من آلام البائسين، فإن كانوا أقارب كان عملنا عائداً علينا بالنفع القريب في الدنيا، إذ يُحوِّل جو البيت إلى جو تعشش في أركانه وزواياه أسباب السعادة والهناء، ولثواب الآخرة أعظم؛ إننا لا نستطيع أن نحقق آمال الناس وأمنياتهم، ولا أن نستجيب إلى كل مطالبهم ورغباتهم، ولكننا قادرون على أن نوجه إليهم الكلمة الحلوة التي ترضيهم وتملأ نفوسهم بالأمل والرضى.

وإن الكلمة الطيبة أغلى عند الزوجة في كثير من الأحيان من الحلي الثمين والثوب الفاخر الجديد، ذلك لأن العاطفة المحبة التي تبثها الكلمة الطيبة غذاء للروح، فكما أنه لا حياة للبدن بلا طعام، فكذلك لا حياة للروح بلا كلام حلو لطيف.

إن تجاهل حاجة الزوجة إلى العاطفة العذبة التي تفيض بها الكلمة الطيبة، يجعلها تحمل بين جوانبها حجراً مكان القلب، مما يعكر على الزوج حياته، لأننا نعيش بالمعاني لا بالأجساد فقط، وليس في الحجارة من المعاني شيء)[1].

---

(١) «نظرات في الأسرة المسلمة» ص(١١٦-١١٨) باختصار.

إن الزوج الذي يتجاهل مشاعر زوجته عندما تتعب وتكد داخل البيت، فلا يشكرها ولا يثني عليها ولا يدعو لها، قد أخطأ الطريق إلى السعادة الزوجية.

إن الزوج الذي لا ترى زوجته الفرحة في عينيه عندما تحسن طهي الطعام، أو ارتداء أجمل ما عندها من الملابس، أو وضع أفضل العطور عندها، يخسر كثيراً في علاقته الزوجية. إن الزوجة بشر ككل البشر، تحب أن تسمع كلام الثناء والشكر من أغلى مخلوق عندها وهو زوجها، وعندما لا تسمع تصاب بالهم والنكد والغم.

شكت لي إحدى الأخوات زوجها الذى يأتي إلى المنزل، فيجدها في أبهى زينة، وأطيب ريح، وقد تجاهل كل ذلك تمامًا لغير سبب حتى أصيبت بالإحباط والهم.

(فكما أن من الأزواج من يكثر انتقاد الزوجة ولومها إذا هي أخطأت أي خطأ، فكذلك تجد من هؤلاء من لا يشكر زوجته إذا هي أحسنت، لا يشجعها إذا قامت بالعمل كما ينبغي، فقد تقوم الزوجة بإعداد الطعام الذي يلذ للزوج، وقد ترفع رأسه إذا قدم عليه ضيوف، وقد تقوم على رعاية الأولاد خير قيام، وقد تظهر أمامه بأبهى حُلة وأجمل منظر، وقد . . وقد. . وقد. . ، ومع ذلك لا تكاد تظفر منه بكلمة شكر، أو ابتسامة رضا، أو نظرة عطف وحنان، فضلاً عن الهدية والإكرام، ولاريب أن ذلك ضرب من ضروب الفزازة والغلظة، ونوع من أنواع اللؤم والبخل، وقد يلتمس الزوج لنفسه العذر بأنه يخشى من تعالي الزوجة وغرورها إذا هو شكرها أو أثنى عليها.

وهذا الكلام ليس صحيحًا على إطلاقه، فيا أيها الزوج المفضال، لا تبخل بما فيه سعادتك وسعادة زوجتك، ولا تهمل اللفتات اليسيرة من هذا القبيل، فإن لها شأنًا جللاً وتأثيراً بالغًا)[1] .

---

(١) «من أخطاء الأزواج» ص(٤٠).

الصفة الثالثة عشر

يصل رحمه ويكرم أهل زوجته، فيدخل السرور عليها، ويتقرب بذلك إلى الله تعالى، ويعينها على صلة رحمها.

ينبغي لكل مسلم أن يعلم يقينًا عظم صلة الأرحام عند الله تعالى، وأن من وصلها وصله الله، وأن من قطعها قطعه الله.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: **«إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ من خلقه، قالت الرحم: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم، اما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى يا رب، قال: فهو ذلك»**

قال رسول الله ﷺ: **«فاقرءوا إن شئتم» ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾** (محمد: ٢٢)».

وروى البخاري عن عائشة ﷺ قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الرحم شجنة[١] من الرحمن، من وصلها وصلته ومن قطعها قطعته»**.

وروى أيضًا عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«من أحب أن يُبْسط له في رزقه وأن يُنسأ له في أثَره فليصل رحمه»**.

---

(١) أي أن الرحم اشتق اسمها من اسم الرحمن فلها به علقة.

من هذه المكانة العظيمة فإن الزوج المسلم الذي يرجو الله والدار الآخرة يصل رحمه ابتغاء مرضاة الله تعالى:

- فهو يبر والديه بالقول والعمل.
- ويبر أخته ولا ينساها، ويصل أخاه ولا يغفل عنه.
- ويصل خالته، فإن الخالة بمنزلة الأم، وكذا يصل خاله.
- ولا ينسى بناته وأولاد أخته، فكل هؤلاء من الرحم.

(والرحم: هم قرابة الرجل من طرفي أبيه وأمه فتجب لهم الحقوق الخاصة من المحبة والنصرة وعدم القطيعة، والقيام بحقوقهم كتمريض المرضى، وحقوق الموتى من غسلهم والصلاة عليهم وغير ذلك من حقوق المسلمين، وزيادة على ذلك، النفقة على المحتاج منهم، وتفقد أحوالهم، وترك التغافل عن تعاهدهم في أوقات ضروراتهم، حتى إذا تزاحمت الحقوق، بدأ بالأقرب فالأقرب؛ والمعنى الجامع لصلة الرحم:

إيصال ما أمكن من الخير، ودفع ما أمكن من الشر بحسب الطاقة.

وهذا إنما يستمر إذا كان أهل الرحم أهل استقامة، فإن كانوا كفاراً أو فجاراً فمقاطعتهم في الله هي صلتهم بشرط بذل الجهد في وعظهم، ثم إعلامهم إذا أصروا أن ذلك بسبب تخلفهم عن الحق، ولا يسقط مع ذلك صلتهم بالدعاء لهم بظهر الغيب أن يعودوا إلى الطريق المثلى.

وقد أخبر النبي ﷺ أن الواصل ليس هو من يقابل الإحسان من الأقارب بالإحسان، ولكنه من يقابل الإساءة بالإحسان، لما رواه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: **«ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها»**[(١)].

(١) انظر «تحفة الواعظ في الخطب والمواعظ» للشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ.

ومما ينبغي الالتفات إليه مع أرحامنا:

١ ـ أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر، وذلك برفق وحكمة.

٢ ـ إعطاؤهم الكتاب الإسلامي البسيط، وكذلك الشريط الإسلامي كنوع من وسائل الدعوة لهم.

٣ ـ الظهور أمامهم بصفة خاصة في صورة القدوة الحسنة.

٤ ـ الوقوف معهم في الشدائد بصفة خاصة.

٥ ـ مشاركتهم أفراحهم وأتراحهم، والسؤال عنهم إذا غابوا.

ومن الصور الرائعة التي تجلي حرص الإسلام على إعانة المرأة على صلة الأرحام، ما رواه البخاري ومسلم عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: قدمت عليَّ أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «**نعم، صلي أمك**».

أما إكرام أهل الزوجة بما يرضيها فهو من باب المعاشرة بالمعروف، لذا فإنه ينبغي للزوج أن يدخل على زوجته السرور من هذا الجانب بالثناء عليهم بحق أمامها، فيهتم بزيارتهم والسؤال عنهم، وتهنئتهم في المناسبات السارة، ومواساتهم في الكرب والمصائب، والوقوف معهم في الشدائد، وبذل الإحسان لهم ما أمكن ذلك قولاً وعملاً.

الصفة الرابعة عشرة

عاقل حكيم، هادئ متزن غير متهور ولا مندفع ولا منفعل .. قادر على حل مشاكل بيته بنفسه، فإن صعب عليه لجأ لأهل الإصلاح والصلاح والتقوى.

العقل والحكمة والهدوء والاتزان وعدم التهور أو الاندفاع والانفعال من أسمى صفات الرجال، وما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

وحسن الخلق يمثل الطريقة المثلى في السلوك والمعاملة الكريمة التي بها يحيا أهل البيت سعداء طيبين، وإذا كان الزوج كريم الخلق لين العريكة حسن الطباع أتى ذلك بثمار طيبة على الزوجين والأولاد.

لذا فإن الزوج الصالح العاقل هو الذي يأخذ دائمًا بأسباب المودة والرحمة للوصول إلى إقامة أسرة متراحمة متوادة، وكل ذلك من حسن معاشرة الزوجة.

إن رجاحة عقل الرجل وحكمته تتمثل في أكثر من مظهر، لعل أهمها:

١ ـ عدم نقل هموم العمل إلى داخل البيت ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

٢ ـ عدم مقابلة الإساءة بمثلها، بل ينبغي أن تكون الكلمة الطيبة دائمًا على لسان الزوج، والابتسامة الجميلة على ثغره.

٣ ـ الصبر على شريكة العمر، فإن كرهت منها خلقًا، رضيت منها آخر، ومن منا ليس فيه عيوب؟!

٤ ـ التأني والتروي في معالجة ما يظهر من مشاكل داخل البيت.

٥ ـ عدم التهور أو الانفعال عند رؤية أو سماع ما يكره الرجل، حتى يعلم السبب، حتى لا يصيب أحدًا بجهالة فيندم على ذلك.

إن المشاكل التي تحدث داخل البيت، يجب ألا تخرج خارج نطاق البيت إلا إذا صعب على الزوجين حلها وتجاوز خلافاتهما.

عن سهل بن سعد الساعدي قال: جاء النبي ﷺ إلى بيت فاطمة فلم يجد عليًا، فقال: **«أين ابن عمك؟»** فقالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج، فقال النبي ﷺ لرجل: **«انظر أين هو؟»**، فقال: هو في المسجد راقد، فجاءه وهو مضطجع، وقد سقط رداؤه عن شقه فأصابه تراب، فجعل النبي ﷺ يقول: **«قم أبا تراب، قم أبا تراب»**، قال سهل: وما كان له اسم أحب إليه منه[1].

ففي هذا الحديث فوائد مهمة، لعل أهمها:

١ ـ أن فاطمة لم تنتهز فرصة دخول والدها عليها ﷺ لتقول: لقد حصل كذا وكذا، وتحاول أن تستثير والدها ضد زوجها، وإنما اكتفت بقولها: «كان بيني وبينه شيء فغاضبني»، وهذا من عقلها ورجاحة فكرها رضي الله عنها.

٢ ـ لم يسأل الرسول ﷺ ابنته عن سبب الخلاف، بل ذهب إلى زوج ابنته يداعبه، ليستل من نفسه كل دواعي الغضب والحزن.

٣ ـ من حكمة علي رضي الله عنه ورجاحة عقله، أنه خرج بعيدًا عن البيت، موطن المشكلة حتى تنطفئ نيرانها، وذهب إلى المسجد، أبعد الأماكن من نفثات

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

الشيـاطين، ولعله ينشغل هناك بالصلاة أو الذكـر أو قراءة القرآن، فـتطمئن نفسه ويعود إلى بيته هادئا مطمئنًا.

فإن بقي في نفس الرجل من زوجته ما يكرهه، فإنه يسلك بعد ذلك الطريق الشرعي الصحيح لحل الخلافات الزوجية.

قال تعالى: ﴿ **وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا** ﴾ (النساء: ٣٤).

فالمرحلة الأولى التي يلجأ إليها الزوج هي: مرحلة الوعظ:

وذلك بتبصيرها بعاقبة مـا تفعله بمنطق الشرع والعقل، وبذكر أمثلة من واقع الحيـاة وتجارب الناس التي تلمسهـا هي وتعرفهـا ولكن ربما نسيتهـا، يذكرها بما أوجب الله عليها من حسن الصحبة وجميل العشرة، وبعظم قدر الزوج ووجوب طاعتـه في المعروف، ويذكرها بالموت والقـبر والحسـاب، وأنهما عـما قليل عن الدنيا راحلون، والمرأة لا تؤدي حق ربها حتى تؤدي حق زوجها.

فإذا لم يثمر الوعظ انتقل إلى المرحلة الثانية وهي: الهجر في المضاجع.

بمعنى أن يدير الرجل ظهـره لزوجته في الفـراش إشعاراً لهـا بأنه غاضب، وبأن سلاح الإغراء الذي تملكه الأنثى هو أعلى منه بكثير، فلا يستعبده، وعليها أن تراجع نفسها في الاعتماد على هذا السلاح الذي تعول عليه.

وينبغي أن يقصد الزوج من الهجر التـأديب والإصلاح، لا التشفي والانتقام والمضارة لذاتها، ولا يهجرها في الكلام أكثر من ثلاثة أيام.

فإذا لم يثـمر الهجـر فقد شـرع للزوج أن ينتقل إلى المرحلة الثـالثة وهي: الضرب غير المبـرح، وهذا الضرب معناه: تعبير شـديد اللهجة، وليس المراد منه الانتقام وإرواء الغليل.

قال ابن عباس ﷺ: اهجرها في المضجع، فإن أقبلت، وإلا فقد أذن الله لك أن تضربها ضربًا غير مبرح.

ولأن الضرب ليس بالأمر الهين فقد قيد بشروط:

منها: إصرار المرأة على النشوز والعصيان رغم تدرج الزوج معها في التأديب كما ذكرنا.

ومنها: أن يزن الأمور بميزان العدل، فلا يبادر مثلاً إلى الهجر في المضجع في أمر لا يستحق إلا الوعظ والإرشاد، لأن العقاب بأكثر من حجم النشوز ظلم.

ومنها: أن يعي جيدًا أن الغرض من الضرب العلاج والإصلاح والتأديب والزجر لا غير، فلا يكسر عظمًا أو يضرب وجهًا أو يقبحه، وهو الضرب غير المبرح.

(كلمة في أذن الرجال):

إذا كان الإسلام قد أباح ضرب الرجل لزوجته بالشروط التى سبق ذكرها، فإن عدم ضرب النساء ألبتة هو الأفضل.

فعن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت: «**ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط، ولا ضرب شيئًا قط إلا أن يجاهد في سبيل الله**»[1].

(وقد قال بعض الفقهاء: إن على الزوج أن يُقدِّر أن ينفع الضرب في الإصلاح، وأنه لا يترتب عليه مفسدة أعظم، وفتنته أشد، وإن عليه أن يراعي أن يكون التأديب فيما بينه وبينها فقط)[2].

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «آداب الخطبة والزفاف» للدكتور عبد الله ناصح علوان ـ رحمه الله ـ ص(١٤٤).

وقال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «وليعلم الإنسان أن من لا ينفع فيه الوعيد والتهديد لا يردعه السوط، وربما كان اللطف أنجح من الضرب، فإن الضرب يزيد قلب المعرض إعراضًا، وفي الحديث **«ألا يستحي أحدكم أن يجلد امرأته جلد العبد ثم يضاجعها»** فاللطف أولى إذا نفع[1].

«ومما يجدر التنبيه إليه ما شاع من تعسف لبعض أهل الجفاء ممن قسا قلبه وغلظ طبعه، وساء فهمه من ظلم النساء، وضربهن ضرب غرائب الإبل، وذلك لأتفه الأسباب، وربما تستروا وراء هذا الإذن القرآني بالضرب، ويظن بعضهم أن الرجولة هي الظلم والقهر والاستعلاء، وأن القوامة طوق في عنق المرأة لإذلالها وتسخيرها. إن الزوجة ليست كالبقرة ولا السلعة، متى اشتراها ربها صنع بها ما يشاء كما يتوهم أولئك الظالمون البغاة، إن للمرأة في هذا الحال الحق الكامل في أن تشكوه إلى أوليائه، أو ترفع أمرها إلى الحاكم، لأنها إنسان مكرم داخل في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾** (الإسراء: ٧٠).

وليس حسن معاشرة المرأة أمرًا اختياريًا متروكًا للزوج يفعله أو لا يفعله، بل هو تكليف وواجب.

وليس الرفق بها من باب الرفق بالحيوان الأعجم، ولكنه حق لها وواجب على الرجل لأنها مكرمة مثله بالخلق السوي، والصورة الحسنة، والعقل والنطق والتفكير، وحمل الأمانة، فهذه المزايا كلها مشاعة بين الرجل والمرأة، فمن أراد أن يعامل الزوجة معاملة الدابة والسلعة، فقد كفر نعمة الله، واستحق أن يسلط الله عليه من المستعمرين وغيرهم من يعامله بمثل ذلك «كما تدينون تدانون».

---

(١) «أحكام النساء» ص(٨٢).

إنها جديرة بالحياة الطيبة التي وعد الله في قوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ أي: في الدنيا، ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)، أي: في الآخرة.

فإذا أساء الرجل عشرتها وقهرها وهي مقيمة على طاعته مؤدية لحقوقه، فأي حياة طيبة تكون لها؟ وهذا رسول الله ﷺ المثل الأعلى في كمال الرجولة، وصلابة العزيمة، وقوة الشكيمة، وقد أخذت نفسه من الحزم أوفر نصيب يؤتاه بشر، ومع ذلك كان لا يترفع على أهله، ولا يرهبهم من شخصه، شأنه مع أصحابه في خفض الجناح، ولين الجانب، وإكرام الصحبة.

وقد تقدم أنه ﷺ ما ضرب بيده امرأة، ولا خادمًا قط، وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف: ١٥٨)، وهو القائل ﷺ: «**خير الهدى هدى محمد ﷺ**».

فأين أولئك القساة الغلاظ من قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ (الفجر: ١٤)، وقوله ﷺ: «**إني أُحَرِّج عليكم حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**»، وقوله ﷺ: «**النساء شقائق الرجال**»[(١)].

(عود على بدء):

فإذا اشتد الخلاف بعد مرحلة «الإصلاح داخل الأسرة» فليلجأ بعد ذلك إلى التحكيم كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٥).

---

(١) «عودة الحجاب» للشيخ محمد إسماعيل ص(٢/ ٤٦٥-٤٦٧).

ويكون هذا الإصلاح قاصراً على ثقة أو ثقات صالحين من أهل الزوجة وأهل الزوج، وأن تكون مهمتهم جميعًا الإصلاح وجمع الشمل، وليس العمل الموكل عنه فقط، بل يتقي كل حكَم ربه ـ عزَّ وجلَّ ـ في الحكم ولو جاء على حساب موكله.

والآية الكريمة تبين الصفات التي يجب أن تتوافر في الحكَم كي يكون أهلاً للقيام بهذه المسئولية الدقيقة والتي هي:

١ ـ العدل:

هذه الصفة لازمة لكل حكَم، يُطلب منه إعطاء رأي في خلاف أو قضية هي موضوع خصام بين أكثر من طرف.

وصفة العدل تعني البعد عن الهوى، لأن الهوى أعمى، أي: لا يكون عنده ميل إلى أحد المتخاصمين، وأن يكون له منفعة شخصية في هذا الخلاف، ونختصر هذه العبارة بالقول: أن يكون موضوعيًا في حكمه بما يرضي الله ويرضي الطرفين المتخاصمين.

٢ ـ العلم:

ليس القصد بالعلم أن يكون الحكَم على درجة عالية بالفقه والشرع، إذ ليست القضية معقدة إلى درجة تستحق هذا المستوى العلمي الرفيع.

إنما القصد أن يكون على درجة من المعرفة بالشرع وبأحكام الدين بما يؤهله للحكم في هذا الخلاف.

كل هذه المميزات تجعل منه حكمًا مسموع الكلمة، مهيب الجانب، وصاحب الرأي المقبول عند الزوجين المتخاصمين.

٣ ـ القـــرابـة:

تقول الآية: ﴿ ... فَابْعَثُوا حَكَماً مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَماً مِّنْ أَهْلِهَا .... ﴾.

إن كلمة (الأهل) واسعة المعنى، فهي تعني العائلة في أضيق حدود العائلة، ثم العشيـرة فالقبيلة، وقـد يتسع معناها فيشـمل ـ من باب المجاز ـ سكان البلد الواحد أو الطائفة الواحدة.

أما مـعناها حسب مـا جاءت في الآية الكريمة فإنهـا تعني ـ والله أعلم ـ أن يكون الحكم من أدنى درجة في القرابة إذا كان ذلك ممكنًا.

والحكمـة من وجـود القرابة بالـغة ولهـا أكـثر من فـائدة في هذا المجـال، فالقريب يحافظ على كرامة قريـبه، ولا يعمل على فضح أسراره، كما أنه أدرى الناس بوضع الزوجين وأحوالهما وطباعهما وبالجو العائلي السائد بينهما.

ثم هو يجيـد الأسلوب الذي يفهمـه الزوجان أي أنه يملك إمكانية التـفاهم معهما بحيث يعرف من أين يبدأ وكيف يتصرف.

ولا ننسى أخيراً أن القرابة تشجع الزوجين على كـشف أسرارهما أمامه وكل ما يحيط بخلافهما من خفايا لايجرؤان على البوح بها أمام الحَكَم الغريب.

بعد كل هذا تبقى الإجابة على هذا السؤال:

ما هو عمل الحكمين المصلحين؟

إن الآية واضحة جـدًا حيث تقول: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ (النساء: ٣٥).

إن الذي يتبادر إلى الذهن في تدبر هذه الآية، وهو ما عكف عليه المفسرون والفقهاء على مناقشته والأخذ به استنادًا إلى أقوال السلف هو: هل مهمة الحكمين مقصورة على إصلاح فقط أم الإصلاح والتفريق طلاقًا أو خلعًا إذا اقتضى الأمر..؟ وهل يبقيان بحدود الوكالة على الزوجين للإصلاح فلا يملكان تفريقًا إلاَّ بإذنهما، أم يحق لهما التصرف بصفتهما حكمين مطلقي الصلاحية؟

اختلف المفسرون والفقهاء في ذلك وكانت لهم آراء متشابهة، ويمكن تلخيص آرائهم بما يلي وفق المذاهب الأربعة[1]:

- ينفذ عند المالكية تصرف الحكمين في أمر الزوجين بما رأياه من تطليق أو خلع من غير إذن الزوج ولا موافقة الحاكم بعد أن يعجزا عن الإصلاح بينهما، وإذا حكما بالفراق فهي بائنة.

- وقال الشافعية والحنابلة: الحكمان وكيلان عن الزوجين للإصلاح، فلا يملكان تفريقًا إلاَّ بإذن الزوجين، فيأذن الرجل لوكيله فيما يراه من طلاق أو صلاح، وتأذن لوكيلها في الخلع والصلح على ما يراه.

- وقال الحنفية: يرفع الحكمان ما يريدانه إلى القاضي، والقاضي هو يوقع الطلاق إذا رأى ذلك، وهو طلاق بائن، بناءً على تقريرهما، فليس للحكمين التفريق إلاَّ أن يفوضا فيه. اهـ.

وأيا كان الاختلاف في أمر كهذا، فإن ذلك يدل على حرص أئمة المسلمين على مصالح الأسرة أخذًا من كتاب الله العظيم وتوجيهات نبيه الكريم، وعلى الزوجين قبول حكم الحكمين في صلحهما، وهو لصالحهما وصالح أولادهما.

---

(١) د. وهبة الزحيلي: «الفقه الإسلامي وأدلته» جـ٧، في طلب إرسال الحكمين.

ولكن على الحكمين قبل طرح فكرة الصلح، أن يستعرضا كل أسباب الخلافات القائمة بين الزوجين، والإطلاع على أدق الأمور، ليتسنى لهما دراستها دراسة صحيحة.

وهكذا، وبعد الإلمام بكل التفاصيل، يطرحان فكرة الصلح بين الزوجين بكل إخلاص وصدق لا يتنابهما اليأس من الإصلاح والصلاح، آخذين بنظر الاعتبار أن تفارط الزمن على خلافهما سيزيده تعقيداً.

وأن يُذكرا الزوجين بما بينهما من وثيق الصلات التي لا تحتمل العناد المتبادل والكرامة المدعاة، والفكرة المستبدة، والرأي السقيم.

ويبقى الصلح في الإسلام صلحًا من أي نوع كان، وتبقى له الكلمة الأولى والمركز المرموق، إذ به تحفظ كرامة البيت وتستمر الحياة الزوجية هانئة سعيدة[1].

(فصل: وسائل معالجة الخلاف بعد وقوعه):

(يستحسن في محاولة حل المشكلات قبل استفحالها واللجوء إلى التحكيم، واتباع بعض الوسائل التي من الممكن أن تفضي إلى نتائج إيجابية وتساهم في إطفاء الفتنة في مهدها وعودة المياه إلى مجاريها في الحياة الزوجية، وهي ما يأتي:

أولاً ـ اللجوء إلى الأساليب السلبية في مواجهة رياح المشكلة، كالتزام الصمت، أو إظهار المودة، أو نظرة عتاب . . أو دمعة حرة من قبل الزوجة، وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إن الرجل إذا نظر إلى امرأته ونظرت إليه نظر الله إليهما نظر الرحمة، فإذا أخذ بكفها تساقطت ذنوبهما من خلال أصابعهما»**.

---

(١) «الخلافات الزوجية في ضوء الكتاب والسنة» رعد كامل الحيالي ص(٩٠-٩٦).

وقال الشاعر:

غلطة ثم لفظة فجواب ... فشجار ففرقة فطلاق
أو تغاض فرقَّة فدموع ... فاعتذار فلمسة فعناق

ومن الأساليب السلبية أيضًا الخروج من الغرفة التي فيها الزوج الآخر والابتعاد عن مسرح المشكلة، ولابد من التأكيد هاهنا من عدم خروج الزوجة من البيت، فلا تخرج مهما اشتد الأمر، لأن خروجها هذا يفتح باب الشقاق والخلاف الذي يصعب إغلاقه وقد يصل إلى الطلاق، فضلاً عن أنه يساعد على انتشار أسرار الخلاف خارج بيت الزوجية.

ثانيًا - محاولة تحجيم المشكلة بين الزوجين فقط وعدم إخراجها إلى الآخرين مهما كانت درجة قرابتهم .. لا سيما الأولاد، لأن التكتم في مواضيع كهذه على الأولاد أمر حيوي يحول دون وقوعهم في القلق والعقد النفسية لما يرونه من قدوة سيئة داخل أسرة مضطربة ممزقة، وكذلك كتمان الأمر على الأهل لتبقى المشكلة بسيطة مما يسهل حلها.

ثالثًا - ضرورة عدم ترك الخلاف يبيت في بيت الزوجية حتى ولو ليلة واحدة لكي لا يعشعش ويفرخ، وحتى لا تقسوا القلوب وتتنافر بدل أن تتآلف..

ويجمل بالمرأة هنا أن تأخذ بزمام المبادرة لمصالحة الزوج بعد أن تُهدأ نفسها وتستغفر ربها وتطلب منه العون. وللزوجة أن تختار أي طريقة مناسبة لإصلاح ذات البين، كأن تحاول مناقشة الزوج بعد هدوء العاصفة أو أن تستميحه عذرًا إن كانت مخطئة، وتتغاضى عن أخطائه، وتحتسبها عند الله، وتسعه بحسن خلقها وسعة صدرها، متأسية بتوجيهات الرسول الكريم - عليه أفضل الصلاة والتسليم - في مثل هذه المواقف.

روى النسائي بسنده عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة؟، الودود الولود، العؤود على زوجها، التي إذا آذت أو أوذيت، جاءت حتى تأخذ بيد زوجها ثم تقول: والله لا أذوق غُمْضًا (نومًا) حتى ترضى».

كما يجمل بالزوج أن يكبر بزوجته هذا العمل ويقابلها سماحًا بسماح وعطفًا بعطف، فيرأب الصدع ويتلاشى الخلاف.

ومن الوسائل التي يستخدمها أحد الزوجين لهذا الغرض، كتابة رسالة اعتذار أو فتح هاتف للزوج في عمله، أو للزوجة في بيتها، وكذلك من الوسائل أن تتزين الزوجة وتتجمل وتهيئ لزوجها الطعام والمفاجآت بما يحب، أو يقوم الزوج بإحضار هدية لزوجته خلال عودته إلى البيت. وفي هذه الحالة يجب على كلا الطرفين عدم معاودة الخوض في موضوع الخلاف السابق وكأن شيئًا لم يكن .. وإلا باءت كل الجهود بالفشل.

والمهم في كل هذه الحالات ندم كلا الطرفين على ما بدر منه، ومحاسبة نفسه بهدوء على انفراد، وعقد العزم على رأب الصدع قبل فوات الأوان، ومباشرة ذلك دون تردد، فالنفس الأمارة بالسوء قد تحول دون ذلك .. مع دراسة المشكلة من كافة الوجوه، وتصور ماذا يحدث لو استمر كلٌّ على موقفه .. وما يترتب على ذلك من نتائج سيئة قد تصل إلى الطلاق وهدم الأسرة وتشتيت الأولاد[١].

---

(١) «عائدة الجراح» مجلة التضامن الإسلامي، السنة الرابعة والأربعون، الجزء التاسع، ربيع الأول ١٤١٠هـ، و«مع الأسرة المسلمة» (ص٨٦، ٨٧) بتصرف، و«الخلافات الزوجية» (ص٨٣-٨٧).

(فصل) بعض القواعد والإرشادات لتجنب الخلافات ما امكن:

وهذه مجموعة من القواعد والإرشادات والنصائح أرجو إن اتَّبعها الزوجان أن يسعدا ويقضيا على كل خلاف ينشأ بينهما:

١ ـ محاولة كل من الزوجين تحاشي إثارة مواضيع مثيرة للحساسيات عند الطرف الآخر، أو المعارضة بشدة لكل اقتراح أو رأي يصدر عن زوجه الآخر، أو القيام بعمل شيء يعرف سلفًا أنه لا يرضى عنه أو يثير غضبه، أو طلب ما يريده بصيغة الأمر أو النهي مع التعالي، وهذا الأمر بالذات مطلوب من الزوجة أكثر من الرجل باعتبار أن له فضل الدرجة والقوامة والقول الفصل، ويمكن لأي من الزوجين وخاصة الزوجة الوصول إلى ما تريد، إما بطريقة التفاهم والإقناع الهادئ أو بطريقة غير مباشرة توحي إلى الطرف الآخر بأنه هو صاحب الاقتراح وبيده الأمر.

وعلى النقيض من ذلك يجب عدم إظهار المعارضة الصريحة أو الكراهية الشديدة لأمور يعرف أحد الزوجين سلفًا أنها محبوبة ومرغوبة لدى الطرف الآخر، وأنه لا يتحمل معارضتها، ويكفي في هذه الحالة مجرد إبداء ملاحظة يسيرة لا تثير حنقًا ولا توغر صدراً كنوع من الاختبار، فإذا ما وجد قبولاً مبدئيًا عاد وطرحها مرة أخرى بصورة أوضح، وإلا تناساها واستبعد مناقشتها.

٢ ـ يستحسن في حالة انفعال أحد الطرفين أو كليهما اجتناب طرح أي مناقشة . . فما يمكن حله في ساعة الرضا بإشارة يسيرة يستعصي حله في حالة الغضب ولو بكافة أنواع الإقناع والمطالبة، فضلاً عما تجره حالة الغضب والانفعال من أمور لا تحمد عقباها، وأحب هنا أن أُذكِّر الرجال بحقيقة هامة، أن في المرأة وجنس المرأة عوجًا بوجه من الوجوه، وهذا ليس فيه تعصب، وإنما هو طبيعة الخلق والفطرة التي فطر الله المرأة عليها.

ولا يمكن أن تكمل المرأة من كل وجه خلقًا وطباعًا، وهذا معنى حديث النبي ﷺ : **«إن المرأة خلقت من ضلع أعوج، وإن أعوج الشيء في الضلع أعلاه، وإن جئت تقيمه كسرته، وإن استمتعتم بهن؛ استمتعتم بهن وفيهن عوج»**(١).

وأخذ هذا الأمر على علته يفيد الرجال كثيرًا، فافتراض الكمال في المرأة ومحاسبتها على هذا النحو يعني التغاضي عن كثير من النقص، ضار بالمرأة والرجل كذلك، وهذا الذي لابد وأن يعتري الحياة الزوجية، ومطالبة المرأة بإكمال هذا النقص مطالبتها بالمستحيل.

٣ـ كم من الرجال من يرزقون زوجات هن أرجح منهم عقولاً وأكثر منهم صبرًا وحكمة، وأكثر منهم سداد رأي، ولا يخرق هذا القاعدة العامة في الرجال والنساء، ولا يعني هذا أيضًا أن تأخذ المرأة صلاحيات الرجل، وأن يقف الرجل من عقد الزواج مكان المرأة لأن هذا يعني إفسادًا للفطرة، وهدمًا للسعادة الزوجية. وأسلوب إصلاح المرأة لزوجها عند نشوزه وإعراضه هو النصح والاستعانة عليه بالأقربين، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (النساء: ١٢٨).

وأما أن تقوم المرأة بتقويم عوج زوجها ونشوزه وإعراضه بتعاليها عليه، وهجرها لفراشه أو بضربه وتأديبه، فذلك هو غاية الفساد والإفساد.

٤ـ الرجل الذي أعطي حق القوامة عليه الواجب الأول في أن يكون راعيًا وقوامًا، ولا يكون راعيًا وقوامًا إلا بأن يكون قدوة في نفسه، قادرًا على تقويم غيره.

---

(١) سبق تخريجه.

والقوامة لا تعني البطش والتعالي، وإنما تعني الرعاية والحفظ والرأفة والرحمة ووضع كل أمر في موضعه شدة ولينًا. ولا شك أن سوء استخدام الرجل لصلاحياته المعطاة له يؤدي إلى النقيض.

٥ـ الوسائل التي أعطاها الله وأرشد إليها الرجال لتقويم نشوز زوجاتهم هي خطوات لابد منها في طريق حل المشكلات الزوجية.

(١) المصدر السابق (ص٥٢-٥٦).

الصفة الخامسة عشرة

عابد لله، كثير الذكر، صوَّام، قوَّام، عليه لباس الوقار والسكينة، يطمع دائمًا في المزيد من طاعة الله، يضرب بأسهم كثيرة في كل أنواع العبادات ما استطاع لذلك سبيلاً.

كان من دعاء النبي ﷺ : **«رب اجعلني لك ذكَّارًا، لك شكَّارًا، لك رهَّابًا، لك مطواعًا، لك مخبتًا[1]، إليك أوَّاهًا منيبًا»**[2].

من هذا المنطلق فإن الزوج المسلم المستقيم حقًا على دين الله ـ عزَّ وجلَّ ـ مشغول دائمًا بتحقيق العبودية لله ـ عزَّ وجلَّ ـ، والتي من مظاهرها التقرب إلى الله تعالى بالعبادات التي تلبس صاحبها لباس الوقار والسكينة.

ولقد امتدح الله أقوامًا لأنهم كانوا عابدين لله ـ سبحانه وتعالى ـ فقال ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ (الأنبياء: ٧٣)، فأثنى عليهم ـ سبحانه وتعالى ـ لاجتهادهم في العبادة.

وجعل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ للعابدين أجرًا كاملاً موفورًا بما صبروا على عبادة ربهم، وضرب الله تعالى الأمثلة في القرآن من العابدين والعابدات فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

---

(١) «مخبتًا»: خاشعًا متواضعًا.

(٢) «الأواه»: كثير الدعاء والتضرع والبكاء، و«المنيب»: الراجع.

لذا فإن المسلم لابد أن يحرص على تربية نفسه على العبادة[١] وذلك بسلوك كل سبيل شرعي يؤدي إلى ذلك، وهذه جملة من النصائح على هذا الطريق:

١ ـ لابد من العلم بالعبادة، وإلا إذا كانت من جاهل وقع في بدع كثيرة وبالتالي لا تقبل منه أي عبادة، ولذلك يخشى اللهَ من عباده العلماءُ لأنهم هم الذين عبدوا الله حق عبادته على علم صحيح.

٢ ـ ينبغي المسارعة إلى كل عبادة يعلمها العبد قدر طاقته، حتى يغتنم الأجر والثواب من هنا وهناك ابتغاء مرضاة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ طلبًا للجنة وهروبًا من النار، لذا قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ (آل عمران: ١٣٣)، وقال أيضًا: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الحديد: ٢١).

وقال ﷺ: «**التؤدة في كل شيء خير إلا في عمل الآخرة**»[٢].

٣ ـ المداومة على كل عبادة يقوم بها المسلم ولا ينقطع عنها إلا من عذر.

قال تعالى في الحديث القدسي الشريف: «**وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه**»[٣]، ولفظ «**وما يزال**» يدل على الاستمرارية.

ويقول ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة**»[٤]، والمتابعة تقتضي القيام بهما تكرارًا ومرارًا، ولعل من أهم ثمار المداومة والاستمرار على العبادة: تقوية الصلة بالله تعالى، وعدم إهمال النفس الذي يؤدي بها إلى اتباع الهوى والشهوات، لأن النفس إن لم يتعاهدها صاحبها بأسباب الإيمان، خلدت إلى الراحة والتكاسل والدعة.

---

(١) نعني بالعبادة كل النوافل ولا يدخل فيها الفريضة حيث إنها واجبة ولا يسع أي مسلم تركها.

(٢) رواه أبو داود، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٣٠٠٩).

(٣) رواه البخاري.

(٤) «صحيح الجامع» (٢٨٩٩).

ولما سئل النبي ﷺ عن أحب الأعمال؟ قال: «أدومها وإن قل»[(١)].

٤ ـ من سمات عباد الله الصالحين الاجتهاد في العبادة، فلا يدع العبد لنفسه فرصة للتهاون أو التكاسل، بل يجتهد ويجد ويتعب في القيام بالعبادة، كما قال تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (السجدة:١٦)، وقال تعالى أيضًا عن عباده الصالحين أهل الجنة: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ (الذاريات:١٧-١٩).

■ ـ الحذر من الملل والسآمة، إذ ليس المقصود إيقاع النفس فيهما، وإنما المقصود عدم الانقطاع عن العبادة. والموازنة بين الأمرين يكون بتكليف النفس من العبادة ما يطيق، والنبي ﷺ يقول: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحدٌ إلا غلبه فسددوا وقاربوا، واستعينوا بالغدوة والروحة وبشيء من الدلجة»[(٢)].

إذن لابد من مراعاة النفس وطاقتها، فإذا رأى المسلم منها إقبالاً انتهز الفرصة ونشط، وإن وجد منها إدباراً فليقم بالواجبات كحد أدنى.

٦ ـ استدراك ما فات من العبادة، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه فقراه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر كتب له كأنما قراه من الليل»[(٣)]، وقد صح أن النبي ﷺ صلى ركعتي الظهر البعدية بعد صلاة العصر لما شغله عنهما وفد عبد القيس[(٤)].

---

(١) رواه البخاري، ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري، وغيره.

(٣) حديث صحيح.

(٤) رواه البخاري.

٧ ـ أن يكون قلب العبد بين الخوف والرجاء، الخوف من عدم قبول العبادة ورجاء قبولها عنده ـ سبحانه وتعالى ـ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون: ٦٠)، هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟، قال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا يقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»[(١)].

فالمؤمن صادق الإيمان يجب أن يعيش بين الخوف والرجاء مهما كثرت عبادته، ومهما ظهر عليه من آثار الصلاح والتقوى، فضلاً أن من صفات المؤمنين احتقار النفس أمام واجبات الله.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: لأن أستيقن أن الله قد تقبل مني صلاة واحدة أحبُّ إليَّ من الدنيا وما فيها، إن الله يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٧).

٨ ـ تنويع العبادات، فمن رحمة الله تعالى بنا أن نوَّع علينا العبادات، فمنها ما يكون بالبدن كالصلاة، ومنها ما يكون بالمال كالزكاة، ومنها ما يكون بهما معًا كالحج، ومنها ما كان باللسان كالذكر والدعاء .. إلى غير ذلك من أنواع العبادات الأخرى.

٩ ـ معرفة فضل النوافل، فإن الشريعة لما حثت على العبادات، كان من وسائل الحث عليها ذكر الأجر والثواب والفضل المترتب على أداء هذه العبادات.

من ذلك قوله ﷺ: «**لأن أقعد مع قوم يذكرون الله تعالى من صلاة الغداة حتى تطلع الشمس أحب إليَّ من أن أعتق أربعة من ولد إسماعيل، ولأن أقعد مع قوم**

---

(١) رواه الترمذي، وهو حديث صحيح.

يذكرون الله تعالى من صلاة العصر إلى أن تغرب الشمس أحب إليَّ أن أعتق أربعة»[1]، إلى غير ذلك من الأحاديث الكثيرة الواردة في فضل العبادات.

١٠ ـ قراءة سير العُبَّاد والزُهَّاد، فهي وسيلة مهمة لتشجيع النفس على العبادة.

١١ ـ التعود على العبادات منذ الصغر يعطي للنفس دوام الاستمرار والسهولة في أدائها، فإن الإنسان إذا ما كبر كثرت مشاغله، فإذا ما تعودت النفس عليها منذ الصغر، فإنه يسهل عليها أداؤها وعدم الانقطاع عنها.

وهذا يحملنا على أن نعود أولادنا عليها منذ الصغر، حتى يألفوها ويستمروا عليها عند الكبر.

١٢ ـ مصاحبة أصحاب الهمم العالية في العبادة، ودع عنك المجادل والمتكاسل، وصاحب الهمة الضعيفة، فإن مصاحبة أهل الصلاح والتقوى يعين على تربية النفس على العبادة.

١٣ ـ تخصيص وقت من اليوم للعبادة والذكر، ولا تزاحم بأي صارف يصرف الإنسان عنها، ولا يصلح أن تزاحم العبادة والأذكار بأشياء أخرى من العبادات تسقطها بالكلية، فهناك ثوابت في حياتنا يجب ألا نشغل عنها، فلا نشغل مثلاً عن ورد القرآن اليومي، أو ورد أذكار الصباح والمساء . . وهكذا.

وأحيانًا يطرأ على الإنسان مشاغل تصرفه عن بعض العبادات، ولكن لا يكون ذلك دائمًا، أو يكون سببًا للانصراف عنها بعد ذلك تمامًا.

---

(١) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٠٣٦).

▪ فعن صـلاة الجماعـة يقول عـبد الله بن مسـعود رضي الله عنه: **«ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافقٌ معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به يتهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف»**.

▪ وقيل لنافع: ما كان يضع ابن عمـر في منزله؟ قال: لا تطيقونه، الوضوء لكل صلاة والمصحف فيما بينهما.

▪ ولما أسلم سُهـيل بن عمرو كـان كثير الصـلاة والصوم والصدقـة، وخرج بجماعتـه إلى الشام مجاهدًا، ويقال: إنه صام وتهجد حـتى شحب لونه وتغير، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن.

▪ وقال سعيـد بن المسيب: ما فاتتني التكبيرة الأولى منـذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة.

▪ وقال العـلاء بن زياد: لو كنت مـتمنيًا لتـمنيت فقـه الحـسن، وورع ابن سيرين، وصواب مطرِف، وصلاة مسلم بن يسار.

▪ وعن الحكم أن عبد الرحمن بن الأسود لما احتـضر بكى، فقيل له؟ فقال: أسفًا على الصلاة والصوم، ولم يزل يتلو حتى مات.

▪ وعن عاصم بن علي قال: كنت أنا ويزيد بن هارون عند قيس بن الربيع، فأما يزيد فكان إذا صلى العتمة، لا يزال قـائمًا حتى يصلي الغداة بذلك الوضوء نيفًا وأربعين سنة.

▪ وقالت معاذة المتهجدة العـابدة عن زوجها صلة بن أشْيَم العدوي: ما كان صلة يجيء من مسجد بيته إلى فراشه إلا حبوًا، يقوم حتى يفتر، فما يجيء إلى فراشه إلا حبوًا.

وكان الحسن البصري يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل ولا صيام النهار، فاعلم أنك محروم قد كبلتك الخطايا والذنوب.

▪ وقال أبو عاصم النبيل: كان ابن جريج من العُبَّاد، كان يصوم الدهر سوى ثلاثة أيام من الشهر.

▪ وعن إبراهيم قال: كان الأسود يختم القرآن في رمضان في كل ليلتين، وكان ينام بين المغرب والعشاء، وكان يختم القرآن في غير رمضان في كل ست ليال.

▪ وقال القاسم بن الحافظ بن عساكر: كان أبي مواظبًا على صلاة الجماعة وتلاوة القرآن، يختم كل جمعة، ويختم في رمضان كل يوم، وكان كثير النوافل والأذكار، ويحاسب نفسه على لحظة تذهب في غير طاعة.

▪ وقال الحسن البصري: رحم الله عبدًا جعل العيش عيشًا واحدًا، رحم الله رجلاً لبس خَلِقًا، وأكل كسرة، ولصق بالأرض، وبكى على الخطيئة، ودأب في العبادة، وهرب من العقوبة ابتغاء الرحمة، حتى يأتيه أجله وهو على ذلك.

▪ وقال يحيى بن يمان: ما رأيت مثل سفيان ـ أي الثوري ـ أقبلت الدنيا عليه، فصرف وجهه عنها.

▪ وإن كان الزهد هو قصر الأمل، فقد كان معروف رأسًا في قصر الأمل.

قال أحمد بن إبراهيم الدورقي: حضرت الصلاة فقال معروف لأبي نوبة: صلِّ بنا، فقال: إن صليت بكم هذه الصلاة، لا أصلي بكم غيرها، فقال معروف: فأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى، نعوذ بالله من طول الأمل، فإنه يمنع خير العمل.

■ قال الحسن البصري: إن المؤمنين لما جاءتهم هذه الدعوة من الله صدَّقوا بها وأفضى يقينُها إلى قلوبهم، وخشعت لله قلوبهم وأبدانهم وأبصارهم.

وكنت والله إذا رأيتُهم، رأيت قومًا كأنهم رأي عين، فوالله ما كانوا بأهل جَدل ولا باطل، ولا اطمأنوا إلا إلى كتاب الله، ولا أظهروا ما ليس في قلوبهم، ولكن جاءهم من الله أمر فصدقوا به، فنعتهم الله في القرآن أحسن النعت فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ (الفرقان: ٦٣).

■ وعن الجنة فسلوا عنها «سعد بن خيثمة بن الحارث ﷺ»، استهم يوم بدر خيثمة بن الحارث وابنه سعد، فخرج سهم سعد، فقال له أبوه: يا بُنيَّ آثرني اليوم، فقال له سعد: يا أبت، لو كان غير الجنة فعلت. فخرج سعد إلى بدر فقتل بها، ومازال أبوه يتطلع إلى الجنة حتى كان يوم أحد، فقتل يوم أحد[1].

(١) للاستزادة راجع «سير أعلام النبلاء» للذهبي، و«صفة الصفوة» لابن الجوزي، و«حلية الأولياء» لأبي نعيم الأصفهاني.

الصفة السادسة عشرة

مؤمن مجاهد صابر، راضٍ بقضاء الله وقدره، غير ساخط.

قانع برزق الله تعالى، لا يطمع إلا فيما عند الله من النعيم الدائم في الجنة

المجاهد الذي ارتضى لنفسه طريق التضحية لن يستمر في هذا الطريق ما لم يتحلَّ بالصبر، والحياة صراع بين الحق والباطل، يفوز في هذا الصراع الأطول نفسًا والأكثر احتمالاً كما قال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ**﴾ (الفرقان: ٢٠).

ولو جاهد كل واحد منا نفسه وتغلب على طبائعه الشاردة، لكظم غيظه، وعف عن الحرام، ووسَّع صدره، وقنع بما آتاه الله إياه، وتجلَّد على ما ابتلاه الله به، حتى يكتسب هذا الخُلق، فقد قال ﷺ: «**ومن يستعفف يعفّه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبِّره الله**»(١).

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: يصبِّره الله: «أي فإنه يقومه ويمكِّنه من نفسه حتى تنقاد له، ويذعن لتحمل الشدة، فعند ذلك يكون الله معه فيظفره بمطلوبه»(٢).

---

(١) رواه البخاري (١٦٤٩).

(٢) «فتح الباري» (١١/ ٣٠٤).

والزوج المسلم المستقيم على دين الله تعالى مؤمنٌ مجاهدٌ صابرٌ، راضٍ بقضاء الله وقدره، فيكون صبره صبراً محموداً يثاب عليه، ومن أهم علامات هذا الصبر المحمود:

١ - عدم التسخط أو الجزع أو اليأس أو الشكوى:

وفي هذا المعنى يقول ﷺ: **«ليس من أحد يقع الطاعون، فيمكث في بلده صابراً محتسباً، يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كتب الله له، إلا كان له مثل أجر الشهيد»**[(١)].

قال ابن حجر - رحمه الله -: «صابراً: أي غير منزعج ولا قلق، بل مسلمًا لأمر الله راضيًا بقضائه»[(٢)]. فالمسلم إذا ما أصيب بأي مصيبة فإنه يعلم أنها من عند الله فيمضي ويسلم بها، ولا يشكو خالقه لأحد من خلقه لأن ذلك قدح في التوحيد.

٢ - حسن التوكل على الله تعالى، وكمال اليقين به:

فحسن التوكل على الله تعالى يحمل المسلم على طرح نفسه بالكلية لله تعالى، لأنه لا حول ولا قوة له، وكل الحول والقوة بيد الله تعالى، وذلك مع كمال يقينه بثواب الله تعالى له.

ففي الحديث القدسي: **«ابن آدم إن صبرت واحتسبت عند الصدمة الأولى لم أرض لك ثواباً دون الجنة»**[(٣)].

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٤).

(٢) «فتح الباري» (١٠/ ١٩٣).

(٣) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني «صحيح سنن ابن ماجه» (١٥٩٧).

وقد تعجب رسول الله ﷺ من الخيرية التي تعم حياة الصابرين فقال: «عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[(١)].

٣ - استحضار ما أعد الله للصابرين من تكفير السيئات، ورفع الدرجات، وتكثير الحسنات:

فالمرأة التي كانت تصرع فتتكشف، خيَّرها الرسول ﷺ بين أمرين فقال لها: «إن شئت صبرت ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أن يعافيك»، فقالت: أصبر[(٢)]. فالذي حملها على الصبر إنما هو جعلها الجنة في مقابل الصبر، فغلبت كفة الجنة على ما سواها.

٤ - تذكر سير الصالحين والتأسي بهم:

فحين ذُكر لرسول الله ﷺ أن رجلاً قدح في قسمة رسول الله ﷺ، قال: «يرحم الله موسى قد أوذي بأكثر من هذا فصبر»[(٣)]، وقد وجه القرآن إلى هذا المعنى: ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ﴾ (الأحقاف: ٣٥).

٥ - تذكر أن البلاء على قدر صلابة الدين:

فلما سُئل رسول الله ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟، قال: «الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى العبد على حسب دينه، فإن كان في دينه صلبًا اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتُلي على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه من خطيئة»[(٤)].

---

(١) رواه مسلم.

(٢)، (٣) رواهما البخاري.

(٤) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٤٩)

٦ ـ استحضار ما يمحوه الصبر من الذنوب:

فبعض الناس ليس لهم أعمال صالحة يداومون عليها ترفع درجاتهم، ولكنهم يصلون إلى المراتب العليا بالصبر، كما قال ﷺ: «**إن الرجل ليكون له المنزلة عند الله فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها**»[(١)] .

وصبر المسلم يحمله دائمًا على الرضا بقضاء الله وقدره:

كيف لا يصبر المسلم وكل شيء بقضاء الله وقدره؟

كيف لا يصبر المسلم وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن؟

كيف لا يصبر المسلم وهو عبد محض لله تعالى تجري عليه أحكام سيده كيفما شاء، ووقتما شاء؟

كيف لا يصبر المسلم وهو يعلم أن الله تعالى إذا ابتلاه، فإنما يبتليه ليمتحن عبوديته، لا ليهلكه؟

كيف لا يصبر المسلم وهو يعلم أن رحمة الله تعالى وسعت كل شيء؟

كيف لا يصبر المسلم وهو يعلم أن رحمة الله تعالى سبقت غضبه؟

كيف لا يصبر المسلم وهو لا حول له ولا قوة إلا بالله؟

كيف لا يصبر المسلم والله تعالى يقول: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (الحديد: ٢٢)؟

كيف لا يصبر المسلم وهو يعلم أنه إذا صبر واحتسب، فإن الله تعالى يعوضه عن مصابه، فإن من كل شيء عوض إلا الله تعالى فما منه عوض؟

كيف لا يصبر المسلم وهو يعلم أن حظه من المصيبة ما يحدثه له، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط؟

(١) «صحيح الجامع» (٩٩٥).

▪ وهذه بعض المواقف الإيمانية في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء.

١ . أيــــوب عليه السلام:

وهو الذي يضرب به المثل في الصبر.

▪ قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: قال علماء التفسير والتاريخ وغيرهم: كان أيوب رجلاً كثير المال من سائر صنوفه وأنواعه، من الأنعام، والعبيد، والمواشي، والأراضي المتسعة من أرض الثنية من أرض حوران. وحكى ابن عساكر أنها كانت كلها له، وكان له أولاد وأهلون كثير، فَسُلِبَ منه ذلك جميعه، وابتلي في جسده بأنواع من البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه يذكر الله ـ عزَّ وجلَّ ـ بهما، وهو في ذلك كله صابر محتسب، ذاكرٌ لله ـ عزَّ وجلَّ ـ في ليله ونهاره، وصبحه ومسائه.

وطال مرضه، حتى عافاه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وأخرج من بلده، وألقي على مزبلة خارجها، وانقطع عنه الناس، ولم يبق أحدٌ يحنو عليه سوى زوجته، كانت ترعى له حقه، وتعرف قديم إحسانه إليها، وشفقته عليها، فكانت تتردد إليه، فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بمصلحته.

وضعف حالها، وقل مالها، حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه، وتقوم بأوده ـ رضي الله عنها وأرضاها ـ، وهي صابرة معه على ما حل بهما من فراق المال والولد، وما يختص بها من المصيبة بالزوج، وضيق ذات اليد، وخدمة الناس، بعد السعادة والنعمة، والخدمة والحرمة، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: **«أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم**

الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»، وقال: «يبتلى الرجل على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه»[(١)].

ولم يزد هذا أيوب عليه السلام إلا صبرًا واحتسابًا وحمدًا وشكرًا، حتى إن المثل ليضرب بصبره عليه السلام، ويضرب أيضًا بما حصل له من أنواع البلايا[(٢)].

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٤١-٤٤).

قال السعدي ـ رحمه الله ـ: لما تطاول به المرض العظيم، ونسيه الصاحب والحكيم نادى ربَّه: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣)، فقيل له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ (ص: ٤٢)، فركض فنبعت بركضته عين ماء بارد، فقيل له: اشرب منها واغتسل، ففعل ذلك فذهب ما في ظاهره وباطنه من البلاء[(٣)].

وقال الحافظ: أصح ما ورد في قصته ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن جريج وصححه، وابن حبان، والحاكم من طريق نافع بن يزيد عن عقيل عن الزهري عن أنس: «أن أيوب ابتلي، فلبث في بلائه ثلاث عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه، فكانا يغدوان إليه ويروحان. فقال أحدهما

---

(١) رواه الترمذي (٩/ ١٤٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وقال الألباني: حسن صحيح.

(٢) «قصص الأنبياء» (٢٦٨، ٢٦٩)

(٣) «خلاصة تيسير اللطيف المنان» (١٤٥).

للآخر: لقد أذنب أيوب ذنبًا عظيمًا، وإلا لكُشِفَ عنه هذا البلاء، فذكره الآخر لأيوب، يعني فحزن، ودعا الله حينئذ، فخرج لحاجته، وأمسكت امرأته بيده، فلما فرغ أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن اركض برجلك، وضرب برجله الأرض فنبعت عين فاغتسل منها، فرجع صحيحًا، فجاءت امرأته فلم تعرفه، فسألته عن أيوب فقال: إني أنا هو.

وكان له أَنْدَرَان: أحدهما للقمح والآخر للشعير، فبعث الله سحابة فأفرغت في أندر القمح الذهب حتى فاض، وفي أندر الشعير الفضة حتى فاض[(١)].

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«بينما أيوب يغتسل عريانًا، خَرَّ عليه رجل جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه فناداه ربه: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى؟، قال: بلى يا رب، ولكن لا غنى لي عن بركتك»**[(٢)].

وفي قصة أيوب عليه السلام عبرة للمعتبرين، كيف صبر هذا الصبر الجميل على ذهاب ماله وأقاربه، وصحته، وثبت على حبه لله ـ عزَّ وجلَّ ـ وصبره على قضائه وقدره، واقتصاره على الشكوى إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، وهي لا تنافي الصبر، فأحسن الله عاقبته في الدنيا والآخرة، وأعاد عليه ماله وأهله وصحته، وزاده ـ عزَّ وجلَّ ـ من فضله، وهذه عاقبة المواقف الإيمانية دائمًا رفعة في الدنيا والآخرة، فكما كان يوسف عليه السلام مثالاً للعفة والاستعفاف، وكان إبرهيم عليه السلام إمام الحنفاء يعظم أمر الله، ويصبر على دين الله، فهذا أيوب مثالٌ للصبر الجميل، فصلى الله وسلم وبارك على جميع الأنبياء والمرسلين، والحمد لله رب العالمين[(٢)].

---

(١) «فتح الباري» (٦/ ٤٢١).

(٢) «مواقف إيمانية» للشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ (ص١٠٣-٣٠٦).

٢ ـ عروة بن الزبير ـ رحمه الله ـ:

عن هشام بن عروة عن أبيه: وقعت الأكلة في رجله فقيل له: ألا ندعو لك طبيبًا؟ قال: إن شئتم، فجاء الطبيب فقال: أسقيك شرابًا يزول فيه عقلك، فقال: امضِ لشأنك ما ظننت أن خلقًا يشرب شرابًا يزول فيه عقله، حتى لا يعرف ربه. قال: فوضع المنشار على ركبته اليسرى ونحن حوله، فما سمعنا له حسًا، فلما قطعها جعل يقول: لئن أخذتَ لقد أبقيت، ولئن ابتليت لقد عافيت، وما ترك حزبه من القراءة تلك الليلة[1].

وقال عامر بن صالح عن هشام بن عروة: إن أباه خرج إلى الوليد بن عبد الملك حتى إذا كان بوادي وجد في رجله شيئًا فظهرت به قرحة، ثم ترقى به الوجع، فلما قدم على الوليد قال: يا أبا عبد الله اقطعها، قال: فدعا له الطبيب وقال له: اشرب المُرَقِّد فلم يفعل، فقطعها من نصف الساق، فما زاد على قوله: حسٍّ حسٍّ، فقال الوليد: ما رأيت شيخًا أصبر من هذا.

وأصيب عروة في هذا السفر بابنه محمد، ركضته بغلة في إسطبل، فلم نسمع منه كلمة في ذلك، فلما كان بوادي القرى قال: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ (الكهف:٦٢)، اللهم كان لي بنون سبعة فأخذت منهم واحدًا وأبقيت لي ستة، وكان لي أطراف أربعة فأخذت طرفًا وأبقيت ثلاثة، فإن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت[1].

فهذا موقف إيماني في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء، فكم من إنسان يدَّعي الإيمان، فإذا نزل به بلاء أو مصيبة تزلزل إيمانه، وأساء الظن بربه ـ عزَّ وجلَّ ـ.

---

(١) «تهذيب الكمال» ص(٢٠/ ٢٠-٢١).

(٢) «تاريخ الإسلام» ص(٦/ ٢٤٧).

والمواقف الإيمانية كما ذكرنا غير مرة ثمرة من ثمرات الإيمان، فالدافع إليها قوة الإيمان، ومحبة الرحمن، ولا يصبر عبد هذا الصبر الجميل إلا إذا اكتمل إيمانه، وعلا يقينه. والأئمة أئمة في العلم، والعمل، والعبادة، والجهاد، فقد كان عروة يسرد الصيام، ويقوم بربع القرآن كل ليلة، ويحكم ما عند خالته عائشة ﵂ من مرويات قبل وفاتها بثلاث سنوات.

وقد ورد أنه نظر إلى ساقه التي قطعت فقال: الله يعلم ما مشيت بها إلى معصية قط، وأنا أعلم.

فرحم الله أئمتنا، وجزاهم الله عنا خير الجزاء، فقد أسندوا لنا الأحاديث النبوية، وضربوا لنا أروع الأمثلة في العبادة، والصبر، والجهاد، ولا شك في أن هذه النماذج، وهذه القمم في العلم والعمل، كلها تدل على بركة رسالة نبينا محمد ﷺ، ويمن سفارته، فلا يمكن أن توجد في أمة من الأمم مثل هذه الثمرات الطيبة، فجزاه الله عنا خير ما جزى به نبيًا عن أمته، ورحم الله علماء المسلمين وأعظم مثوبتهم(١).

قانع برزق الله لا يطمع إلا فيما عند الله من النعيم الدائم في الجنة»:

صورة اللاهث على الدنيا، المتهافت على الاستكثار منها بجشع وطمع، الذي يرضى بالدنية، ويعتاد الشكوى، ويُلحف في السؤال، هذه الصورة لا تنسجم مع عزة المجاهد، وقناعته، وتعففه، ورضاه بما قسم الله له.

---

(١) مستفاد من «هذه أخلاقنا حين نكون مؤمنين حقًا» لمحمود محمد الخزندار ص (٣٥٩-٣٦٦).

إن الاستسلام لدواعي الطمع ليس له نهاية، إذا أرخى المرء عنان شهواته، لذلك جاء في الحديث: «.. إن هذا المال خَضِرةٌ حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع..»(١).

ويغلب الطمع على المتنافسين في الدنيا وزينتها، والمتطلعين دومًا إلى من هو فوقهم، يعلل الإمام النووي ذلك بقوله: «لأن الإنسان إذا رأى من فُضِّل عليه في الدنيا، طلبت نفسه مثل ذلك، واستصغر ما عنده من نعمة الله تعالى، وحرص على الاديان، ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس..»(٢).

وهذا الحرص الزائد في نفس المرء، يفسد عليه دينه، كما جاء في الحديث: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(٣).

والتعلق القلبي الزائد بزينة الحياة، وبالاستكثار من المال، يستعبد المرء، وقد دَعَا رسول الله ﷺ على أولئك بالتعاسة: «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة: إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس..»(٤).

ولا تنال القناعة إلا بمجاهدة النفس وبتوفيق من الله «.. من يستعفف يُعفَّه الله، ومن يستغن يغنه الله»(٥) وقد كان الصحابي الكريم حكيم بن حزام يمتنع من أن

---

(١) صحيح البخاري «كتاب الزكاة» باب (٥٠) حديث (١٤٧٢).
(٢) شرح مسلم للنووي «كتاب الزهد والرقائق» من شرح الحديث (١٠٣٥).
(٣) صحيح سنن الترمذي «كتاب الزهد» باب (٣٠) الحديث (١٩٣٥-٢٤٩٥).
(٤) صحيح البخاري «كتاب الجهاد» باب (٥٠) حديث (٢٨٨٧).
(٥) صحيح البخاري «كتاب الزكاة» باب (٥٠) حديث (١٤٦٩).

يأخذ حقه في الفيء رغم إلحاح سيدنا عمر عليه، ويفسر ابن حجر ذلك بقوله: «إنما امتنع حكيم من أخذ العطاء مع أنه حقه، لأنه خشي أن يقبل من أحد شيئًا فيعتاد الأخذ، فتتجاوز به نفسه إلى ما لا يريده، ففطمها عن ذلك، وترك ما يريبه إلى ما لا يريبه..»[(١)].

وقد عدَّ رسول الله ﷺ من أهل الجنة: **«عفيف متعفف، ذو عيال»**[(٢)] إذ أنه يجاهد نفسه مع وجود الحاجة.

ومن تمام الاستعفاف: أن بعض الصحابة كانوا يبايعون رسول الله ﷺ على ألا يسألون الناس شيئًا، ويصف الراوي حالهم بعد رسول الله، فيقول: «.. فقد كان بعض أولئك النفر يسقط سوطه، فما يسأل أحدًا أن يناوله إياه»[(٣)]، مبالغة منهم في الالتزام بما بايعوا عليه. وفي حوار مع أبي ذر، قال رسول الله ﷺ: **«كيف أنت وجوعًا يصيب الناس، حتى تأتي مسجدك فلا تستطيع أن ترجع إلى فراشك، ولا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك؟»**، قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: **«عليك بالعفة...»**[(٤)].

ومن المجاهدة ألا تكون الشكوى إلا إلى الله، وألا ينتظر الفرج إلا منه سبحانه، ففي الحديث: **«من أصابته فاقة فأنزلها بالناس لم تُسدَّ فاقته، ومن أنزلها بالله، أوشك الله له بالغنى: إما بموت آجل، أو غنى عاجل»**[(٥)].

---

(١) فتح الباري «كتاب الزكاة» باب (٥٠) من شرح حديث (١٤٧٢).

(٢) صحيح مسلم «كتاب الجنة» باب (١٦) الحديث (٦٣).

(٣) رواه مسلم أيضًا «كتاب الزكاة» باب (٣٥) الحديث (١٠٤٣) ورواه أبو داود أيضًا.

(٤) صحيح سنن ابن ماجة «كتاب الفتن» باب (١٠) الحديث (١٣٩٧-٣٩٥٨) صحيح.

(٥) صحيح سنن أبي داود «كتاب الزكاة» باب (٢٤) الحديث (١٤٤٨-١٦٤٥) صحيح.

وفي حالات الضرورة الشديدة التي تدفع المرء إلى أن يمد يده بالسؤال، شرط السؤال عدم وجدان الغنى لوصف الله الفقراء بقوله: يقول ابن حجر: ﴿..لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ..﴾ (البقرة:٢٧٣)، إذ من استطاع ضربًا بها فهو واجد لنوع من الغنى، والمراد بالذين أحصروا: (الذين حصرهم الجهاد، أي منعهم الاشتغال به من الضرب في الأرض أي التجارة لاشتغالهم به عن التكسب)[١] الصور التى أذن فيها رسول الله بالسؤال، قيدها بحد معين «..حتى **يصيب قوامًا من عيش، أو سداداً من عيش... فما سواهن من المسألة يا قبيصة سحتًا يأكلها صاحبها سحتًا»**[٢]، وقد ذكر الإمام النووي اتفاق العلماء على النهي عن السؤال لغير ضرورة، واشترط في سؤال القادر على الكسب ثلاثة شروط: (أن لا يذل نفسه، ولا يلح في السؤال، ولا يؤذي المسؤول، فإن فقد أحد هذه الشروط، فهي حرام بالاتفاق، والله أعلم)[٣].

والمال الذي يأتي بغير تطلع النفس إليه، قال فيه رسول الله ﷺ: **«إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا، فلا تتبعه نفسك»**[٤]، وفضَّل ابن بطال الأخذ على الترك، بشرط عدم استشراف النفس، وعلل الأفضلية بما يدل على مزيد فقه بطبائع البشر، فقال: (والوجه في تعليل الأفضلية: أن الأخذ أعون في العمل، وألزم للنصيحة من الترك، لأنه لم يأخذ، ركونًا إلى أنه غير ملتزم، بخلاف الذي يأخذ فإنه يكون مستشعراً بأن العمل واجب عليه، فيجدُّ جدَّه فيه)[٥].

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٢٤٠) «كتاب الزكاة» باب (٥٣).

(٢) صحيح مسلم «كتاب الزكاة» باب (٣٥) الحديث (١٠٤٣).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي «كتاب الزكاة» باب (٣٣).

(٤) صحيح البخاري «كتاب الزكاة» باب (٥) الحديث (١٤٧٣).

(٥) نقلاً عن فتح الباري (١٣/ ١٥٤) من شرح الباب (١٧) من «كتاب الأحكام».

ولكي تتوفر في المسلم دواعي الكفاية والقناعة ، بشرف وعزة، دعاه الإسلام إلى العمل، فقال رسول الله ﷺ : «**والذي نفسي بيده، لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحطب على ظهره، خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه**»[1]، وذكر ابن حجر من فوائد الحديث: (الحض على التعفف عن المسألة، والتنزه عنها، ولو امتهن المرء نفسه في طلب الرزق، وارتكب المشقة في ذلك، ولولا قبح المسألة في نظر الشرع، لم يفضل ذلك عنها، وذلك لما يُدْخل على السائل من ذل السؤال، ومن ذل الردّ إذا لم يُعط)[2].

يقول أحمد في الدعوة إلى التوكل والتكسب: (أجرة التعليم والعلم، أحب إلي من الجلوس لانتظار ما في أيدى الناس، وقال أيضاً: من جلس ولم يحترف، دعته نفسه إلى ما في أيدى الناس)[3].

والزهد بما في أيدي الناس، يحبب المرء إليهم، وفي وصية موجزة قال رسول الله ﷺ : «**... وأجمع اليأس عما في أيدي الناس**»[4]، كما في وصية جبريل لرسول الله ﷺ : «**... واعلم أن شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناؤه عن الناس**»[5].

وإذا علمنا ما كان عليه حال رسول الله ﷺ ، هان علينا أن نقنع بما نحن فيه، فقد وصف حاله النعمان بن بشير بقوله: «لقد رأيت نبيكم، وما يجد من الدَّقل ما يملأ به بطنه»[6]، وكان ﷺ يدعو: «**اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً**»[7].

---

(١) صحيح البخاري «كتاب الزكاة» باب (٥٠) الحديث (١٤٧٠).
(٢) «فتح الباري» (٣/ ٣٣٦) «كتاب الزكاة» باب (٥٠) من شرح الحديث (١٤٧٠).
(٣) نقلاً عن فتح الباري «كتاب الرقاق» باب (١٦).
(٤) صحيح سنن ابن ماجه «كتاب الزهد» باب (١) الحديث (٣٣٦٣-٤١٧١) حسن.
(٥) «صحيح الجامع» الحديث (٧٣) حسن.
(٦) صحيح سنن الترمذي «كتاب الزهد» باب (٢٦) الحديث (١٩٣٢-٢٤٩١) صحيح.
(٧) صحيح سنن الترمذي «كتاب الزهد» باب (٢٥) الحديث (١٩٢٤-٢٤٨٠) صحيح.

ومن أسباب القناعة: أن ينظر المرء إلى حال من كان دونه، ليعرف نعمة الله عليه، كما جاء في الحديث: «**انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم**»[(١)].

وصاحب النفس العفيفة لا يرضى أن تكون يده السفلى، ورسول الله ﷺ يقول: «**اليد العليا خير من اليد السفلى، واليد العليا المنفقة، والسفلى السائلة**»[(٢)] وسيكون أكثر تعففًا، حين يتخيل هذا التصوير لمال الصدقة، يذكر عبد الله بن الأرقم أنه طلب بعيراً من بيت المال، فعُرض عليه جمل من الصدقة، فأبى واستنكر أن يعرض عليه ذلك، وقال لصاحبه: «أتحب أن رجلاً بادنًا في يوم حار، غسل لك ما تحت إزاره ورُفغيه، ثم أعطاكه، فشربته؟ فغضب الرجل وقال: يغفر الله لك، أتقول لي مثل هذا؟! فقال عبد الله بن الأرقم: إنما الصدقة أوساخ الناس، يغسلونها عنهم»[(٣)].

ومما يقوي القناعة: علم المرء بأن السؤال ذل في الدنيا، وعذاب وفضيحة في الآخرة، وفي ذلك يقول رسول الله ﷺ: «**من سأل الناس أموالهم تكثراً، فإنما يسأل جمراً، فليستقل أو ليستكثر**»[(٤)].

وكذلك «**من سأل وعنده ما يغنيه، فإنما يستكثر من النار**»[(٥)]، ولماذا يستكثر من حيزت له الدنيا بأمنها وعافيتها وقوت يومها؟: «**من أصبح آمنا في سربه، معافى في بدنه، عنده قوت يومه. فكأنما حيزت له الدنيا**»[(٦)]، ولماذا يحزن المرء على شيء فاته من الدنيا، إذا اطمأن أنه من المفلحين؟: «**قد أفلح من أسلم ورزق كفافًا، وقنعه الله**

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق، الحديث (٢٩٦٣).
(٢) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب (٣٢)، حديث (٣٣).
(٣) الموطأ (٢/١٠٠١)، كتاب الصدقة، باب (٣)، الحديث (١٥)، قال الأرناؤوط في «حاشية جامع الأصول» (١٠-١٥٠): إسناده صحيح، والرفغ: أصول الفخذين من الباطن.
(٤) صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب (٣٥٥)، الحديث (١٠٤١).
(٥) صحيح سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب (٢٤)، الحديث (١٤٣٥-١٦٢٩).
(٦) صحيح سنن الترمذي، كتاب الزهد، باب (٢١)، الحديث (١٩١٣-٢٤٦٣) حسن.

بما آتاه»[١]؟ وكيف يلهث طامعًا إذا علم بخطر ذلك على عاقبته إن لم يؤد حقه؟: «الأكثرون هم الأسفلون، إلا من قال هكذا، وهكذا، وهكذا»[٢].

وما فائدة الاستكثار والكنز إذا كانت احتياجات المرء محدودة بضرورات معينة؟ «هل لك من مالك إلا ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت؟!.»[٣].

والخلل في قناعة المسلم قد ينشأ عن اهتزاز بعض مفاهيمه الإيمانية، من الرضى بالقدر، في العسر واليسر، لذلك كان من دعائه ﷺ: «.. وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرة عين لا تنقطع، وأسألك الرضاء بالقضاء»[٤]، وفي دعاء الاستخارة «واقدر لي الخير حيث كان ثم رَضِّني به»[٥]. ومن دواعي الرضا التفكير بالأجر، كما في الحديث: «لو تعلمون ما لكم عند الله، لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة»[٦]، وكذلك قوله ﷺ: «لو تعلمون ما ادُّخر لكم، ما حزنتم على ما زُوِي عنكم»[٧].

قد يكون الفقير قانعًا مستعففًا، كما قد يكون الغني طماعًا جشعًا، ذلك لأن الغنى غنى النفس، قال ﷺ: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس»[٨]، وقد وصف رسول الله ﷺ حال الناس في القرون المتأخرة، فعد من أشراط الساعة «وأن يعطى الرجل ألف دينار، فيتسخَّطها»[٩]، وهذا من أشد صور الحرص والطمع، كما أن القناعة أعلى صور الشكر والرضى: («كن قنعًا تكن أغنى الناس»[١٠])[١١].

---

(١) صحيح مسلم «كتاب الزكاة» باب (٤٣) الحديث (٥٤).
(٢) صحيح سنن ابن ماجة «كتاب الزهد» باب (٨) الحديث (٣٣٣٣-٤١٣١) حسن صحيح.
(٣) صحيح سنن الترمذي «كتاب الزهد» باب(٢١) الحديث (١٩٠٤-٢٤٥٩) صحيح.
(٤) صحيح سنن النسائي «كتاب السهو» باب (٢١) الحديث (١٩٠٩-٢٥٤٩) صحيح.
(٥) صحيح البخاري «كتاب التوحيد» باب (١٠) الحديث ٤ (٧٣٤).
(٦) «صحيح الجامع» الحديث (٥٦٢٦٥) صحيح.
(٧) «صحيح الجامع» الحديث (٥٢٦١) صحيح.
(٨) «صحيح البخاري» «كتاب الرقاق» باب: ١٥، الحديث (٦٤٤٦).
(٩) «صحيح الجامع» الحديث (٣٦٠٧)، صحيح.
(١٠) «صحيح الجامع» الحديث (٤٥٨٠)، صحيح.
(١١) «هذه أخلاقنا» ص (٣٥٩-٣٦٦).

الصفة السابعة عشرة

رجل الدعوة المتزن، الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر بلا إفراط أو تفريط، خروج روحه من جسده أهون عليه من التخلي عن طريق الأنبياء والمرسلين، يقوم بالدعوة عقيدةً ومنهجًا صحيحًا وسلوكًا يتسم بالحكمة والموعظة الحسنة، دعوته قائمة على الكتاب والسنة لا على الأهواء أو الحزبية أو التعصب.

الدعوة إلى الله تعالى :

- رسالة إنارة وهداية لكل الحائرين. . .
- رسالة إيقاظ للضمائر وإشعال للعزائم. .
- رسالة صحوة للقلوب والمشاعر. .
- رسالة حياة ما أسمى معانيها، وأرق مناهجها وبرامجها ومراميها. .

قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (فصلت: ٣٣).

لماذا يلتزم المسلم بالدعوة إلى الله تعالى؟

لا يقتصر المسلم على حب الإسلام بالقول فحسب، وإنما يجاوزه إلى الالتزام به، والدعوة إليه. لذا فإن للمسلم منطلقات شرعية تحمله على الالتزام بطريقة الدعوة إلى الله تعالى ولعل أهمها:

١ ـ الدعوة الإسلامية جزء لا يتجزأ من حقيقة الإسلام نفسه، فلا مناص ولا مفر لكل مسلم من القيام بعبئها مهما كان شأنه أو عمله أو اختصاصه.

٢ ـ الدعوة إلى الله برهان على صدق الإيمان بالله تعالى، كما قال ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»

٣ ـ هداية الحائرين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا﴾ (الأنعام: ٧١)، فليكن الداعية هو ذلك الصاحب الذي يدعو ذلك الحائر إلى طريق الله تعالى.

٤ ـ النجاة من الهلاك يوم يحل الدمار على المفسدين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ (الأعراف: ١٦٤-١٦٥).

٥ ـ لأن المستقبل لهذا الدين. قال ﷺ: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله لها أن تكون، ثم يرفعها الله إن شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة ما شاء الله لها أن تكون، ثم يرفعها الله ما شاء أن يرفعها، ثم يكون حكماً جبرياً ما شاء. ثم يكون ملكاً عضوضاً ما شاء الله أن يكون، ثم يرفعه الله إذا شاء أن يرفعه، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»

فكل داعيــة يلتزم بالدعوة إلى الله يـساهم في وضع لبنة في صرح الخـلافة المنتظرة التي وعد بها الرسول ﷺ.

٦ ـ حيازة الخيرية المطلقة المشروطة بشرطين هما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

٧ ـ قوله ﷺ: «لأن يهـدي الله بك رجـلاً واحـداً خـيـر لك من حـمـر النعم»، فكل حركة وسكنة يتحركها المهتدي، وكل تسبيحة أو تكبيرة ينطقها، وكل ركعة وسجدة يفعلها، وكل إحسان يجـريه الله على يديه، فإنما كان الداعية سبب كل ذلك وطريقه الدال عليه.

٨ ـ طلب الفلاح، والفلاح جـماع الخير، كمـا قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران: ١٠٤).

٩ ـ لأن الله تعالى أمر بالدعوة إليـه، فقال تعالى: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (الشورى: ١٥)، وقال تعـالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥).

فأصبح أمر الدعوة إلى الله وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبًا على كل مسلم ومسلمة لأن الأمة الإسلامية تتكون منهم.

١٠ ـ كي تحوز التزكية من الله تعالى، لقوله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (فصلت: ٣٣).

فإذا كانت هذه هي أهم المنطلقـات التي يتحرك من أجلها الداعيـة، فما هي أهم مقومات نجاحه في الدعوة؟[(١)].

أولا . مقومات النجاح في تكوينه كداعية:

ونعني بها المقومات الأساسية في شخصية الداعية وذات نفسه وأهمها:

١ . تحقيق معنى العبودية لله تعالى:

وذلك حـتى يصبح الداعـية عظيم الإيمان بالله تعـالى، شديد الخـوف منه، صادق التوكل عليـه، دائم المراقبة له، كثير الإنابة إليـه، لسانه رطب بذكر الله، وعقله مفكر في ملكوت الله، وقلبه مستحـضر للقاء الله، مجتهد في الطاعات، سـابق إلى الخيـرات، صوَّام بـالنهار قـوَّام بالليل، مع تحـري الإخلاص التـام، وحسن الظن بالله، وهذا هو عنوان الفلاح وسمت الصلاح ومفتاح النجاح.

٢ . تحصيل العـلم الشرعي:

قال الإمـام ابن القيـم ـ رحمه الله ـ: «وإذا كـانت الدعوة إلـى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفـضلها، فهي لا تحصل إلا بالعلم الذي يدعو به وإليه، ولابد من كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي»[(٢)].

إن تحقيق الداعية للعلم الشرعي أساس لابد منه، حتى يجد الناس عنده إجابة للتساؤلات، وحلول للمشكلات. إضافة إلى ذلك فهو العدَّة التي بها يُعلم الداعية الناس أحكام الشرع، ويبصرهم بحقائق الواقع، وبه أيضًا يكون الداعية قادرًا على الإقناع وتفنيد الشبهات، ومتقنًا في العرض، ومبدعًا في التوعية والتوجيه.

---

(١) مستفاد بتصرف واختصار من «مقومات الداعية الناجح» للدكتور: علي بن عمر بن أحمد بادحدح.
(٢) «مفتاح دار السعادة» (١/ ١٥٤).

٣ـ رجاحة العقل وقوة الحجة:

وهي ميزتان ينبغي للداعية التحلي بهما، فلا سذاجة تضيع بها معاني الريادة، ولا طيش ولا خفة، تطمس معالم الهيبة، بل عقل فطن يرجح إذا اختلفت الآراء، ويحلل ويدلل إذا فقد الإدراك وغاب التصور، ويتقن ترتيب الأولويات، واختيار الأوقات، وانتهاز الفرص والمناسبات، ويحسن التخلص من المشكلات، ويقدر على الرد على الشبهات، والتكيف مع الأزمات.

٤ـ رحابة الصدر وسماحة النفس:

يعتبر الداعية نقطة تجمع بالنسبة للمدعوين، ولذا فإنه يحتاج إلى أن يتحلّى برحابة الصدر وسماحة النفس، ليستوعب الناس ويستميلهم للخير والحق (فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة وإلى بشاشة سمحة، وإلى ودٍّ يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء، ويحمل همومهم ولا يُعيِّيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا)[(١)].

ثانيًا ـ مقومات النجاح في ممارسة الدعوة:

١ـ المراعاة والتدرج:

إن تغير النفوس ونقلها من ميولها وما ألفته أمر ليس سهلاً، وإن الأعراف التى استقرت في العقول وتواطأ الناس عليها لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة توجَّه، والعادات في السلوكيات التي تجذَّرت وترسَّخت لا يتصور اقتلاعها في يوم وليلة، ولذا فلا بد من مراعاة التدرج في دعوة الناس.

(١) «في ظلال القرآن» ص (١/ ٥٠٠-٥٠١).

من ذلك اختلاف طبائع الناس وعوائدهم الاجتماعية واختلاف بعضهم البعض في العلم والفهم يجعل الداعي يراعي ذلك أثناء ممارسة الدعوة.

ومن ذلك أيضًا مراعاة الأولويات، فيقدم الداعية أصول الدين على فروعه، وفروض الدين على نوافله وهكذا.

ومن ذلك أيضًا، مراعاة الوقت الملائم لدعوة الناس من حيث فراغهم واستعدادهم للتلقي.

٢ ـ الجرأة والحكمة:

يستمد الداعية جرأته من الإيمان بالله الواحد القهار الذي يعتقده، ومن الحق الذي يعتنقه، ومن الخلود السرمدي الذي يوقن به، ومن القدر الذي يستسلم إليه، ومن المسئولية التي يستشعر بها، ومن التربية النفسية التي نشِّيء عليها.

ولقد كان رسول الله ﷺ أشجع الناس، ففي بدر يقول علي رضي الله عنه: «لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا».

٣ ـ الاستغناء والعطاء:

شعار عظيم رفعه على طريق الدعوة الرسل والأنبياء عندما تكرر في خطابهم لأقوامهم ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ١٠٩).

والدعاة سائرون على منهج الأنبياء فلا ينتظرون من أحد عطاء، ولا يرقبون من إنسان مكرمة، وأنَّى يكون ذلك؟

إن صورة الداعية لا تجمل ولا تكمل إلا باستغنائه عما في أيدي الناس، وما من شيء يُذهب أثر الدعوة ويمحو عزة الداعية مثل سؤال الناس أو انتظار عطائهم.

وتكتمل شخصية الداعية ويعظم تأثيره، إذا ضم إلى الاستغناء العطاء، وما الدعوة إلا عطاء دائم يبذل فيه من مشاعره ومن وقته ومن ماله ومن جاهه ومن قوته ومن حيلته، حتى يبلغ الغاية التى يريدها ألا وهي تعبيد الناس لرب العالمين.

٤ ـ الاستمرار والابتكار:

والعمل المنقطع يتبدد أثره، والعمل المتكرر يورث الملل، ويفقد الأمل، ثم إن توقف الداعية وعدم استمراريته في دعوته دليل خلل في فهمه، أو ضعف في عزمه، وفي قصة نوح ـ عليه السلام ـ مثل عظيم لذلك حيث لبث في قومه داعيًا ﴿ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ (العنكبوت:١٣)، وكانت هذه الأعوام الطويلة عملاً دائبًا، وتنويعًا متكررًا ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَارًا (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلاَّ فِرَارًا (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴾ (نوح:٥-٩).

وبالنسبة للتنويع والابتكار فإن الرسول ﷺ دعا سرًا وجهرًا، وسلمًا وحربًا، وجمعًا وفردًا، وسفرًا وحضرًا، كما أنه عليه الصلاة والسلام قصَّ القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح بالخط على الأرض وغيرها، كما رغَّب وبشَّر، ورهَّب وأنذر، ودعا في كل آن وعلى كل حال، وبكل أسلوب فعَّال مؤثر.

(فصل) نماذج لمواقف إيمانية في الدعوة إلى الله تعالى[(١)]:

١ ـ موقف مؤمن آل ياسين:

وهذا موقف من مواقف الإيمان في الدعوة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو موقف رجل أتى يسعى من أقصى المدينة يهُمه أن تنتشر دعوة الرسل، وأن يؤمن الناس بالرسل الكرام، وسواءً كانوا رسلاً من عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أو كانوا دعاة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ يدعون بدعوة الرسل، فالواجب على المؤمنين نصرتهم، وشد أزرهم، وأولياء الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم.

حكى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ قصة هذا الرجل المؤمن في سورة ياسين فقال تعالى: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ (يس: ٢٠-٢٥).

وإنما قال المؤمن هذه المقالة العظيمة بعد أن اشتد خلاف أهل القرية للرسل الكرام، وقالوا لهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (يس:١٨)، فقد تهددوا الرسل الكرام، بالرجم والعذاب الأليم، ومع ذلك وقف هذا الرجل مع الرسل وقفة مؤمنة قوية، ونصرهم بالحجة الظاهرة الدامغة، وبيَّن لهم أن الرسل لا يستفيدون من إيمانهم شيئًا دنيويًا، فهم لا يسألونهم على هدايتهم إياهم أجرًا، وإنما أجرهم على الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ومع أنهم يبذلون لهم النصيحة ويهدونهم إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ.

(١) «مواقف إيمانية» الشيخ أحمد فريد ـ حفظه الله ـ (ص١٤٠-١٤٥).

ثم بيَّن أن ذلك أعظم ما يمكن اكتسابه، وهو الهداية إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، ثم بيَّن أن ما يدعون إليه من عبادة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ إنما هو الواجب عليهم، فإن الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هو خالقهم وهو الذي إليه يرجعون، فيحاسب المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن الآلهة الباطلة التي يعبدونها من دون الله ـ عزَّ وجلَّ ـ لا تنفعهم، ولا تدفع عنهم شيئًا من عذاب الله.

ولا شك في أن المؤمن وهو يذكر قومه بذلك ويدعوهم إلى الإيمان متعرض لما هددوا به الرسل من الرجم والعذاب الأليم، ولكنه وقف هذا الموقف الإيماني بدافع الإيمان الصادق، ومحبة الهداية لقومه، فقد كان بالغ الحرص عليها. والقوم كانوا في غاية الجهل والغباوة والكفر فيبدو أنهم رجموه كما تهددوا الرسل، أو قتلوه بأي وسيلة أخرى، فانتقل من دار البلاء إلى دار الجزاء، فقال: ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ (يس:٢٦-٢٧).

والمؤمن رابح في كل حال كما قال النبي ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير...**»[1]، فلما قتله قومه عاين كرامة الله ـ عزَّ وجلَّ ـ وأدرك عين اليقين، والحرص على هداية قومه ما يزال في قلبه فقال: ﴿**يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ (يس:٢٦-٢٧)، وارتفعت بهذا الموقف الإيماني راية من رايات الإيمان، وأضاء منار من منارات العقيدة، وسجل الله ـ عزَّ وجلَّ ـ هذا الموقف في كتابه الخالد، تبصرة للمؤمنين، وعبرة للمعتبرين، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

---

(١) رواه مسلم (١٨/ ١٢٥) «الزهد»، وأحمد (٦/ ١٦)، والدارمي (٢/ ٣١٨)، «الرقائق».

٢ ـ الحسن البصري ـ رحمه الله ـ والحجاج الثقفي:

دعا الحجاج فقهاء البصرة وفقهاء الكوفة، وكان من بينهم الحسن البصري ـ رحمه الله ـ، وكان آخر من دخل، فقال الحجاج: مرحبًا بأبي سعيد، إليَّ إليَّ، ثم دعا بكرسي فوضع إلى جنب سريره فقعد عليه، فجعل الحجاج يذاكرهم ويسألهم، ثم ذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه ونالَ منه، فوافقه الجالسون مقاربة له، وفَرَقًا من شره، والحسن ساكت عاضٌّ على إبهامه، فقال الحجاج: يا أبا سعيد، ما لي أراك ساكتًا؟، قال: ما عسيت أن أقول؟ أخبرني برأيك في أبي تراب، قال: سمعت الله ـ جلَّ ذكره ـ يقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٤٣)، فعليٌّ ممن هدى الله من أهل الإيمان فأقول: ابن عم النبي ﷺ، وختنه على ابنته، وأحب الناس إليه، وصاحب سوابق مباركة، سبقت له من الله، لن تستطيع أنت ولا أحد من الناس أن يحظرها عليه، ولا يحول بينه وبينها، وأقول: إن كان لعلي هنّات فالله حسبه، والله ما أجد فيه قولاً أعدل من هذا، فبسر وجه الحجاج وتغير، وقام عن السرير مغضبًا، فدخل بيتًا خلفه، وخرج القوم.

قال عامر الشعبي ـ وكان جالسًا معهم ـ: فأخذت بيد الحسن فقلت: يا أبا سعيد أغضبت الأمير وأوغرت صدره، فقال: إليك يا عامر، يقول الناس: عامر الشعبي عالم الكوفة، أتيت شيطانًا من شياطين الإنس تكلمه بهواه وتقاربه في رأيه، ويحك يا عامر، هلا اتقيت الله إن سئلت فصدقت، أو سكتَّ فسلمت، قال عامر: يا أبا سعيد قد قلتها وأنا أعلم ما فيها. قال الحسن: فذلك أعظم في الحجة عليك، وأشد في التبعة[1].

---

(١) «منهاج العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (١٨٥، ١٨٦).

فهذا موقف إيماني من التابعي الجليل الحسن البصري. وهو هو في العلم والعبادة والخشية من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، فذبَّ عن عرض أمير المؤمنين حيدرة علي بن أبي طالب، فارس الإسلام وابن عم النبي ﷺ، وأول من أسلم من الفتيان، وكان له من العمر ثمان سنوات، وزوَّجه النبي ﷺ ابنته فاطمة سيدة نساء الأمة، وقال له: **«انت مني بمنزلة هارون من موسى، إلا انه لا نبي بعدي»**[1]. وكان بحرًا من بحور العلم، وكان عمر رضي الله عنه يتعوذ بالله من معضلةٍ ليس لها أبو حسن.

واتفق المهاجرون والأنصار على فضله على سائر الصحابة الكرام بعد أبي بكر وعمر وعثمان، وكان من عادة بني أمية سب علي رضي الله عنه في المجالس وعلى المنابر، وهذا لا ينقص من شأنه رضي الله عنه، بل يزاد في حسناته، وأبطل هذه العادة السيئة الإمام العادل عمر بن عبد العزيز، واستبدلها بقول الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ**﴾ (النحل: ٩٠)، وإنما قال الحسن البصري للحجاج الثقفي ما قال ـ وكان سفاكًا للدماء، لا يتورع عن انتهاك محارم الله ـ إحقاقًا للحق نصرة له. فلعنة الله على الظالمين، ورحم الله العلماء العاملين، وأجزل مثوبتهم يوم يقوم الناس لرب العالمين.

---

(١) رواه البخاري (٧/ ٧١)، ومسلم (١٥/ ١٧٥)، والترمذي (١٣/ ١٧٥ عارضة)، وعبد الرازق (٢٠٣٩)، والبغوي في «شرح السنة» (١٤/ ١١٤).

٣ ـ محمد بن سيرين وابن هبيرة:

عن جعفر بن مرزوق قال: بعث ابن هبيرة إلى ابن سيرين والحسن والشعبي، قال: فدخلوا عليه فقال لابن سيرين: يا أبا بكر، ماذا رأيت منذ قربت من بابنا؟، قال: رأيت ظلمًا فاشيًا، قال: فغمزه ابن أخيه بمنكبه، فالتفت إليه ابن سيرين فقال: إنك لست تُسأل، إنما أنا أسأل. فأرسل إلى الحسن بأربعة آلاف، وإلى ابن سيرين بثلاثة آلاف، وإلى الشعبي بألفين، فأما ابن سيرين فلم يأخذها.

قال هشام: ما رأيت أحدًا عند السلطان أصلب من ابن سيرين.

العلماء لا يحسنون إلا الصدق، والجهر بكلمة الحق، وإن أعقبها ما أعقبها، لا يحسنون المداهنة ولا المراوغة، وهم إنما يرتفعون في الدنيا والآخرة بصدقهم، وصدعهم بالحق، فلو داهن العلماء الأمراء الظلمة فمن أين يعرف الناس ظلم الظالمين، وبغي الباغين، وقد أخذ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ عليهم الميثاق: ﴿ **لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ** ﴾ (آل عمران: ١٨٧)، فلله درُّهم، وعليه تعالى أجرهم.

الصفة الثامنة عشرة

إذا عدَّد فلأنه يعلم أن تعدد الزوجات مشروع وله حِكم عظيمة وفوائد متنوعة، يدركها كل من له أدنى تأمل في أسرار الشريعة الإسلامية.

يعرف طريق العدل الشرعي بين زوجتين أو زوجاته، ولا يبالي بالمغرضين والحاقدين والحمقى من الناس الذين يهاجمونه لغير الله، بل يصبر ويتحمل ويستعين بالله تعالى.

هو التقي الصبور الحليم العاقل، الذي لا يظلم ولا يجور، وإن أخطأ أسرع الأوبة إلى الله - عزَّ وجلَّ -.

فضل تعدد الزوجات

إن الدين الإسلامي في كل تشريعاته دين حكيم، لأنه من لدن حكيم عليم، خلق الخلق وهو يعلم ما ينفعهم وما يضرهم، فأمرهم بما يصلحهم ويصلح مجتمعهم، ونهاهم عما يضرهم ويضر مجتمعهم.

ولقد بلغ تشريع تعدد الزوجات مبلغًا عظيمًا من الفضل والنفع ما يجهله كثير من الناس، وهذه هي أهم الحِكم منه:

١ - تكثير نسل الأمة المحمدية والتي تتربى في أحضان القرآن والسنة، حتى تكون ذخرًا للمسلمين في جميع مجالات الحياة، وعلى رأسها مجال الدعوة إلى

الله تعالى، فنحن في أمس الحاجة إلى الآلاف والآلاف من الدعاة المخلصين القادرين على تبليغ رسالة الله تعالى إلى الناس كافة، وتعريف الكفار بالإسلام، والذب عن الصورة الناصعة للإسلام التي يحاول أعداؤه أن يشوهوها، ويصدوا الناس عن اعتناقه.

٢ـ تحصين النفس، وهو مطلب شرعي مهم جدًا، وربما لا يتحقق عند بعض الرجال إلا بالزواج الثاني (فالرغبة الجنسية قد تتغلب على الإنسان فتغلبه، لأن تكوينها ليس أمرًا عاديًا فهي فوق طاقته، وإن الذي خلقها وهو أعلم بها جعل لها متنفسًا، فإذا تحكمت بالشخص ولم يجد لها متنفسًا انقلب إلى حيوان مسعور، يفتك بكل ما تصل إليه يده، وأغلب حوادث السفح والقتل يرجع سببه إلى التفكير الجنسي الذي يسيطر على الشخص ولم يجد له متنفسًا، فإذا ما تخلص من شهوته العارمة فسوف يعود إلى إنسانيته.

ولا ينبغي أن نقلل من الناحية الجنسية، ونحاول ألا نعطي أهمية للعلاقة بين الرجل والمرأة، بل في الحقيقة والواقع أن حياتنا منصرفة إلى المرأة وفي سبيلها يضحي الرجل بكل ما يملك، ولعل من الذين عبروا عن هذه الحقيقة ورغبة الإنسان وواقعية أمره، إمام اللغة والبيان المفكر الجاحظ ـ رحمه الله ـ فقال: «وعامة اكتساب الرجال وإنفاقهم وهمهم وتصنعهم وتحسينهم لما يملكون، إنما هو مصروف إلى النساء والأسباب المتعلقة بالنساء».

وهذا كله مرده إلى الرغبة التي طبع عليها الخلق، ولذلك حرص الإسلام على تهذيب هذه الرغبة حتى يكون المجتمع نظيفًا متعاونًا ومنصرفًا إلى عمله بجد واجتهاد، فلا يظل الواحد طول يومه يفكر في الرغبة الجنسية التي لم تحدها الواحدة وتكسر حدتها لعلة من العلل، ولسبب من الأسباب سواء منها ما ظهر

وما بطن، فلو تخلص حمـاية بزوجة ثانية أو ثالثة مراعيًـا الشروط التي شرطها رب العباد وهو أعلم بهم لكان أنفع وأجدى لنفسه ولأمته)[١].

٣ـ حل مشكلـة كثرة النسـاء، وذلك بسـبب موت الرجـال في الحروب أو الحوادث وغير ذلك[٢].

ولقد قامت مظاهرات ضخمة من النسـاء الألمانيات في أعقاب الحرب العالميـة الثانيـة يطـالـبن بالأخذ بنظـام تعـدد الزوجـات، بعـد أن مـات كثيـر من الرجال في الحرب، فلو اقتصـر كل واحد على الزواج بواحدة مثلاً، فإن العاقبـة معروفة كباقي النساء، والنهايـة المحتومـة هي انقلاب المجتمع إلى فوضى أخلاقية مدمرة.

ولقد كان المسلمون الأوائل يكرمون إخـوانهم الذين استشهدوا في الحروب، فيتـزوجون نساءهم ويكرمون أولادهم، وينفـقون عليهم، فيبـعدونهم بذلك عن طريق الغواية، ويحلون مشكلة كـبيرة تطرأ على المجتمع المسلم، إن لم تتـضافر كل القوى في حلها لفسد المجتمع ولخارت قواه، ولقد ضرب لنا الرسول ﷺ المثل الأعلى بزواجه من أم سلمة رضي الله عنها، حين مات زوجـها في إحدى الغزوات، فكفلها ﷺ وكفل أولادها.

٤ـ حـل مشاكـل الرجـل الشـخصيـة، كمرض الزوجـة مرضًـا مزمنًا ينـفر منهـا زوجها، أو يمنعـه الأطبـاء من قربانهـا، وليـس من يعولها إذا طلقها، كمـا ليـس من الإنـصـاف والعـدل أن يطلقهـــا وهي تعـاني مـا تعاني من الأوجـاع والآلام.

---

(١) «تعدد الزوجات في الإسلام» إبراهيم الجمل (ص٨١-٨٢) باختصار.

(٢) روى البخـاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسـول الله ﷺ قال: «من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين القيم الواحد».

لذلك كان من مصلحة كليهما إفساح المجال له للتزوج من ثانية، لئلا يتعطل نسله أو تميل به الشهوات الطبيعية في الزنا مع بقاء الأولى في كنفه ورعايته، حتى تبرأ أو تلقى وجه ربها وهي مكرمة معززة.

رُبَّ قائل أن يقول: قد يحصل عكس ذلك أن يمرض الزوج مرضًا مزمنًا منفرًا ويطول مرضه، فما موقف الشرع من هذه الزوجة، والطلاق بيد الرجل ليس بيدها؟

إن وجدت في نفسها القدرة على الصبر عليه وخدمته واحتسبت ذلك عند الله ـ عزَّ وجلَّ ـ حتى يفارق زوجها الحياة فذلك خيرٌ وأبقىْ.

(وإن لم تجد في نفسها ذلك وخشيت الوقوع في الحرام فإن الشرع فتح أمامها باب الخلاص بطلب الطلاق، والقاعدة في ذلك حديث رسول الله ﷺ: «**لا ضرر ولا ضرار**»[1])[2].

وكذلك من مشاكله الشخصية طول مدة النفاس والوضع، أو طول مدة الحيض، وهو لا يستطيع أن يصبر هذه المدة.

وكذلك عقم الزوجة مع رغبة الزوج في الذرِّية التي تعقبه، أو بلوغها سن الشيخوخة والزوج لا يزال في شبابه يتمتع بنشاطه وقوته.

(ثم إن الحياة الزوجية ليست قضاء وطر الجسد فحسب، بل هناك حاجات نفسية أهم من قضاء الوطر بكثير، ربما لم يتفطن إليها الذين يطعنون في التعدد.

---

(١) رواه ابن ماجه، والدارقطني.

(٢) «تعدد الزوجات أم تعدد العشيقات» لخاشع حقي (ص٥٧-٥٨) بتصرف.

وقد لخصت آية من كتاب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ تلك الحاجات النفسية في أوجز عبارة وأبلغ كلام!، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم: ٢١))[١].

وهذه الحاجة النفسية تختلف من رجل إلى آخر كمًا وكيفًا، وكلٌّ أعلم بحال نفسه، فبدلاً من أن تظل نفسه ظمأى تتلفت يمنة ويسرةً تبحث عن من يرويها، كان له في رخصة التعدد ملاذ يكفيه شرين: شر الوقوع في الحرام، وشر تطليق الزوجة الأولى.

لذلك كان التعدد حلاً لكل مشاكل الرجل الشخصية.

٥ ـ حل مشكلة العنوسة فإن (من أهم أسباب العنوسة هو العزوف عن تعدد الزوجات، وتأخير الزواج ريثما تكمل المرأة تعليمها، وهو تفكير خاطئ ناشئ من عدم تقدير صاحبته بالعواقب التي ستتبينها، إذ لا يجوز أن يكون تعليم المرأة عقبة أمام زواجها. وأوردت إحصائية عن طالبات كلية التربية بالرياض البالغ عددهن ألف طالبة تشير إلى أن تسعة وتسعون في المائة من طالباتها لم يتزوجن وعندما يتخرجن تكون أعمارهن بين ٢٤ - ٢٦ سنة، والشاب عندما يبحث عن زوجة سوف يختار ابنة العشرين لا ابنة الـ٢٦.

كما أن هناك أسبابًا أخرى كثيرة ومنها الإعفاف والإحصان للرجل والمرأة، وخير للمرأة أن يكون لها رجل له زوجة من أن تكون بلا زوج، وخير للرجل

(١) المصدر السابق (ص٥٨).

من أن تكون له زوجتان بطريق شرعي من أن تكون له خليلات من طريق محرم. فلماذا لا نعقل..!)[١].

٦ ـ ربط الصلات بين الناس، فتعدد الزوجات يربط بين أسر كثيرة، تحتم عليهم التعاون والتناصر فيما بينهم، وهذا أحد الأسباب التي جعلت النبي ﷺ يتزوج من أم حبيبة، وسودة بنت زمعة، وعائشة بنت أبي بكر، وكذلك حفصة ـ رضي الله عنهن ـ.

٧ ـ حل مشاكل المطلقات، فمن ذا الذي يُقبل على امرأة مطلقة، وهو في بداية حياته يرنو إلى بكر يلاعبها وتلاعبه، كذلك ربما يكون للرجل إحدى القريبات التي مات عنها زوجها أو طلقت، وليس لها من يعولها غير شخص متزوج، فيأخذها زوجة تعيش معه في بيته معززة مكرمة، عسى أن يُؤجر على تفريج كربة مسلمة فيفرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة.

وكذلك حل مشاكل الأرامل، تلك المرأة التي مات عنها زوجها وتركها وحيدة، أو تركها بأولاد لا تقوى بمفردها على رعايتهم، وإن كانت تقوى في بعض الحالات ففي وجود الزوج معها أعون وأكمل.

إلى غير ذلك من حكم عظيمة، وفوائد جمة، يدركها كل منصف ومخلص قد تأمل في هذا النظام الإسلامي الفريد، أو طبقه في حياته فلمس آثاره النافعة وتحقق منها.

---

(١) «المجلة العربية السعودية» (العدد ١٢٩) ١٤٠٨/٩/١٠هـ بتصرف.

قال المستشرق: «فونس ايتين دييه» في كتابه (محمد رسول الله):

«فالواقع يشهد أن تعدد الزوجات شيء ذائعٌ في أنحاء أرجاء العالم، وسوف يظل موجودًا ما وجد العالم مهما تشددت القوانين في تحريمه، ولكن المسألة الوحيدة هي معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحرر؟ أو أن يظل نوعًا من النفاق المستتر لا شيء يقف أمامه ويحد من جماحه؟».

وقال أيضًا: «إن تعدد الزوجات قانون طبيعي، سيبقى ما بقي العالم، مع أن نظرية التوحيد في الزوجة وهي النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرًا تنطوي تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص في ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة البلاء تلك هي:

الدعارة .. والعوانس من النساء .. والأبناء غير الشرعيين!!».

شبهات حول التعدد والرد عليها

هناك شبهات يثيرونها بعض ضعاف القلوب، ومن تأثر أيضًا بالأفكار الأجنبية وغيرهم ممن لا ناقة لهم ولا جمل في العلم الشرعي، حتى أعجبوا بها وداروا في فلكها، ونحن نورد هذه الشبهات الواهية لنرد عليها حتى يعلم من لا يعلم: ما هو الحق في المسألة؟ وحتى ندحض شبهات من لهم نوايا خبيثة وأفكار هدامة، ونعري حقيقتهم أمام الناس حتى يحذروهم.

الشبهة الأولى:

قالوا: لن يستطيع أي رجل أن يعدل بين زوجاته أو زوجتيه على الأقل، لذا فلا يجوز التعدد، أو على الأقل فلا داعي للتعدد، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩).

الرد على هذه الشبهة:

أصحاب هذه الشبهة لم يفتحوا كتاب تفسير واحد ليقرؤا معنى الآية، وإنما فهموها بأهوائهم، واتبعوا آراء من يدورون في فلكهم.

إن العدل المقصود شرعًا هو العدل بين النساء في المبيت والنفقة، أما العدل المقصود في هذه الآية، والذي جاءت بشأنه، وأنه لا يمكن حدوثه، هو العدل في المشاعر القلبية، **وهذا معفوٌ عنه، ولا إثم فيه.**

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية: «أي لا تستطيعوا أيها الناس أن تساووا بين النساء من جميع الوجوه، فإنه وإن دفع القَسْم الضروري ليلة وليلة، فلابد من تفاوت في المحبة والشهوة والجماع، كما قال ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغيرهم»[١].

قال صاحب منار السبيل: «ويجب عليه التسوية بين زوجاته في المبيت، ولا يجب أن يسوي بينهن في الوطء ودواعيه، لأن الداعي إليه الشهوة والمحبة، ولا سبيل إلى التسوية في ذلك، قال تعالى: ﴿ **وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا** ﴾ (النساء: ١٢٩)، قال ابن عباس: في الحب والجماع»[٢].

وقد كان رسول الله ﷺ ـ وهو أعدل الخلق ـ يحب عائشة رضي الله عنها أكثر من غيرها من نسائه، فعُلم من ذلك أن الحب ونحوه كما ذكرنا هو المقصود من آية النساء من عدم استطاعة الرجل العدل بين نسائه، ولذلك قال تعالى: ﴿ **فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ** ﴾، فلم ينهى الله تعالى عن الميل، وإنما نهى عن كل الميل.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٥٦٢).

(٢) «منار السبيل» (٢/ ٢٢١) بتصرف.

إن معاملة النساء لابد أن تختلف لاختلاف طبائعهن، وأخلاقهن، وسلوكهن، فالمرأة النكدة مثلاً لابد أن يعاملها الرجل معاملة تختلف عن المرأة الهينة اللينة الودودة، والمرأة التي تسرُّ زوجها إذا نظر إليها غير المرأة العبوس، وكذلك المرأة التي تبر قسم زوجها غير المرأة التي لا تقيم لكلامه ولا ليمينه وزنًا، والمرأة التي تطيع زوجها في غير معصية الله وتنقاد له، وتقدم رضاه على رضاها، وهواه على هواها، غير المرأة الناشز المتمردة، والمرأة التي تحفظ زوجها في نفسها وماله ومالها إذا غاب عنها غير المرأة المستهترة، لذلك فلابد أن يكون هناك ميل لهذه عن الأخرى، وهو الميل القلبي، وهو معفو عنه، لأن القلب ليس بيد الإنسان، وهذا هو معنى العدل الذي لا يستطيعه أحد، وبالتالي ليس هناك مشكلة في ذلك، لأنه ليس فيه محاسبة أو مُساءلة من الشرع.

أما عن العدل في النفقة:

فالعدل هنا يختص بحاجة المرأة، وحاجات النساء تختلف، فهناك امرأة ترضى بالقليل من النفقة وتكون سعيدة، وتشعر أنك غير مقصر في الإنفاق عليها، بل تنفق عليها أكثر مما كان والدها ينفق عليها، وامرأة أخرى لا ترضى إلا بالكثير فهي قد تربت على ذلك، إذن ليست هناك مشكلة لأن كل واحدة راضية لاسيما وقد كفى الرجل كل امرأة بحاجتها.

إذن فالعدل في النفقة أي: كلٌّ بحسبها، وبالتالي فالعدل ليس مستحيلاً، وليس فيه أي مشكلة إن شاء الله.

وقد رد الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ على أصحاب هذه الشبهة ببيان أن هذه الآية دليل على مشروعية التعدد، لأن الله لم يقل: «فلا تتزوجوا»، وإنما قال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ (النساء:١٢٩)، لعلمه سبحانه أن العبد سيميل إلى المرأة

الأكثر طاعة ونظافة، وجمالاً وترتيبًا، واهتمامًا بزوجها، لكن الله أمر المسلم أن يحافظ على العدل في النفقة والمبيت.

الشبهة الثانية:

يقولون: إن التعدد يحدث مشاكل بين الضرائر تنتقل إلى الأولاد، ونحن في غنى عن هذا كله، فضلاً عن العداوة والكراهية التي ستنشأ بينهم بعد ذلك.

الرد على هذه الشبهة:

لا أدري لماذا دائمًا نتوقع الصورة القاتمة لأي شيء ولا نتوقع أبدًا الصورة الناصعة: لماذا نقدم في أكثر أحوالنا أو في كلها سوء الظن ولا نقدم حسن الظن؟

هل لابد من حدوث المشاكل بين الضرائر؟ وهل لو حدثت ستكون هذه المشاكل بالحجم والخطورة التي تخوفنا من التعدد؟!! وهل لابد أن يحدث ذلك مع كل رجل يريد التعدد سواء كان عاقلاً أو أهوجًا، سواء أكان متدينًا أم مستهترًا؟!!.

(إن التباغض الذي يقع بين الزوجات يُرى كثيرًا بين الزوجة الواحدة وأحمائها، كما أن الخصام يقع كثيرًا بين الإخوة الأشقاء، فهل يقول عاقل بمنع الزواج من أجل هذا الخصام؟!

ثم إن أكثر أسباب الخلاف إنما تنشأ من تفاوت ميزان العدالة في المعاملة والعطاء بين الزوجات والأولاد، فلو أن الزوج عاملهن وإياهم معاملة واحدة في العطاء والنفقة لم يكن ليثور خلاف يذكر.

أما ما في نفوسهن من غيرة أمر طبيعي وفطري لا يمكن سلامة النفوس منه، وإن مقاصد التعدد في نظر المشرِّع الحكيم تسمو بكثير عما يقع من الكيد

والتباغض أثرًا لهذه الغيرة الفطرية، ولا تمنع من التعدد لما في تعددهن من خير كثير يربو على شر هذه الغيرة)[١].

إن بعض النماذج السيئة في التعدد هي التي حملت أكثر المعترضين على مهاجمة كل من يعدد، بل ويخوفونه ويحذرونه. وهل من العدل في القول أن نمنع التعدد بسبب تلك النماذج السيئة، وهل لنا مثلاً أن نبطل المعاملات بين الناس بسبب أفراد لا يسلكون في معاملاتهم السلوك الصحيح (وهل يقول عاقل بإلغاء التعامل بين البشر، تجنبًا للمشكلات التي يقوم بها قسم من الناس؟ وإذا كانت إساءة قوم من هؤلاء الجهلة قد تحققت في أمر تعدد الزوجات، فإن هذه الإساءة لا تعد شيئًا يذكر إذا نظرنا إلى الفوائد العظيمة التي نجنيها من هذا النظام، وإلى المفاسد التي تنجم عن حظره)[٢].

الشبهة الثالثة:

تعدد الزوجات يكثر النسل والذي يؤدي بدوره إلى كثرة البطالة والفقر.

الرد على هذه الشبهة:

لابد أن نعلم أنه إذا ضاقت الأرض علينا بما رحبت، فإن ذلك بسبب ذنوبنا وبعدنا عن الله تعالى، ولابد أن نعلم أن سعة الأرزاق مرتبطة بتقوى الله وحبه، بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، بتحكيم شرعه وإبطال ما يخالف أحكام الإسلام.

لكن الناس للأسف يحكمون على واقع مخالف للشرع، وأناس غير مستقيمين على دين الله تعالى، ثم يقولون: انظروا إلى ما نحن فيه من ضيق وضنك وفقر!!

---

(١) «تعدد الزوجات أم تعدد العشيقات» (ص٤٤-٤٥).

(٢) «الإسلام وتعدد الزوجات» لإبراهيم النعمة (ص٤٨).

وأنا أقول لهم: هل جربتم الطاعة المطلقة لله ولرسوله ﷺ؟

هل أحببتم الله من كل قلوبكم حتى تقدموا رضاه على رضا غيره؟

(إن من المعلوم في العالم وعلى مر العصور أن كثرة النسل مع حسن التربية من أعظم عوامل قوة الأمة وازدهارها، وأوقع الأمثلة على ذلك اليابان والصين، فما يزعمونه منشؤه سوء التربية وليس كثرة النسل، فالبطالة موجودة في كثير من الدول العربية، مع أن أرضها واسعة ومواردها كثيرة، ولو أحسن استغلالها لاستوعبت أضعاف من يعيشون فيها.

ولو قيست هذه المضار المظنونة بمصالح التعدد المحققة لرجحت المصالح لما تحقق من خير كثير يربو آلاف المرات على أمور يمكن تلافيها باتباع تعاليم الله في العدل وحسن التربية)[1].

ثم إنه من الأمور العجيبة لأولئك الذين يرفضون تعدد الزوجات، أنهم في نفس الوقت يدعون المرأة للخروج إلى العمل بحجة دعم الاقتصاد، والحاجة إلى اليد العاملة!! فسبحان الله!

أين هذا الفقر الذين يشكون منه، والمرأة تخرج للعمل وتسد الفراغ في المجتمع، وتزيد بها اليد العاملة المنتجة؟!!، ثم لو كانت كثرة العيال تسبب مشكلة الفقر والبطالة، لمنع الله ـ سبحانه وتعالى ـ مِلْكَ اليمين أيضًا، لأنها مصدر للإنجاب، فلمَّا لم يمنع الله تعالى ملك اليمين دل ذلك على سقوط هذه الشبهة وضحالتها.

(١) «الكلمات في بيان محاسن تعدد الزوجات» لهاشم الرفاعي (ص٦٨) بتصرف.

الشبهة الرابعة:

يقولون: إن تعدد الزوجات فيه امتهان للمرأة، وإهدار لكرامتها، وظلمٌ لها.

الرد على هذه الشبهة:

أأنتم أعلم أم الله؟!!

هل أنتم أعلم بخلق الله تعالى من الله بما يصلح أمر دينهم ودنياهم؟!

وهل أنتم أرأف من الله بعباده؟!

لو أن تعدد الزوجات فيه امتهان للمرأة، وإهدار لكرامتها كما تزعمون!! فلماذا شرعه الله تعالى؟!

وهل يعقل أن يُشرع الله تعالى تشريعًا فيه نقص أو عيب كإهدار كرامة المرأة كما تزعمون؟

هل الله تعالى ظالم ـ تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا ـ لدرجة أن يشرع ما فيه امتهان للمرأة أم أنكم جاهلون بأحكام الشريعة؟ وهذا هو الحق.

إذن فلابد أن يعي أصحاب هذه الشبهة الأمور التالية:

أولاً. إن الإسلام لم يجعل شريعة التعدد فرضًا لازمًا على الرجل.

ثانيًا. لم يوجب الإسلام على المرأة وأهلها أن يقبلوا رجلاً تكون ابنتهم له زوجة ثانية أو ثالثة مثلاً، ولولا أن المرأة وأهلها يرون في هذا الزواج منفعة ومصلحة لابنتهم لما قبلوا به إطلاقًا.

ثالثًا. أي امتهان للزوجة الأولى والذي تزوج عليها زوجها بأخرى وهو يتقي الله تعالى فيهما، ويعدل بينهما، ثم أي امتهان للزوجة الثانية بعدما انتقلت من حياة العزوبة ومشقاتها واحتمالات الانحراف إلى حصانة الزوجية ودفء السكن والاستقرار.

(ولا شك أن الزوج الذي تمتع بخلق رفيع وخشية من الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ومراقبة له في السر والعلن، فحزم أمره على أداء ما وجب عليه يستقيم به أمر الأسرة ويحل به الوفاق والوئام بين الزوجات والأولاد.

كما أن التعدد لهؤلاء ربح للمجتمع، إذ يزود الأمة بأبناء يرثون تلك الصفات الممتازة، أما الذي يتزوج الثانية والثالثة تبعًا لهواه دون أن يتوفر فيه الشرط، أو لمجرد إزعاج زوجته والإضرار بها، فإنه آثم لعدم صونه لحقوق الزوجة الأولى وما لمثل هؤلاء شرع التعدد.

وليست الشريعة الإسلامية مسؤولة عن تبعات مخالفة هذا الزوج وأمثاله وانحرافه. والشريعة الإسلامية واضحة في هذا المجال وهي حجة عليه وعلى كل من يسيء إلى نظامه العادل الرفيع)[(١)].

الشبهة الخامسة:

يقولون: إن تعدد الزوجات فيه تجاهل تام لمشاعر المرأة.

الرد على هذه الشبهة:

نعيد القول فنقول: لو أن في التعدد تجاهل تام لمشاعر المرأة، فلماذا شرعه الله تعالى؟!!، ثم إن الذين يقولون هذا الكلام غير منصفين؛ لأنهم نظروا إلى جانب واحد من القضية وهو الزوجة الأولى، وأغمضوا أعينهم عن الجانب الثاني وهو أولئك النسوة اللاتي حُرمن من الأزواج والبيت السعيد والاستقرار، وأرادوا أن ينعموا بحياة هنيئة مستقرة كما يسعد غيرهن من النساء.

---

(١) «تعدد الزوجات أم العشيقات» (ص٤٦-٤٧).

ثم لو أن كل رجل اتقى الله تعالى في زوجتيـه ما ظهرت مثل هذه الدعاوى المصطنعة، ولـكن كما قلت من قـبل: النماذج السيـئة لبعـض الرجال هي التي أعطت الفرصة للمعترضين أن يهاجموا هذه الشعيرة العظيمة.

الشبهة السادسة:

يقـولون: إن التـعـدد لابد أن يكون لسـبب، كـأن يكون بالأولى عـيب، أو مرضت مرضًا مزمنًا، أو يبغضها الرجل.

الرد على هذه الشبهة:

هذا الكلام مـردود لسـبب بسـيط، ألا وهو أن النبي ﷺ تزوج عـائشـة وسودة بعد خديجـة ﵂، وكان يحب عائشة حبًا جـمًا، ومع ذلك فقد تزوج ﷺ بعد عائشة ﵂ سبع نسوة.

وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز ـ رحمه الله ـ مفتي الديار السعودية:

هل يجوز للرجل أن يتزوج بأخرى بدون أي أسباب تدعو لذلك؟

فأجاب فـضيلته بقوله: نعم، فقـد قال الله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣) أي: ما اسـتحـسنتم، فله أن يتزوج وبدون أسـباب، لأن هذا ينفعه بـكل حال، لأن كبح الشهوة، والقـيام بما يعين على كبح الغريـزة الجنسية وكثرة الأولاد، هذا مطلوب، قد يتزوج لمزيد من الأولاد، وقد يتزوج للبعد عن أسباب الفتنة[١].

(١) فتوى لفضيلته في آخر محاضرة للشيخ الدريعي بعنوان «تعدد الزوجات في الإسلام».

الشبهة السابعة:

استدلالهم بمنع النبي ﷺ عليًا من تزوج بنت أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها بأفضلية عدم التعدد إن تمَّ ففي أضيق الحدود للضرورة فقط.

الرد على هذه الشبهة:

عن المسور بن مخرمة قال: إن عليًّ بن أبي طالب خطب ابنة أبي جهل على فاطمة ـ عليها السلام ـ، فسمعتُ رسول الله ﷺ يخطب الناس في ذلك على منبره هذا ـ وأنا يومئذٍ محتلم ـ فقال: «**إن فاطمة مني، وانا اتخوف ان تُفتن في دينها**»، ثم ذكر صِهرًا له من بني عبد شمس وأثنى عليه في مصاهرته إياه قال: «**حدثني فصدقني ووعدني فوفى لي، وإني لست أُحرم حلالاً، ولا أُحل حرامًا، ولكن واللهِ لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وبنت عدو الله ابدًا**»[(١)].

وعنه أيضًا قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول وهو على المنبر: «**إن هشام ابن المغيرة استأذنوا في أن ينكحوا ابنتهم عليًّ بن أبي طالب، فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا ان يُريد ابن أبي طالب أن يُطلِّق ابنتي وينكح ابنتهم، فإنما هي بضعة مني يُريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها**»[(٢)].

هذان الحديثان يستدل بهما البعض ـ عن جهل أو عن مكر ـ على تقييد التعدد بالضرورة القصوى لما فيه من الأذى، وخوف الفتنة على المرأة بدليل قوله ﷺ: «**وانا اتخوف أن تُفتن في دينها**»، «**فإنما هي بضعة مني، يُريبني ما أرابها، ويؤذيني ما آذاها**»، والذي يستدل بهما عن مكر لا يأتي بالحديث كاملاً حتى يوهم القارئ صحة ما يذهب إليه بما يتبع فيه هواه من الغيظ والحقد على شريعة التعدد.

---

(١) رواه البخاري (٣١١٠)، ومسلم (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢٠٦٩)، وابن ماجه (١٩٩٨).

(٢) رواه البخاري (٥٢٣٠)، ومسلم (٢٤٤٩)، وأبو داود (٢٠٧١)، والترمذي (٣٨٦٧)، وغيرهم.

وهذا الكلام كله مردود للأسباب الآتية:

١ ـ لقوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً...﴾ (النساء:٣)، فلم يجعل الله تعالى الاقتصار على واحدة هو الأصل وإنما في حالة الخوف من عدم العدل، وإلا فما معنى إباحة الإسلام للتعدد.

٢ ـ لأن رسول الله ﷺ ـ والذي قد نهى عليًا أن يتزوج على ابنته فاطمة ـ قد جمع بين تسع نسوة، وقوله وفعله ﷺ حجة لا خلاف في ذلك.

٣ ـ السبب الذي من أجله منع النبي ﷺ عليًا أن يتزوج على ابنته لم يكن بسبب رفض التعدد، أو لأنه لابد أن يكون هناك سبب ونحو ذلك، وإنما لقوله ﷺ في بقية الحديث: «**لا تجتمع بنت رسول الله ﷺ وبنت عدو الله أبداً**»، وفي رواية مسلم: «**مكانًا واحداً أبداً**»، وفي أخرى عنده: «**عند رجل واحد أبداً**»، فيكون من جملة محرمات النكاح الجمع بين بنت نبي الله وبنت عدو الله.

قال ابن القيم: أصح ما تحمل عليه هذه القصة أن النبي ﷺ حرَّم على عليٍّ أن يجمع بين ابنته وبين ابنة أبي جهل، لأنه علل بأن ذلك يؤذيه، وأذيته حرام بالاتفاق، ومعنى قوله: «**لا أُحرم حلالاً**» أي: هي له حلال لو لم تكن عنده فاطمة، وأما الجمع بينهما الذي يستلزم تأذي النبي ﷺ فلا[(١)].

٤ ـ أن من خصائص النبي ﷺ أن لا يتزوج على بناته، وهذا هو الذي استظهره الحافظ ابن حجر في (فتح الباري)[(٢)].

٥ ـ أن ذلك ليس معناه النهي عن التعدد، ولكن معناه أن النبي ﷺ من ثقته بربه وركونه الشديد إليه، يعلم من فضل الله عليه أن الله سبحانه لم يكن

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ٣٢٨).

(٢) انظر «فتح الباري» (٩/ ٣٢٩).

ليجمع بين فاطمة وبنت أبي جـهل، فقال ما يرضى عنه الله تعالى، وهو ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى.

الشبهة الثامنة:

قـول بعض الجـهـلاء: إنه لا يفـعل ذلك إلا رجل شـهـواني، يبـحث عن لذته وقضاء وطره فقط.

الرد على هذه الشبهة:

وهذا القـول سخـيف حكايتـه تغني عن رده، وذلك لأن رسـول الله ﷺ أكمل الناس خلقًا، لمَّا جمع بين تسع نسوة أكان شهوانيًا؟!!، وكذلك جمع غفير من أصحابه كانوا يجمعون بين أكثـر من واحدة، فهل هؤلاء أيضًا كانوا يبحثون عن قضاء وطرهم والاستمتاع بشهواتهم؟!!، ثم لو فرضنا أن الرجل تزوج لمزيد شهوة عنده، فإن هذا لا يُعد عيبًا مطلقًا عند أصحاب العقول السوية.

قال النووي ـ رحمه الله ـ: اعلم أن شهوة الجماع أحبها الأنبياء والصالحون، فهل يُعد هذا أنهم كانوا شهوانيين، ويُعد ذلك عيبًا فيهم؟!!.

(فصل) الطعن في تعدد الزوجات ردة عن الإسلام:

(لقد أجمع علمـاء المسلمين على ردة من أنكر شيئًا من كـتاب الله تعالى أو كرهه، وكذلك من أنكـر أمرًا متواترًا معلومًـا بالضرورة، وهؤلاء الذين ينكرون التعدد، أو يرون فيه ظلمًا، أو هضمًا للمرأة، أو يكرهون هذا التشريع، لا شك في كفـرهم ومروقهم من الدين، لذلك أحـذر هـؤلاء المتلاعبين، كـما أخـاف على هؤلاء الذين يشوهون قـضية التـعـدد، ويتحدثون كـثيرًا عن سلبيـاتها دون الايجابيـات، ويُخَـوفـون الناس من التعـدد، ويرجفون في البـلاد الإسـلامية،

قال تعالى: ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً (٦٠) مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (الأحزاب: ٦٠-٦٢)[(١)].

(فصل) أصناف المحاربين لسنة التعدد:

أما هؤلاء المحاربون لسنة التعدد فهم أحد ثلاثة:

١ ـ إما رجل عدو حاقد على الإسلام، ينفذ مكائد أعدائه، ويعينهم في مهامهم؛ لأنه يعلم أن في التعدد إكثار لعدد المسلمين، وهو يتربص بهم ويريد إضعافهم كما يحدث في بعض البلاد التي دعت المسلمين إلى الاكتفاء بزوجة واحدة، في وقت نرى فيه النصارى ينادون بإكثار النسل والزواج المبكر.

٢ ـ وإما رجل جاهل بالإسلام، سمع الناس يقولون شيئًا فقال ما يقولون كالببغاء، وما أكثر الجهال وأنصاف المتعلمين في عصرنا، ولعل أكثرهم من المثقفين ثقافة غربية أو شرقية، درسوا كل شيء إلا الإسلام، وعرفوا العلوم إلا علوم دينهم، ونحن ندعو هؤلاء إلى العلم والبحث والتفكير، وعرض مثل هذه القضايا على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وألا يكونوا أبواقًا لعدوهم، ولا مروِّجين لحقده الدفين، قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ (البقرة: ١٢٠).

٣ ـ أو الرجال الذين لا نقول فيهم إلا خيرًا، لكنهم أُصيبوا بضعف الشخصية الإسلامية وحب الغربيين، والإسلام في نظرهم في قفص الاتهام ولا يرغبون في أن يقال عنهم رجعيون أو دينهم رجعي، فهم يتنازلون عن الكثير من

---

(١) «شبهات في طريق المرأة المسلمة» عبدالله بن حمد الجيلاني ص (١٧).

دينهم بحجة الدعوة إليه، وأن عرضه بهذا الشكل المشوه في زعمهم سينفر من المدعوين، وهذا والله خطر فادح وشر مستطير[١].

أخبار حواء تدخل الميدان:

في جريدة الأخبار القاهرية بالصفحة الأخيرة بتاريخ ١٤/ ١٢/ ٩٧، كتبت المحررة تحت عنوان «الزواج مثنى وثلاث ورباع!!»:

مازالت الكثير من المسلسلات التلفزيونية والأفلام المصرية، تردد قول الرجال الذين يريدون الزواج بزوجة ثانية لتبرير ذلك ـ أن الله أباح الزواج مثنى وثلاث ورباع، وأصبح كثير من الرجال يرددون هذا القول على اختلاف ثقافتهم.. وهذا غير صحيح.

فعندما جاء الإسلام كان تعدد الزوجات أمراً شائعًا في الجاهلية، وكذلك التوراة جاء فيها تعدد الزوجات بعدد غير محدود، وواجه الإسلام تعدد الزوجات بتشريع متدرج وبشروط تجعل إباحته حالة استثنائية أو ضرورية لها مبرراتها.

وكما تقول الدكتورة زينب رضوان أن رجلاً مسلمًا جاء إلى عمر بن الخطاب يستشيره في أن يتزوج على امرأته، فسأله عمر: أتستطيع أن تعدل بينهما؟ فأجابه: نعم، فقال عمر: حتى في عدد القبلات؟ فقال الرجل: لا. فرد عليه عمر: إذًا لا يحق لك الزواج بأخرى!!!.

ومما يؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ (النساء: ٣) أي: أن الإسلام منع التعدد لمجرد الخشية وليس اليقين.

---

(١) «شبهات في طريق المرأة المسلمة» ص (٢١-٢٢).

وأكثر من هذا فإن القرآن يحسم القضية من خلال قول الله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ (النساء: ١٢٩).

وعلى ضوء ما سبق يصبح محصوراً في حالات معدودة للغاية، وهي التي تكون فيها الزوجة عاقراً أو مريضة ولا عائل لها إلا الزوج وترغب هي في الاستمرار معه، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك، فالزوجة بناء على حقها في طلب الطلاق يمكن لها الانفصال عن زوجها، ثم استدلت على ذلك بحديث المسور بن مخرمة الذي رواه البخاري ومسلم وقد أجبنا عليه بحمد الله تعالى في الحديث عن شبهات تعدد الزوجات ـ الشبهة السابعة.

ونحن نقول لهذه الكاتبة التي اعتلت منبر الإفتاء والوعظ والإرشاد: ما هو هذا التشريع المتدرج الذي واجه الإسلام به تعدد الزوجات ومن أين أتيت به ومن قال أن إباحة التعدد مقيد بشروط ضرورية تجعل إباحته حالة استثنائية ألم تتدبري قوله تعالى ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ﴾ (النساء: ٣) أي: ما لذ وطاب لكم من النساء دون مبررات ما دمتم ستعدلون.

ومن أين أتيت بكلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي ينقض بعضه بعضًا؟ فكيف يسأل عمر الرجل عن استطاعته في العدل بين الزوجين ويجيبه الرجل بأنه يستطيع، ثم يسأله عمر حتى في عدد القبلات!! فلما وجد الرجل الأمر فوق طاقته، رد بأنه لن يستطيع أن يعدل في عدد القبلات، فقال له عمر: إذًا لا يحق لك الزواج بأخرى.

فهل عمر رضي الله عنه لم يفهم المعنى الشرعي الصحيح المقصود من العدل في قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾، وهو الذي تربى في أحضان النبوة وفقه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لفظ القرآن.

ثم أقــول لك: هل يعقل أن يوجـد هناك رجل يسـتطيع أن يعدل في عـدد القبـلات بين زوجيـته؟! وإن تمكن عن طريق الكمـبيوتر بتـحديد العـدد، فهل سيسـتطيع أن يعدل في المدة الزمنية للقبلة الواحـدة. ثم من الذي قال أن العدل في الآية مقصود به حتى العدل في عدد القبلات!

إن العدل في قـوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ أعمُّ وأوسع من العدل في قـوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، ثم إن العدل في هذه الآية الأخيرة مقصود به محـبة القلب والجماع كما ذكرنا من قبل في ردنا على هذه الشبهة، أما في الآيـة الأولى فهو أعم من ذلك، فيدخل في أصل القَسْم والمبيت والإنفاق.

وبعد .. فهذا نموذج واحد من نماذج كثيرة تعج بها الصحف والمجلات بين الحين والآخر في النيل من قضية التعدد، معتمدين في ذلك على من يقرأ ومن يكتب!

تعدد الزوجات من شرع الإسلام.. ولو كره الكارهون![1]

وتحت هذا العنوان يقـول الشـيخ: السيـد عزب «جـمـاعة أنصـار السنة ـ شربين»:

نشرت جـريدة الأهرام رسالة الدكتـور عبد الحـميد الأنصـاري عميـد كلية الشريعة والقانون بجامـعة قطر في عمود (مجرد رأي) تكلم فيهـا الدكتور كلامًا بعيـدًا عن التعدد وأراد أن يجـعله ممنوعًا، وألبس كلامـه ثوب الشرع، وهو منه براء، وقدم له الأستاذ صلاح منتصر بأن رسالته أكثر إيضاحًا وشمولاً.

(١) آفاق عربية «المصرية» العدد (٥٤١).

جعل الدكتور التعدد مرتبًا على الخوف من عدم العدل في اليتامى ونسي أن التعدد حلال على الإطلاق، والآية التي احتج بها تدل على عكس ما فهم لأن معنى الآية ـ كما قالت أم المؤمنين عائشة ـ أن الرجل يكون في حجره يتيمة يريد الزواج منها طمعًا في ميراثها، فبين الله له أن الأمر لم يقف عند هذه اليتيمة بل الباب مفتوح فله أن يتزوج بثانية وثالثة ورابعة، وقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ (النساء:٣)، وقال ابن حجر: إن أقل درجات الأمر الاستحباب، فلو لم يكن الأمر للوجوب فهو مستحب، وقال النبي ﷺ: «تناكحوا، تناسلوا، تكاثروا؛ فإني مباهٍ بكم الأمم يوم القيامة»، أو قال: «فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة» وهذا الأمر لجميع المسلمين.. للمتزوج والأعزب على حد سواء، ومعلوم أن الزواج وكثرته من سنن النبيين.

وروى البخاري عن ابن عباس لتلميذه سعيد بن جبير: «ألا تتزوج فإن خير هذه الأمة أكثرها نساءً» والأرزاق مكفولة وهي من عناية الرب بخلقه: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ (الذاريات:٢٢)، ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ (العنكبوت:١٧)، ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (هود:٦)، ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا﴾ (البقرة:١٢٦)، ومن ظن أنه يرزق نفسه وأولاده أو ينفع أو يضر نفسه وأولاده أو مجتمعه فليراجع دينه؛ فإن الضار النافع هو الله وحده.

ولما أراد أذناب الكفار الطعن على التعدد وأرادوا أن يتمحكوا في الشريعة التي يحاربونها واستدلوا بالآية ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ﴾ (النساء:١٢٩)، رد عليهم الشيخ أحمد شاكر ـ رحمه الله ـ ببيان أن هذه الآية دليل على مشروعية التعدد لأن الله لم يقل: فلا تتزوجوا وإنما قال: فلا تميلوا كل الميل، لعلمه سبحانه أن العبد سيميل إلى المرأة الأكثر طاعة ونظافة

وجمالاً وترتيبًا واهتمامًا بزوجها، لكن الله أمر المسلم أن يحافظ على العدل في النفقة والمبيت، والأصل في المسلم العدل لأنه مأمور به في كل أمره حتى لو كان معه زوجة واحدة فيعدل بين أبنائه وبين أهله وزوجته وفي كل أمره.

والنفس جُبلت على حب التملك، وكانت الغيرة بين أمهات المؤمنين، لكن المسلمة ترضى بالشريعة ولا تنكر الأحكام الشرعية وتحاربها، لأن ذلك قد ينقص دينها، وزاد في نفور النساء الآن من التعدد شدة الحرب عليه واعتباره ضررًا بالزوجة الأولى بل مسوغًا لطلب الطلاق.

فلو أن الكُتاب والإعلاميين يدعون للشريعة ويأمرون الزوجة الأولى بالصبر وحسن العشرة لتماسكت الأسر ولم تتفكك ولم يتشرد وينحرف الأولاد.. لكن الذين يهاجمون التعدد يحرضون على الطلاق وعدم الرضا بالشريعة ويحطمون الأسر ويشردون الأبناء ويفتحون أبواب الزنا أمام الرجال والنساء الذين يخافون من التعدد خوفًا من هذه الحرب.. بل إن العوانس والمطلقات والأرامل لا يرضين بالتعدد خوفًا من حربهم وصدهم عن سبيل الله وشريعته، وهو ما أخاف العقلاء من التعدد ولم يجرؤ عليه إلا أقل الناس والمنحرفون، فكانت السلبيات فاعتبر الناس أن السلبيات والطلاق وتشرد الأبناء نتيجة حتمية للتعدد.

وإذا كان عميد كلية الشريعة بقطر يعتبر التعدد أمرًا شاذًا فكيف بغيره من فرادى المسلمين؟ ولا أتصور كيف بغيره من فرادى المسلمين؟! ولا أتصور كيف بعميد الشريعة يهاجم الشريعة ويعتبرها أمرًا شاذًا ثم يزعم أنه يقر بشريعة التعدد. وزواج الأبكار ليس عيبًا فإن الله تعالى قال: ﴿ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ ﴾ (النساء: ٣)، ومن السنة الحرص على زواج البكر، فليس شرطًا للتعدد أن تكون الزوجة مريضة أو لا تنجب، وإذا كانت الزوجة مريضة أو لا تنجب فهل الأكرم لها أن تُلقى

بالشارع وتُطلق، أم تظل زوجة كريمة ويتزوج زوجها؟! فالتعدد من محاسن الإسلام وشريعته، وزواج المرأة من متزوج أفضل لها من العنوسة والحسد والزنا.

وليس عيبًا أن يتزوج الرجل لشهوة فإن النبي ﷺ قال: **«وفي بضع أحدكم صدقة»**، وقال النووي: «اعلم أن شهوة الجماع أحبها الأنبياء والصالحون» فلا يقال على صاحب الشهوة: إنه صاحب نزوة، وهل الأفضل له الزنا، أم الكبت، أم الزواج؟! لكننا لا ننكر أن زواج العوانس والمطلقات والأرامل له كبير الفضل عند الله.

وكنا نريد من عميد الشريعة والأستاذ صلاح منتصر، أن يسبقا في زواج العوانس والأرامل والمطلقات ليدلا الناس على الخير والسنة، وللعلم - والحمد لله - فأنا متزوج من ثلاث نسوة ومستعد للزواج من الرابعة، والحمد لله فعلاقاتي بنسائي وأولادي جميعًا ممتازة وفي منتهى القوة والترابط.

وأسأل عميد الشريعة والأستاذ صلاح منتصر: ماذا تفعل النساء إذا كان تعدادهن أكثر من الذكور؟ ولا يخفى على عميد الشريعة أن ذلك موجود الآن، بل إن النبي ﷺ ذكر كثرة النساء قبل الساعة وقال: **«حتى يصير للقيم الواحد خمسين امرأة يلذن به من قلة الرجال»**، وهل الأفضل أن تستحوذ امرأة على رجل وحدها أم تسعد معها نساء أخريات؟ والمنهي عنه أن تتمنى امرأة طلاق أختها لتستفرغ صحفتها وتتزوج زوجها . . أما أن تشترك النساء مع رجل فذلك عين العدل والرحمة.

- وهل الأفضل للرجل أن يوسع ببذخ على امرأة، أم تكون معها مجموعة من النسوة حسب الشريعة؟

ولا ننكر فضل التعدد، وكذلك مساعدة الشباب على الزواج، لكن عميد الشريعة صوّر أصحاب التعدد بأنهم خطفوا البنات وضيعوا الفرص على الشباب مع أن معظم التعدد في الأرامل والمطلقات والعوانس.

ونسأل: لحساب مَنْ هذه الحرب على التعدد والشريعة بدلاً من الحرب على الزنا والتعري ومخالفة الإسلام، حتى إن عميد الشريعة جعل من التعدد والشريعة سببًا للتطرف والإرهاب!!

(فصل) نصائح مهمة للرجال:

يا أيها الرجال....

هذه نصائح وتوجيهات أقدمها لكم جميعًا قبل التفكير في التعدد، حتى يكون كل واحد منكم على بينة من أمره، وحتى لا يقع فيما وقع فيه غيره من عدم التروي والدراسة والاستشارة، حتى وصل به الحال إلى الندم أو التخبط في علاقاته بزوجتيه، وكذلك أقدم لكم بعض المفاهيم المهمة حول التعدد:

١ـ إذا خفتم ألا تعدلوا فحرام عليكم أن تتزوجوا بثانية، بل اقتصروا على واحدة، فهذا هو الأسلم لكم، فعندما أباح الإسلام التعدد قيده بأهم وأعسر شرط، وهو عدم الخوف من التفرقة بينهن حتى لا يُطلق أحدكم العنان لنفسه أو يجري وراء هواه مستهترًا، وهو غير قادر مثلاً على الإنفاق على واحدة، فيتولد عن ذلك من الشرور والخلافات وتشرد الأولاد وضياعهم، ما يضجُّ منه هو، ويضج المجتمع معه.

٢ـ احذروا من سرعة اتخاذ قرار الزواج الثاني دون أن يكون أحدكم مؤهلاً من الناحية المادية أو الجسدية أو النفسية، وذلك حتى لا يفاجأ في النهاية بأشياء لم تكن له في الحسبان، فيرتد على أعقابه نادمًا.

٣ـ البعض منكم رغبة منه في التعدد لسبب أو لآخر قد يتنازل عن بعض الشروط في الزوجة الثانية إمَّا لجمالها أو مالها أو غير ذلك، حتى وصل بالبعض التنازل عن التزامها ذلك، ولا تتنازلوا عن الشروط المطلوبة في الزوجة المسلمة بدافع الهوى أو الشهوة، فتزل قدم بعد ثبوتها.

٤ـ التعـدد في الإسلام لم ولن يكون «مـجرد تغـيير» أو «مزيد من المتـعة الجنسية» فحسب كما يفهم الكثير منكم، بل شرع الإسلام التعدد لحكم وأهداف عظيمة سامية، تفوق أي مطمع مادي أو جسدي، لذا فلابد من تغيير هذا الفهم الخاطئ عند الكثير منكم «فالذواقون الذين يتنقلون في مراتع الشهوات من واحدة إلى أخرى تمشيًا مع رغبتهم ودواعي شهوتهم، ليسوا بمحمودين على عملهم، وربما يدخلون بمقصدهم في نكاح المتعة المحرم في الإسلام، متى تزوجها وفي نيته أن يطلقها ولا يستديم بقاؤها، وقد ورد الوعيد الشديد في الذواقين من الرجال والذواقات ، ومن كانت هذه سجيته، فلن تدوم صحبته.

وقال الشاعر:

ومن جميع الضرات يطلب لذة ❊ فقد بات في الأضرار غير سعيد[1] »

٥ـ الزوجة الثانية ليست «زوجة درجة ثانية» أو «زوجة على الهامش»، أو «زوجة بلا حقوق»، تُطلَّق في أي وقت أو تهمل لأي سبب، أو لا تأخذ حقوقها لأنها ليست «الأصل»، وإنما لها من الحقوق والعدل والاحترام والتقدير والرعاية ما يُسأل عنه الرجل يوم القيامة تمامًا كالزوجة الأولى.

٦ـ قد تحدث مشاكل بين الزوجين، وتشتد الخصومة، ويلعب الشيطان دوره داخل البيت وينجح عندما نعطي له الفرصة، ويتحول البيت من دار الأمن والمودة والطمأنينة إلى دار الحرب والمشاحنة، فيلجأ الرجل أحيانًا إلى الزواج على امرأته لا لشيء إلا بقصد الكيد والانتقام، ولا يخفى على كل صاحب عقل سليم أن هذا حرام بنيته الفاسدة، بل إنه ظلم والظلم حرام، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ ﴾ (الطلاق: ٦).

---

(١) «حكم إباحة تعدد الزوجات» للشيخ عبد الله بن زيد آل محمود ص (٢٦).

ثم ما ذنب الزوجة الثانية التي يتزوجها الرجل لا لحب أو كفالة أرملة أو حل لمشكلة مطلقة؟!! وكيف يعيش معها وليس له نية صحيحة شرعية في الزواج بها؟.

ثم هل مثل هذه النوعية من الرجال ستكون قادرة على العمل، وتحمل المسئولية والقيام بمسئوليتها نحو رعِيَّتهم في البيتين، أم أنه سيوقع نفسه في حرج شديد ومحاذر شرعية كان في غنى عنها لو اتقى الله تعالى وحاول إصلاح زوجته بالطرق الشرعية لحل الخلافات الزوجية.

٧ ـ ينبغي الانتباه إلى أن إباحة التعدد تُقدر بحسب الزمان والمكان والشخص، بمعنى أن ما يصلح لشخص قد لا يصلح لآخر، وليس شرطًا للتعدد الأدلة القاضية بسنته ومشروعيته، فقد لا يستطيع البعض التزوج بواحدة أصلاً، أو الاقتصار على واحدة فقط، وقد لا يعدد البعض خوفًا من عدم القدرة على العدل بين الزوجات، وقد كان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ من تزوج منهم بواحدة، ومنهم من تزوج بأربعة، ومنهم من لم يستطع الزواج أصلاً، لذا فإن الأمر يختلف من شخص لآخر، ومن وقت لآخر، ومن مكان لآخر، فما ينفع هنا قد لا ينفع هناك، لذا فإنه من الخطأ الرغبة في التعدد لأن فلانًا قد عدّد أو الشيخ أو العالم الفلاني قد عدّد.

٨ ـ يكثر البعض منكم كلما حدث خلاف بينه وبين زوجته من التلويح بالتعدد، وكأنه نوع من الزجر والتأديب للزوجة، وهذا سلوك خاطئ تمامًا للأسباب الآتية:

أولاً ـ إثارة الحزن والكآبة عند الزوجات.

ثانيًا ـ إحساس المرأة بعدم الأمان مع زوجها مما يحملها، على بعض أفعال ربما تخالف الشرع، كأن تأخذ من ماله دون أن يأذن ضمانًا لمستقبلها من أي شي يحدث فيما بعد.

ثالثًا ـ ليس هذا هو الطريق الشرعي لتأديب المرأة أو علاج نشوزها، وإلا لدلَّنا عليه الشرع.

رابعًا ـ كراهية المرأة للتعدد، لأنه أصبح كالسوط المسلط على رقبتها، والعقوبة الرادعة الزاجرة لها إن خالفت زوجها.

خامسًا ـ إن ذلك مما ينافي المعاشرة بالمعروف، حتى إن كان على سبيل المزاح، لما يثيره من الحزن والهم، وهذا يخالف ما بُنيت عليه الحياة الزوجية من المودة والرحمة، لذا فإني أوصيكم بتقوى الله تعالى.

ولحل الخلافات الأسرية منهج وضعه القرآن فاسلكوه ييسر الله تعالى لكم، ويصرف عنكم ـ إن شاء الله ـ السوء.

٩ـ التعدد يقيد الرجل ولا يحرره، كيف تكون إباحة الزواج بأكثر من امرأة ـ قيداً ـ وهي تتيح للرجل أن يجمع بين زوجتين أو ثلاث أو أربع؟!!.

إن الزواج يُحمل الرجل مسئوليات مادية ومعنوية، ويلزمهم بالتزامات عظيمة في عقد الزواج تجاه المرأة التي تزوجها من الإنفاق والحماية والرعاية.

وأهم واجب يفرض عليه هو واجب العدل: العدل بين جميع زوجاته في النفقة وفي المبيت، وهو ليس بالأمر السهل بل هو شديد وعظيم إلى حد يصبح معه قيدًا حقيقيًا على الرجل الذي اختار التعدد، لذا فلا يقبل الرجل على التعدد من مبدأ إشباع رغبة جنسية بحتة ينسى معها أهم الحقوق الشرعية المتعلقة بالتعدد، ولذلك قال ﷺ: **«من كان له امرأتان فمال لإحداهما جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط»**[1].

(١) رواه أحمد وأهل السنن.

لذا فمن يرى أنه أهلاً لذلك فليتوكل على الله، ومن يجد أن الأمر أكبر من حجمه وإيمانه، فليتوقف حتى لا يظلم نفسه ولا يظلم غيره.

١٠ـ أخي الحبيب... لا تجعل العواطف أعزّ عليك من الإسلام، ولا تقدم شيئًا أو أحدًا على شرع الله أيًا كانت الأسباب، «فإذا تدخلت الأهواء، اهتزت الموازين، واضطربت الحقائق في نفس صاحب الهوى، حتى تهوي به بعيدًا عن الحقيقة واليقين، وكذلك إذا تدخلت العواطف. فكم من مشكلة أمكن حلها بأيسر ما يكون لو أن الأهواء والعواطف تنحت جانبًا، وكم من حقيقة غمطت تحت غبار الهوى والعاطفة، وكم من مأساة كانت في أول أمرها يسيرة صغيرة فغزتها أهواء الأنفس ورعوناتها حتى تضخمت وأعجزت الحكماء عن الحل»[(١)].

فلو تزوج زوج أختك أو ابنتك عليها، فاحذر أن تركن إليها باتباع الهوى والتعصب الممقوت لها، فيقودك الشيطان إلى عدم العدل والإنصاف في القول والعمل، فتقف معها ضد الحق وأنت لا تبالي.

واحذر أن تنظر إلى زوج أختك أو ابنتك على أنه قد أصبح عدواً لك بسبب التعدد، فيملأ قلبك الحقد والضغينة وربما الغيرة أيضًا والحسد، وكلها أمراض حذر الإسلام منها كثيراً، كي تخلص النفوس المسلمة منها.

١١ـ ما من شك أن إقبال الشباب على التعدد أحسن وأولى من انحصار التعدد لدى كبار السن، لما في ذلك من تحصين الشباب وإشباع غرائزهم الفطرية بطرق مشروعة، ولا يخفى على أحد أن قدرة الشباب على العدل والتي يؤهلهم لها عامل السن والقوة والشباب أكبر من كبار السن، لذلك فإن عزوف كثير من

---

(١) «زغل الدعاة» سعيد بن ناصر الغامدى ص (٥٠).

الشباب عن هـذه السُّنة وانحصارها لدى كبـار السن يضيع فوائد ومصـالح جمة والشباب في أشد الحاجة إليها كما ذكرنا.

١٢ ـ هناك بعض الممـارسـات الخـاطئـة التي تصـدر عن الرجـال نذكـرها لنحذرهم منها:

- هذا يغتاب زوجته ويذكر عيوبها ليبرر لنفسه الزواج بأخرى.
- وآخر عنده خمـسة أولاد يعلم أن زوجته شديدة الغيـرة، ومع هذا يكلمها في التعدد باستمرار مما يجعلها عصبية.
- وآخر يقول: زوجتي لا تنزجر إلا بتهديدها بالتعدد.

١٣ ـ «**من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه**» قاعـدة إسلامية عظيـمة، لماذا تغيب كثيراً عن أخلاقـنا وسلوكياتنا، إذا تزوج رجل بأخرى؟ لماذا نراكم تحاولون تحسس الأخـبار، والتجـسس لمعرفة مـاذا حدث، وكيف حـدث؟ ولماذا حدث؟ وماذا تفعل الزوجة الآن؟.

(فصل) إلى الأزواج العازمين على التعدد:

١ ـ أدعوهم إلى إخلاص القصد وتقوى الله في السر والعلن، والوقوف عند حدود شرع الله المحكم مـن غير ظلم أو تعـسف، وعليهم أن يجـتنبوا مـا يعمد إلـيه بعض الأزواج من استغلال رخصة التعدد لأغراض شهوانية صرفة، أو للانتقام والإضرار[١].

٢ ـ لا داعي لتهـديد زوجتك دائمـًا أو بين الحين والآخـر بالزواج بأخـرى، حتى لو كنت مـازحًا، فإن هذا ولا شك يؤثر على نفـسية المرأة «فـالذي يتزوج

---

(١) «مزايا نظام الأسرة المسلمة» أحمد حسن كرزون ص (١٢٩).

الثانيـة أو الثالثـة تبعًا لهـواه دون أن يتوفر فـيه الشـرط أو لمجرد إزعاج زوجـته الأولى، فهذا زواج محرم شـرعًا، وليست الشريعة مسؤولة عن تبعـات مخالفته وانحرافه، ،ولكن المجتمع مسؤول إذا لم يُقـوم اعوجاجه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»[1].

٣ـ إذا أردت أن تُعدد، فلا بد أن يكون ذلك بعد دراسة وتعقل وتروٍّ وتأمل ونظر، حتى لا تنظر إلـى القضية على أنـها مجرد تغـيير، بل لابد أن تدرسـها دراسة صحيحة، فإذا اتخذت قرارك بعـد الاستخارة والاستشارة والنظر، فتوكل على الله دون حاجة إلى ترويع قلب المرأة صباح مساء بالزوجة الثانية.

٤ـ إن رأيت أن تقيم سنـّة التـعدد فلا تُضيع الفرائض وتتـلف نفسك، فمن الرجال من يُعظم أمر هذه السُّـنة في مقابل تضييع مـا هو أهم منها من الفرائض فيتلف نفسه ويضيعها ويوردها المهالك.

ومنهم من جـار على حق إحـدى زوجـاته بحـرمانـها مـثـلاً وأولادها من الميراث، أو عدم العدل في النفقة.

ومنهم من ترك مجلس العلم، ونسي ورد القرآن الذى كان يقرؤه ونحو ذلك من الطاعات، وصارت مهمته في الحياة بذل الجهد والجهد، وتكليف النفس فوق طاقتها من أجل الإنفاق على زوجته.

ومنهم من يضـيع وقته فـيهمل تربـية أولاده والنظر في مصـالحهم، فـينشأ الأولاد أو بعضهم لا يعرفـون طريق المسجد، وبعضهم أصبح عنده عقـد نفسية مثلاً بسبب ميل أبيهم إلى بعض الأولاد دون الآخرين.

---

(١) «ماذا عن المرأة» نور الدين عتر ص (١٤٦).

ومنهم من يسارع بتطليق واحدة من نسائه ليتزوج بأخرى، إما لعدم قدرته على الانفاق أكثر من ذلك، أو ليخلص نفسه من مشاكلها وأولادها، فيصيبها بأذى كبير، ولا يخفى أن أذية المؤمن حرام.

«لقد سمعنا ورأينا الكثير من الصور المنفرة، والتي من شأنها أن تصد عن سبيل الله - عزَّ وجلَّ -، وتعطي أعداء الإسلام والمسلمين المبرر للطعن في مبدأ التعدد، كما طعنوا من قبل في الإسلام ككل لِمَا شاهدوه من ضعف المسلمين وانحرافهم عن دينهم، لمثل هؤلاء المنفرين نقول: اتقوا الله واعدلوا بين نسائكم فالظلم ظلمات.

وإذا رغبتم في إقامة سنَّة التعدد فلا تجوروا وتضيعوا الفرائض وأنفسكم تبعًا لذلك، فإن الله - عزَّ وجلَّ - لا يقبل النافلة حتى تؤدى الفرائض، كما قال أبو بكر الصديق لعمر ﷺ: ورحم الله امرءًا عرف قدر نفسه، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها، فنفس تنجيها خير من تعدد لا تقوى عليه ولا تقوم بحقه»[(١)].

٥ أنصحك بألا تُسكن زوجتك الثانية مع الأولى في منزل واحد منعًا للمشاكل، ومنعًا لإشعال نار الغيرة بينهما، واحذر أن تغرس الحقد في قلب زوجتك الأولى تجاه الثانية، وذلك بسوء سلوكك وتصرفاتك، وذلك عند مجانبتك لأوامر الله تعالى بالعدل بينهما، وإعطاء كل زوجة حقوقها كاملة غير منقوصة.

قال ابن قدامة: «وليس لرجل أن يجمع بين امرأتين في مسكن واحد بغير رضاهما، صغيرًا كان أو كبيرًا، لأن عليهما ضررًا لما بينهما من العداوة والغيرة، واجتماعهما يثير المخاصمة والمقاتلة وتسمع كل واحدة منهما إذا أتى إلى الأخرى، أو ترى ذلك، فإن رضيتا بذلك جاز لأن الحق لهما، فلهما المسامحة بتركه»[(٢)].

---

(١) «نظرات في مسألة تعدد الزوجات» سعيد عبد العظيم ص (١٠٨-١٠٩).

(٢) «المغني والشرح الكبير على متن المقنع» (١٨/ ١٣٨).

▪ وقال النووي ـ رحمه الله ـ: والأولى أن يطوف على نسائه في منازلهن، اقتداءً برسول الله ﷺ، ولأن ذلك أحسن في العشرة وأصون لهن، وله أن يقيم في موضع ويستدعي واحدة واحدة، لأن المرأة تابعة للزوج في المكان[1].

٦ـ لا تتعجل لقاء الزوجتين بسرعة قبل أن تمهد لذلك وتُعدله، حتى يخرج اللقاء بالهدف المرجوّ منه وهو الحب والإخاء، وحاول دائمًا أن تنقل كلام الود والحب بين الطرفين حتى يكون هناك في قلبيهما مساحة من الحب وعدم الكراهية، ومن الأمان وعدم الخوف قبل أن يلتقيا.

٧ـ احذر الميل لإحداهما دون الأخرى لاسيما إن كانتا في مجلسٍ واحد، فالضحك والنظر والملاطفة مع واحدة دون الأخرى، أو الاهتمام بأولاد واحدة دون الأخرى، وكذلك الدخول على واحدة أكثر من الأخرى، أو أن تتعمد أن تجعل مواعيدك وأشغالك كلها في يوم واحدة بعينها، حتى تتعلل بعدم الذهاب إليها، أو الجلوس عندها ومداعبتها ومداعبة أولادها، فإن ذلك كله ظلم، والظلم ظلمات يوم القيامة.

▪ قال ﷺ: **«اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم»**، ربما تسافر بواحدة وتتجاهل الأخرى، أو تكثر النفقة على واحدة بدون سبب شرعي وتبخل على الأخرى وفيه قال الله تعالى في الحديث القدسي: **«يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»**[2].

---

(١) «المجموع» للنووي (١٦/ ٤٢٩- ٤٣٠).

(٢) رواه مسلم.

٨ ـ لا تكتم أمر زواجك بأخرى، وتكتفي بالذهاب إليها مثلاً ساعتين كل يوم، وقد يموت الرجل وتعلم زوجته الأولى بأن له زوجة أخرى أو أكثر، ويعرف أولاده أيضًا أن لهم إخوة آخرين، ولكن التزم بالشرع حتى لا تضيع حقوق أحد.

٩ ـ حاول في بداية زواجك بأخرى ألا تُصدم زوجتك الأولى مرة واحدة بالتغير الجديد في حياتها بلا مقابل، فأكثر من تدليلها، وأطب من كلامك ومعاملتك لها، ولا بأس بالهدية حتى تشعر أنك لا تزال تحبها وتقدرها وتخاف عليها، وأنك لا تستطيع الاستغناء عنها بأي حال من الأحوال.

١٠ ـ القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، لذا فاحذر أن تشعر إحدى زوجتيك بطريقة أو بأخرى بأنك تحب الأخرى أكثر منها، أو تفضلها عليها حتى لا تزرع في قلبيهما الضغينة والكراهية ثم يسبب ذلك لك مشاكل فيما بعد.

١١ ـ كن حليمًا بزوجتك، فربما تنفعل أو تغضب عند علمها بزواجك عليها، فهدِّئ من روعها، وأقنعها بشرع الله تعالى وأوصِها بتقوى الله تعالى، وخوفها غضبه ـ جل وعلا ـ، ولا تقابل انفعالها وغضبها بانفعال آخر فيهدم البيت من أول مواجهة، بل كن حليمًا هادئًا صبوراً ما أمكن لاسيما في البداية، واكبح جماح نفسك، ولا تنفعل عند كل بادرة تبدر من امرأتك **«فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج»**[(١)]، وفي رواية: **«فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»**[(٢)].

---

(١)، (٢) متفق عليهما.

١٢ ـ إذا ضعفت زوجتك، أو رأيت منها بعض التصرفات أو الأقوال التي تخالف الشرع بعد علمها بزواجك الثاني، فاحذر أن تُشهِّر بها، أو تذكر أخطاءها أمام الناس حتى تظهر أنت بمظهر المظلوم، أو المهضوم حقه، بل اذكرها بخير دائمًا أمام الناس، واستر أخطاءها عسى أن يهدي الله قلبها، فهي زوجتك، وأختك في الله، وتقوى الله تعالى وحسن الخلق يقتضيان منك هذا الموقف الإيماني الرفيع.

١٣ ـ لا تحزن من نقد أهل الباطل والحسَّاد، فإنك مأجور من نقدهم وحسدهم على صبرك، وهم بغبائهم ينقلون إليك حسناتهم، فربما يقولون عليك كلامًا يحزنك فلا تلتفت إليهم والتفت لله وحده، ليكن شعارك: ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء: ١١٢).

سأل موسى ربه أن يكف ألسنة الناس عنه، فقال الله ـ عزَّ وجلَّ ـ: «**يا موسى ما اتخذت ذلك لنفسي، إني أخلقهم وأرزقهم، وإنهم يسبُّونني**»

إنك لن تستطيع أن تعتقل ألسنة البشر عن فرْي عِرضك ولكنك تستطيع أن تفعل الخير وتجتنب كلامهم ونقدهم، فلا ترد على كلمة جارحة فيك، فالصمت يقهر الأعداء، والعفو مثوبة وشرف.

ستتهم بأنك صاحب نزوة، أو خائن للحياة الزوجية، أو غادر وغير وفي، فاصبر واعلم بأن الله يدافع عنك، والملائكة تستغفر لك، والمؤمنون يشركونك في دعائهم كل صلاة، والنبي يشفع، والقرآن يعدُك وعدًا حسنًا، وفوق هذا رحمة أرحم الراحمين.

ذُكر في سيرة عيسى عليه السلام أنه داوى ثلاثين مريضًا، وأبرأ عميان كثيرين، ثم انقلبوا ضده أعداء، فأين أنت من عيسى عليه السلام؟

١٤ ـ لا شك أنك ستشعر بشيء من غربة الإسلام، عندما تجد أكثر الناس ضدك يلومونك وينالون منك، فلا تلتفت إليهم ما دمت تسلك طريقًا يرضي الله تعالى، واعلم أن صبرك على ما تلاقيه في ميزان حسناتك إن شاء الله، وعندما يفيق هؤلاء سيندمون على ما فعلوه، ويعلمون وقتها أنك جبل شامخ لا تعتز بغير دينك ولا بغير شرع الله ـ سبحانه وتعالى ـ، وليكن شعارك: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

فليحذر المعدِّد هذه الصور:

المعدد بشر قبل كل شيء يخطئ ويصيب، ولكن التقي الذي يخاف الله تعالى ويرجو رحمته ويخشى عذابه، هو الذي إذا أخطأ أسرع الأوبة إلى الله ـ عزَّ وجلَّ ـ، لذا فهو يحذر كل ما يخالف العدل بين زوجتيه، أو بين زوجاته.

ومن أهم هذه الصور التي يحذرها:

١ ـ هجر إحدى زوجاته لخلاف يسير، دون أن يسبق هذا الهجر موعظة أو تحذير.

٢ ـ تفضيل إحداهما على الأخرى في الهبة، فيخصها بمال دون الأخرى لغير سبب شرعي.

٣ ـ ترك العدل في المبيت والسفر.

٤ ـ عدم مراعاة شعور إحدى زوجتيه، كمن يظهر الفرح مثلاً بإحدى زوجتيه، لاسيما إن كانت جديدة مما يؤلم الأخرى ويزيد في إغاظتها واشتداد غيرتها، وذلك من الخطأ والجهل.

وفي الختام: يا سامعًا لكل شكوى:

فهذه رسالة لأحد الدعاة يشكو فيها إلى ربه ظلم الناس والمجتمع له لأنه عدَّد، لا لأنه ظالم مثلاً، وإنما لأنه عدَّد فقط، فهيا نقرأها سويًا ففيها عبر وفوائد مهمة.

يا سامعًا لكل شكوى:

- «إني مغلوب فانتصر».
- «لا إله إلا أنت سبحانك، إني كنت من الظالمين».
- «يا حي يا قيوم، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من الناس».
- «لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السموات والأرض، لا إله إلا الله رب العرش الكريم».

يا سامعًا لكل شكوى:

أين الصالحون في هذا الزمان، الذين تجردوا لله وحده؟

أين المستقيمون، الذين تجردوا من أهدافهم وشهواتهم وأنانيتهم، ولم يعنهم أنهم قلة . . !! ولولا بقية منهم الآن لقامت الساعة!

يا سامعًا لكل شكوى:

لماذا كل هذا الهجوم من الناس على قضية تعدد الزوجات؟

لماذا يقفون موقف المحارب بلا خجل ولا استحياء لكل من يعدد، أو تُسول له نفسه بالتعدد؟

هل التعدد جريمة ونحن لا ندري؟!

هل هو منكر، أو كبيرة من الكبائر ونحن لا نعرف؟!

أم أنها غربة الدين، وأيام القابض على دينه كالقابض على الجمر؟!

يا سامعًا لكل شكوى:

أشكو إليك قسوة قومي عليَّ لما تزوجت بأخرى، أُدْخل عليها الفرح والسرور بعدما تجرعت مرارة الحزن والكآبة والهم واليأس في بعض الأوقات.

تزوجت - يا ربي - لأكفل أرملة أو أسعد مطلقة أو أفرح عانسًا وأفرج كربهم جميعًا، هذه كانت نيتي، ومع ذلك لم يرحمني قومي.

طعنوا فيَّ، لمزوني، اغتابوني، أساؤا الظن، نالوا مني، أقاموا الدنيا عليَّ حتى ظننت أن الزنا عندهم كان أهون من التعدد.

يا سامعًا لكل شكوى:

أشكو إليك غربتي حتى بين بعض من تزيّ بزي الإسلام.

أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، حتى أصبح يغتابني من كنت أُعلمه كيف يقرأ القرآن، ويلمزني من كنت أُعلمه كيف يَذْكرك، وينال مني من كنت أعلمه حديث رسول الله ﷺ، فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

يا سامعًا لكل شكوى:

فقيرًا جئت بابك يا إلهي ▫▪▫ ولست إلى عبادك بالفقير

غنيٌ عنهم بيقين قلبي ▫▪▫ وأطمع منك في الفضل الكبير

إلهي ما سألت سواك عونًا ▫▪▫ فحسبي العونُ من رب قدير

إلهي مـا سـألت سـواك عـفـواً ▫▪▫ فـحـسـبي العـفـو من رب غـفـور
إلهي مـا سـألت سـواك هديًا ▫▪▫ فـحـسـبي الهـدى من رب بصـيـر
إذا لم أسـتـعـن بك يا إلهي ▫▪▫ فـمن عـوني سـواك ومن مـجـيري

يا سامعًا لكل شكوى:

رأيت التعـدد في عيون الناس مصيـبة من المصائب، وأن من يقـوم به غير وفيٍّ لزوجة عاشت معه سنين عديدة .. وأنه أهدر كرامتها وفضحها بين الناس .. وأنه قابل إحسان زوجته وعشرتها له بالإساءة .. إلى غير ذلك من الأقوال الساقطة، لأنهم لم يفهـموا عن الله حكمة تشريعه وأنه هو العـالم بخلقه، ما يصلحهم وما يفسدهم.

يا سامعًا لكل شكوى:

لقد اشتد بي البلاء فلم أجد منقذًا إلا أنت، ولم أجد ملجأ إلا إليك.

أعانني على الصبر بعض الطاعات وهي:

- ذكر الله تعالى.
- الدعـاء.
- طلب العلم الشرعي.
- العفو ومقابلة الإساءة بالإحسان.
- تذكر الموت.
- الرغبة في الجنة .. فهل من مستفيد؟

يا سامعًا لكل شكوى:

لماذا تعاملني زوجتي الأولى بين الحين والآخر معـاملة سيئة، وتجعلني أعيش في جو من الهم والحزن والألم.

نعم أعاملها بالحسنى وحسن الخلق والصبر على سوء خُلُقها، ولكن إلى متى؟

أما تعلم أن الله تعالى لا ينظر إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه؟

تعيش الزوجة ـ بفضل الله ـ في خير زوجها، إذن فلماذا تنكد عليه عيشته وهو الذي ينفق عليها بفضل الله تعالى؟

أما نظرت نظرة بعيدة ولو قليلاً أنني لو طلقتها لندمت أشد الندم، بعد أن تصبح مطلقة، بعدما كانت سيدة آمنة في بيتها؟

تهجر فراش الزوجية بالأسابيع ولغير سبب شرعي، وذلك كبيرة من الكبائر وهي لا تبالي.

تظن أنها على الحق لأنها تقرأ القرآن وتصلي وتصوم ولكن غفلت عما هو أولى من ذلك ابتداءً ألا وهو رضى زوجها عليها، إذ لا تؤدي المرأة حق ربها حتى تؤدي حق زوجها كما جاء في الحديث الصحيح.

لماذا تعلق أخطاءها وسوء تصرفها في بعض الأحيان على «شماعة التعدد»؟!

لماذا تتغنى دائمًا بأن نفسيتها متعبة، وأنها تغيرت، مع أنني لم أظلمها ولا أسيئ إليها؟!

لماذا تنتهز الفرصة بين الحين والآخر إذا كان الحديث يمس قضية التعدد من قريب أو بعيد، فتطلق طلقات من لسانها تؤلم زوجها وتحزنه؟!

▪ لماذا تنسى معظم النساء الموقف الشرعي الصحيح تجاه زوجها إن تزوج عليها، لماذا تستعين بعاطفتها وتنسى عقلها وتستعين بصديقاتها اللاتي يصدن في الماء العكر، حيث تأتي الواحدة منهن بدعوى مواساة المرأة، والوقوف بجانبها ضد زوجها ـ أيًا كان قدره أو علمه أو أخلاقه الطيبة أو صلاحه ـ لتقدم لها الخطط وتشعل نار الغيرة في قلبها أكثر وأكثر، وتوصيها بعدم الاستسلام!!

ومما يزيد القلب حزنًا وألمًا عندما تصدر هذه التصرفات غير الشرعية من أناس يتزيون بزي الالتزام، ظاهرهم الاستقامة وسلوك الصراط المستقيم، ولكن واقعهم وقت المحن والابتلاء، ما الله به عليم سواء من الرجال أو النساء!!

▪ ومن الصور السيئة تلك التي تقوم بها بعض النساء ـ ضعيفات الإيمان ـ من اعتراض على حكمة التعدد، وقد تدعو بالويل والثبور وقد تخمش وجهها وتشق جيبها، وقد تهجر منزل زوجها، وتذهب إلى بيت أهلها!

ومنهن من تشرع في ذم زوجها وذكر معايبه وهتك ستره ونشر أسراره، بل وربما تغري أولادها بأبيهم فتوصيهم بعقوقه وعدم بره حتى يكرهوه، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

فساد المقصد من التعدد:

إذا كان الإسلام قد أباح للرجل أن يتزوج بحد أقصى بأربع زوجات، فإن ذلك يحمله مسئولية ضخمة أمام الله تعالى يوم القيامة، لذلك فيجب على من يرغب في ذلك التأني والتروي وأن يُعد لذلك نية شرعية صحيحة، وليحذر من فساد مقصده من وراء التعدد، (فمن الناس من يعدد لأجل المفاخرة والتباهي، ومنهم من يعدد كسبًا للتحدي؛ فقد يبادر إلى التعدد لأجل أن زملاءه اتهموه بالجبن، وأنه لا يستطيع أن يعدد، وربما وَعَده أحد زملائه بدفع تكاليف الزواج إن هو أقدم على التعدد؛ فلا يزالون به حتى يعدد؛ رغبة في كسب التحدي دون أن يكون له دافع غير ذلك.

ومنهم من يعدد لأجل أن يقهر الأولى ويؤدبها؛ فإذا عادت إلى رشدها طلق الأخيرة دون أن تقترف ما يدعو إلى الطلاق.

إلى غير ذلك من المقاصد القاصرة أو الفاسدة، التي توقع الزوجة في الحرج، وتحمل الزوج على الظلم والإساءة.

فينبغي لمن أراد التعدد أن يستشعر حكمه، وأن ينظر في حاله وحاجته، ومدى ملائمة التعدد له؛ فالتعدد ـ وإن كان مشروعًا في الأصل ـ فإن له أسبابًا تدعو إليه، ومنها[1]:

١ـ **سلوك الزوجة السيئ.** فقد تسلك الزوجة في معاملة الزوج مسلكًا سيئًا يرغم الزوج على التعدد، بدلاً من أن يطلقها.

٢ـ **الرغبة في الذرية.** فقد لا يكون لدى الزوجة قدرة على الإنجاب؛ لمرض أو عقم؛ فيضطر الزوج إلى التعدد؛ رغبة في الذرية.

وقد يكون ذلك في مصلحة الزوجة؛ فقد يرزق الزوج بالذرية، ويُبقي على زوجته الأولى، بل ربما شفيت فيما بعد فرزقت بالذرية فيكون التعدد في مصلحتها؛ إذ أبقى عليها الزوج.

٣ـ **الحرص على العفاف.** فقد يجد الزوج أن زوجته لا تكفيه؛ فيضطر إلى الزواج؛ حرصًا على العفاف.

٤ـ **التماس الأجر.** فقد يتزوج بامرأة ليرعاها، ويعفها، ويكفلها، ويحفظها من أيد قد تنالها بسوء.

٥ـ **مرض الزوجة.** فقد تصاب الزوجة بداء عضال كالشلل أو غيره، والزوج يحتاج إلى من يرعاه، فبدلاً من طلاق الأولى يبقي عليها، ويتزوج بثانية.

---

(١) انظر «تعدد الزوجات» د. عبد الناصر العطار (ص٢٣-٣٦).

٦ـ شعور الرجل بكراهية لزوجته. فقد يجد هذا الشعور من نفسه، فلا يطلق الزوجة حماية لحق الوفاء، ورعاية للتذمم، وحفاظًا على الأولاد، فيتزوج بثانية، ويبقي على الأولى.

هذه بعض الأسباب الداعية للتعدد، أما إذا لم يكن ثمة داع للتعدد، أو كان التعدد مبنيًا على أغراض لا تنبغي فالأولى للمسلم ألا يعدد. اهـ[١].

إن من حق الرجل أن يعدد وأن يتزوج أربع زوجات، ولكن عليه أن ينهج منهج العدالة؛ فإن الحساب شديد يوم القيامة، والظلم ظلمات يوم القيامة.

لذلك فإن هناك ضوابط لهذا التعدد لابد من مراعاتها، منها ما يلي:

- العدالة بين زوجاته في النفقة والمصروفات ونوع السكن والمبيت والوقت الذي يجلس فيه معهن ومصاحبتهن بالأسفار، فقد كان الرسول ﷺ يعمل قرعة بين نسائه في أسفاره لأخذ واحدة من زوجاته. قال عائشة: «**كان النبي ﷺ إذا أراد سفرًا أقرع بين زوجاته فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ ..**» الحديث[٢].

وإذا ضعفت عدالة الزوج كسب الإثم وخلف لأولاده قدوة لا يمكن الاقتداء بها، ونمى لديهم مفاهيم سيئة تعلق في ذاكرتهم وتدفعهم إلى التصرفات الشاذة.

- عدم الإشادة بإحدى زوجاته أمام الأخرى والتغني بجمالها أو خدمتها لأن هذا يترك ردود فعل سيئة ويعمق الفجوة بين الزوجات ويدفع في توسيع المعاناة والفرقة.

---

(١) «من أخطاء الأزواج» محمد بن إبراهيم الحمد (ص٨١-٨٣).

(٢) «سنن الترمذي» النكاح (١٠٩٥).

▪ الزوج مطالب بإبلاغ زوجاته أو زوجته بالزواج من زوجة جديدة، وليس الهدف من تبليغ الزوجات أخذ موافقتهن بل مجرد احترام لمكانتهن معه. لأن معرفة الزوجة بالزواج بالصدفة يؤثر عليها كثيراً، وربما تفسره بمفاهيم خاطئة بعيدة عن السبب الصحيح أو تجد لها ما تعلق عليه رفضها وثورتها.

فمن الضروري إحاطة الزوجة بذلك إلا إذا كانت السرية في هذا الزواج لها ما يبررها بسبب وجود ظروف خاصة تتطلب سرية لبعض الوقت، فقد أجاز بعض الفقهاء ذلك لاعتبارات تصب في المصلحة العامة مع ضرورة حفظ حقوق الزوجة الجديدة عند الوفاة، وذلك بتوثيق الزواج لدى الجهة المختصة حتى لا تضيع حقوقها.

▪ يوصي بعض العارفين بتقديم هدية مناسبة للزوجة السابقة احتراماً لمشاعرها وإكراماً لتجاوبها ووقوفها مع زوجها وتعتبر هذه الهدية شيئاً ضرورياً لأنها تعبر عن مدى تمسك الزوج بزوجته السابقة وأنه ما زال يحفظ لها مكانتها. ومعظم الأزواج المعددين ما زالوا يتبعون هذا المنهج وينفذون هذا الدور عن طيب خاطر(١).

يذكر لي زوج مجرب بأن الزوجات يقمن بعمل فصول ورسائل ويحبكن روايات معلنة وسرية لغرض السيطرة على الزوج واستعمار ميوله، ومعظم هذه الجهود تضيع سدى لأنها لا تأخذ في حسبانها النتائج المتوقعة، بل يمليها الحماس والعاطفة المتمردة وغالبًا تخسر تلك الجهود وتأتي نتيجة عكسية، فمن حفرت

---

(١) لكن لا تشترط الزوجة الأولى على زوجها أن يعطيها قدراً من المال أو يكتب لها شيئًا باسمها تملكه، حيث إن هذا ليس بواجب على الرجل ألبتة.

حفرة لأختـها وقعت فيها . . . ويقول الزوج المجرب بأنه يعـمل خارج الوظيفة مختـرقًا تعاليم ديوان الخدمة المدنيـة ويمتهن وظيفة موزع البـريد حيث يقوم بنقل رسائل إلـى كل من زوجـاته دون أن يدري، وكل زوجة تسـتلم الرسالة تحـمله رسالة أخرى بطريقة أقـوى. لقد قمت بمهمة رجل البـريد لفترة طويلة دون أن أدري ولـم أستلم رواتبـها حيث تقـوم كل واحـدة من زوجـاتي بتحمـيلي رسالة إلى الزوجـة الأخرى ثم ترد الأخرى عليها برسـالة أقوى منها، مثال ذلك تضع الأولى قبلة على الفانيـلا الداخلية وترد الثانية بقبلتين خلف رقـبة الثوب وهكذا ولا يوجد مجلس أمني يعطيني حقـوقي لعملي خارج الدوام أو يمنحني تكاليف الإضرار بي دون عـلمي، ومثل هذا السلوك تقـدم عليه الفـتيات المـراهقات أو الجاهلات. اهـ[1].

وهذا آخر ما تم جـمعه وتأليفه، سائلاً الله تـعالى أن ينفع به كل من يقرؤه، وأن يدخر الله تعالى لي ثوابه يوم لقائه، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وكتبه
عصام بن محمد الشريف
- عفا الله عنه -

---

(١) «الشهد والشوك في الحياة الزوجية» صالح بن عبد الله العيثم (ص٢٠٧-٢٠٩).

الفهرس

الموضوع	صفحة
* إهداء	٣
* مقدمة	٥
الصفة الأولى	١١
مستقيم على طاعة الله تعالى استقامة جادة	
* نماذج شامخة من أئمة السف في الاستقامة	١٥
* حقيقة الاستقامة	١٦
* جزاء المستقيمين على دين الله	١٩
* مظاهر نقص الاستقامة	٢٠
الصفة الثانية	٢٨
حسن الخُلُق، هيِّن ليِّن، قريب سهل	
* في فضل حسن الخُلُق	٣١
* أمور تعين على حسن الخلق مع الزوجة	٣٤
* أين كلام الحب والإطراء؟	٣٧
* هل المسلم فاحش أو بذيء؟	٤٣
* هل يمكن اكتساب الخُلُق؟	٤٤
الصفة الثالثة	٤٦
مجتهد في طلب العلم الشرعي	
* فضل العلم	٤٦
* آداب طالب العلم	٥٣
* كيف نتحمس لطلب العلم؟	٥٩

الموضـــوع صفحة

* آفات العلم ٦٠
* ثمرة العلم العملُ به ٦٦
* صفحات نورانية في علو الهمة في طلب العلم ونشره ٦٨
* المكتبة الإسلامية داخل البيت ٧٣
الصفة الرابعة ٨٠
قدوة حسنة، قوله يوافق عمله، وعمله يوافق قوله
* كيف يحقق المسلم القدوة الحسنة؟ ٨٦
ـ ملازمة أهل الصلاح ٨٦
ـ الإقبال على الطاعات ٨٧
ـ مطالعة أخبار الصالحين والتأمل في سيرهم ٨٧
الصفة الخامسة ٨٩
حسن الخُلُق، هيِّن ليِّن، قريب سهل
* الفروق بين الرجل والمرأة (الجسمية ـ النفسية ـ الدينية) ٨٩
* فن التعامل مع الزوجة ٩٤
١ ـ ملاطفة الزوجة وتدليلها ٩٥
٢ ـ التجاوز عن الأخطاء ٩٧
٣ ـ التزين والتطيب والتجمل للزوجة ٩٩
٤ ـ القناعة والرضا بالزوجة ١٠٠
٥ ـ الاهتمام بالزوجة ١٠١
٦ ـ مداراة المرأة وعدم التضييق عليها والاعتذار إليها ١٠٤
٧ ـ إظهار المحبة والمودة للزوجة ١٠٦
٨ ـ التعاون على طاعة الله تعالى ١٠٧
٩ ـ المزاح المرح مع الأهل ١١٠

الموضـــوع صفحة

١٠ ـ مساعدتها إذا تعبت ١١٢
١١ ـ مراعاة شعورها ونفسيتها وتطييب خاطرها ١١٣
١٢ ـ الحذر من شتمها وضربها والإساءة إليها ١١٤
١٣ ـ التوسيع على الزوجة في المطعم والملبس والنفقة ١١٦
١٤ ـ عدم التساهل مع الزوجة فيما يغضب الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ١١٨
الصفة السادسة ١٢٣
ليس من رواد الدنيا؛ لأن الآخرة تشغله عنها ليل نهار
* ليس من رواد الدنيا ١٢٣
* الزهـــد: فضله وحقيقته ١٢٩
* أعلى التجارة هي التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ١٣٦
* ما هو فقه التجارة مع الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ١٣٨
الصفة السابعة ١٤٢
يعرف منهج تربية أولاده (الطريق والتطبيق)
* خطوات في أسس تربية الأولاد ١٤٣
الصفة الثامنة ١٤٨
يذكرني دائماً بالرحيل عن الدنيا
* موعـظة ١٤٩
* تقي نقي، زاهد بعلم، غير غافل عن ربه، لسانه رطب بذكر الله تعالى ١٥١
الصفة التاسعة ١٦٠
يعرف قيمة الوقت وأهميته
* أهم الطاعات في اليوم والليلة ١٦٣
* أهم العوامل المساعدة على استغلال الوقت ١٦٤
* هل قمت بدراسة جدوى لحياتك؟ ١٦٦

الموضوع	صفحة
الصفة العاشرة	١٧١
رجل المشاعر والمودة والرحمة	
الصفة الحادية عشرة	١٧٦
يهتم بمظهره ونظافته ورائحته الطيبة	
* ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾	١٧٧
الصفة الثانية عشرة	١٨١
لا ينسى أن يشكر زوجته دائماً	
الصفة الثالثة عشرة	١٨٤
يصل رحمه ويكرم أهل زوجته	
الصفة الرابعة عشرة	١٨٧
عاقل حكيم .. هادئ متزن غير متهور ولا مندفع ولا منفعل	
* كلمة في أذن الرجال	١٩٠
* وسائل معالجة الخلاف بعد وقوعه	١٩٦
* بعد القواعد والإرشادات لتجنب الخلافات ما أمكن	١٩٩
الصفة الخامسة عشرة	٢٠٢
عابد لله .. كثير الذكر ـ صوام .. قوام	
* نصائح لتربية النفس على العبادة	٢٠٣
الصفة السادسة عشرة	٢١٠
مؤمن مجاهد صابر .. راضٍ بقضاء الله وقدره	
* من أهم علامات الصبر المحمود	٢١١
* بعض المواقف الإيمانية في الصبر على البلاء والرضا بمر القضاء	٢١٤
الصفة السابعة عشرة	٢٢٥
رجل الدعوة المتزن .. الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر	

الموضـــوع | صفحة

* لماذا يلتزم المسلم بالدعوة إلى الله تعالى؟ ٢٢٥
* مقومات النجاح في تكوين الداعية ٢٢٨
* مقومات النجاح في ممارسة الدعوة ٢٢٩
* نماذج لمواقف إيمانية في الدعوة إلى الله تعالى ٢٣٢
الصفة الثامنة عشرة ٢٣٧
إذا عدَّد فلأنه يعلم أن تعدد الزوجات مشروع وله حِكم وفوائد
* فضل تعدد الزوجات ٢٣٧
* شبهات حول التعدد والرد عليها ٢٤٣
* الطعن في تعدد الزوجات رِدة عن الإسلام ٢٥٤
* أصناف المحاربين لسنة التعدد ٢٥٥
* تعدد الزوجات من شرع الإسلام .. ولو كره الكارهون ٢٥٨
* إلى الأزواج العازمين على التعدد ٢٦٧
* فساد المقصد من التعدد ٢٧٨
* الفهرس ٢٨٣

من مطبوعات دار الإيمان للمؤلف

هذه هي زوجتي

بقلم

عصام محمد الشريف

رحمه الله

دار القمة
لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي
ت: ٥٤٥١١٦٩ - ت: [illegible]

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ت ٥٤٥٧٧٦٩

تطلب مطبوعاتنا من

التوزيع في المملكة العربية السعودية: دار طيبة الخضراء مكة المكرمة ت: ٥٥٨٩٠٢٧

التوزيع في الجزائر: مجمع السيرة للكتاب والشريط الهادف

سطيف: 7 شارع الرخايف - هاتف: 66 48 83 036 - 08 51 06 062

الجزائر: 31 20 21 075 - بسكرة: أمام الضمان الاجتماعي هاتف: 56/05 44 071

التوزيع في اليمن: مكتبة الإمام الألباني صنعاء شارع الرباط - بجوار جولة القادسية ت: 212281
المكلا مقابل مسجد با زرعة ت: 05/316437 - جوال: 71137438

التوزيع في المغرب: مكتبة الرسالة 56 زنقة الإمام القسطلاني ... الدار البيضاء هاتف 446664

دار الإيمان للطبع والنشر والتوزيع

١٩،١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية

تليفوفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩ ت: ٥٤١١٩١٠-٥٢٢٢٠٠٢

E-mail: dar_aleman@hotmail.com

دار القمة لتوزيع الكتاب والشريط الإسلامي

Dar AL-Eman

Printing, Publishing&Distribution

100890 / 18 SR

COL # 0